نظرية
في الشرك وآلهة الحداثة

نظرية
في الشرك وآلهة الحداثة

محمد خليفة

القياس: 14 × 20 عدد الصفحات: 256

ISBN: 00000000000000000000

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2025 م

لا يسمح بإعادة نسخ أو طبع أو تصوير هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي واسطة كانت
إلكترونية أو مرئية أو مسموعة دون إذن خطي مسبق من المؤلف
تحت طائلة المسؤولية والمحاسبة القانونية

دار منابع النور
دار منابع النور
DÂR MENABİU'N NÛR
+90 546 590 74 07 +90 552 213 61 35
FEVZİPAŞA Cad. Fatih PTT Merkezi
No:11 Kat:3/9 - 34080
FATİH/ İSTANBUL
إسطنبول - الفاتح - شارع فوزي باشا

التصميم والإخراج الداخلي
لمسات للتنفيذ والإخراج الطباعي
lamasattdp@gmail.com
لمسات LAMASAT

نظرية

في الشرك وآلهة الحداثة

محمد خليفة

مُدخل

يصف الشيخ محمد عبده علم التوحيد بأنه «**ركن العلم الشديد**».[1] ولما كان هذا الركن قد انهدم بفعل تتابع عصور الانحطاط على المسلمين فقد كان عدم وجود مؤلف يفي بالغرض مما اصطدم به الشيخ عندما دُعيَ لتدريس هذا العلم في بيروت مع بداية القرن الرابع عشر للهجرة.[2]

في السياق السالف بيانه يقول الشيخ: «**لما كنت في بيروت ودعيت... لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها علم التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من إفادة التلاميذ، والمطولات تعلو عن أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم.**»[3]

وما اكتشفته أنا، بعد قرن من وفاة الشيخ محمد عبده رحمه الله، هو أن علم التوحيد سيظل علمًا أعرجَ إذا لم يتضمن نظرية في الشرك وآلهة المشركين: وضع الشرك في صورة نظرية، وآلهة الحداثة من ضمن مفرداتها، هو ما سيجعل «ركن العلم الشديد» يتوازن، من جديد، على الجمع بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. هذا التوازن، الذي مختصره لا إله إلا الله، هو العروة الوثقى التي يستمسك بها كل من يمشي سويًا على صراط مستقيم.

وحيث لم أستبعد وجود كتاب جامع قد يغني عن الحاجة للتأليف من جديد في موضوع الشرك وممارسات المشركين، بدأت البحث عن مثل ذاك الكتاب،

---

(1) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، تحقيق د محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ص 14.

(2) كان ذلك سنة 1303 للهجرة، التي تقابل سنة 1885-1886 ميلادي.

(3) رسالة التوحيد، مرجع سابق، ص 13.

فلم أجد سوى كتاب الشيخ مبارك الميلي «**الشرك ومظاهره**»[1]. ومظاهر الشرك في كتاب الشيخ الميلي مما يمكن معالجته بعلم التوحيد في مصنفات عبده والميلي، أما الشرك وآلهة المشركين التي دفعتني أنا لوضع هذا الكتاب فلم أرى لها مصنفًا بعد.

بعبارة أخرى؛ لو كان الشرك على ما كان عليه أيام الجاهلية الأولى أو متفرعًا عن مظاهرها القديمة لكفاه ما وضعه عبده والميلي، ولكن الشرك المعاصر قد أخذ أشكالًا غير مسبوقة، مع ظهور آلهة جديدة في أوربا-الحداثة. ومن خصائص هذه الآلهة أنها نظرية؛ بمعنى أنها لا تنكشف إلا لمن اطلع على أصول وفروع الفكر الأوربي المكوّن للضلال المبين: (الضلال الذي يتحول إلى مناهج ومدارس)![2]

ومع تحول الحضارة الأوربية-الغربية إلى حضارة عالمية تحولت أصنام أوربا وأوثانها النظرية إلى قيم عالمية هي الأخرى. وبذا تلوثت عقيدة المسلمين وعالمهم، وتحولت حياة الموحدين الصادقين منهم (الذين يكفرون بالطاغوت) إلى جحيم، لأن حراسة أصنام الحداثة والنظام القائم عليها أصبح ظاهرة عالمية، وممارسة يومية يتفانى النظام العالمي في القيام بها والتشدد في حفظها!

وآلهة الحداثة (= أصنامها النظرية) تدّرس لأبناء المسلمين وفي جامعاتهم على أنها نظريات سياسية، وهي كذلك، غير أن طابعها النظري يخفي جوهرها الطاغوتي، وهو ما يستدعي هتك استارها والكشف عن أسرارها.

---

(1) تعليق وتحقيق أبو عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر، 2001.

(2) ما اسميه الضلال المبين، في الفكر الأوربي، هو ما سماه أبو حامد الغزالي «العلم الفاسد» في كتابه المنقذ من الضلال، تحقيق د/ محمد أبو ليلة، ود/ نور شيف عبد الرحيم رفعت، واشنطن، جمعية البحث في القيم والفلسفة، 2001، ص178.

وسيُذهل المسلم عندما يكتشف أن مفكري أوربا، الذين لا يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ، أكثر وعيًا بأصنام أوربا[1] من بعض أهل التوحيد الذين يعيشون على التقليد ويكتفون به. وهذا هو ما يجعل «**رسالة التوحيد**» للشيخ محمد عبده وكتاب «**الشرك ومظاهره**» للشيخ مبارك الميلي -على أهميتهما- من الكتب القديمة التي لا تفي بالغرض ولا تحقق القصد.

لكل ما سبق استأنفت البحث في الموضوع لتبيان أن الأصنام النظرية في الزمن الحاضر لها ذات مفاعيل أصنام الجاهلية الأولى. وهذا العمل لازم لتجديد الإيمان بأن الله لا إله غيره، فبدون هذا التجديد النظري سيبقى علم التوحيد يعرج على الإيمان بالله دون معرفة بالطاغوت أو عزمٌ على الكفر به، لأن أصنام الحداثة من المجهولات (نظرية)[2].

ولما كان الشرك نقيضًا للتوحيد وجب التنبيه إلى أن هذا الكتاب مخصص للشرك بحسبانه: 1. اتخاذ آلهة مع الله، 2. التوجه بالعبادة إلى غير الله أو الحكم بخلاف ما انزل الله. وفي هذا ما يكفي لاستبعاد ما يتناوله علم الكلام فيما يجب الإيمان به، واستبعاد كل أنواع الكفر ما عدا الشرك.

في ضوء ما سلف سيتألف هذا الكتاب من قسمين؛ القسم الأول يتحدث عن الشرك وأعمال المشركين، وهي ليست قليلة، وتستحق الرصد في مؤلف مستقل

---

(1) Idolatry may always be used (...) to describe any mistaken idea of God that men may worship...., (Norman Daniel, Islam and the West: The Making of an Image. Oxford, OneWorld Publications, 2009, p. 343).

(2) في كتابه هكذا تحدث زرادشت خصص نيتشه فصلاً للدولة وسماه «الصنم الجديد» The New Idol. ولمزيد من الشرح ومعرفة الصنم القديم راجع كتابي «بين يدي الدستور»، إسطنبول، دار منابع النور، 2021.

يكمل ما نقص ولا يكرر ما سبق. ثم القسم الثاني ويتحدث عن آلهة الحداثة وهي؛ «الدولة» و«الثورة» و«الوطن» و«الشعب» و«الزعيم»، وهي نظريات رفعتها أوربا إلى مقام الألوهية، ثم تبعها في ذلك الغافلون من أبناء المسلمين وهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعًا.[1] وعلى هذه الآلهة المتعددة -التي كثر عبّادها- تأسس النظام العالمي الحالي، الذي نحن جزء منه، أو تابعون له!

(1) أشهر هؤلاء مصطفى كمال أتاتورك (في تركيا)، والحبيب بورقيبة (في تونس)، ومن وراءهم الكثير من المثقفين المعاصرين.

القسم الأول

نظرية في الشرك

الباب الأول

آلهة مع اللّه

آلهة المشركين قد تكون أشخاصًا، وقد تكون أشياء، وقد تكون أفكارًا في صورة نظريات يرفعها أصحابها إلى مقام الألوهية. هذه الأنواع الثلاثة من آلهة المشركين هي ما سيكون محلًا للشرح في الفصول الثلاثة المكونة لهذا الباب.

الفصل الأول
آلهة أشخاص

سيجري الحديث هنا عن نوعين من الأرباب والآلهة؛ النوع الأول سياسي مثل فرعون، والإمبراطور الروماني، والإمبراطور الياباني (المبحث الأول). والنوع الثاني ديني؛ مثل تأليه المسيح واتخاذ اليهود أحبارهم، والنصارى رهبانهم، أربابًا من دون الله (المبحث الثاني).

المبحث الأول
آلهة سياسية

سأستعرض في هذا المبحث التطورات التي امتدت من تأليه فرعون في مصر القديمة إلى تأليه الإمبراطور الروماني في الحقبة التي شهدت ميلاد المسيح ﷺ (أولاً). ثم انتقل بعد ذلك إلى الحقبة التي امتدت من الإمبراطور الروماني لحظة ظهور المسيح إلى الإمبراطور الياباني في الحرب العالمية الثانية، مرورًا بملوك أوربا وأباطرتها في العصرين الوسيط والحديث (ثانيًا).

أولاً - من فرعون إلى الإمبراطور:

أ. فرعون:

والمقصود به ملك مصر الذي استعبد بني إسرائيل حتى بعثة موسى ﷺ. وقد تكون نقطة البداية المناسبة في هذا البحث هي أمره جل وعلا لموسى بمواجهة فرعون عندما قال له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: 17-18]؟، ثم كرر نفس الأمر لموسى وهارون معًا فقال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 43-44].

والطغيان هو تجاوز الحد لقوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، أي لما تجاوز الماء حدود النفع المعتاد، وتحول إلى فيضان مدمر، حملناكم في السفينة. ووجه الطغيان، أو تجاوز الحد، في عمل فرعون هو ادعاؤه مقامي الربوبية العليا والألوهية واحدًا بعد الآخر، لقوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، ثم ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38].

قابلية الأرباب للتعدد جعلت فرعون يضع نفسه موضع الرب الأعلى! وحيث لا يكون الرب الأعلى إلا إلهًا، ولا يكون الإله إلا واحدًا، ثنّى فرعون بالقول ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: 38]! الخطاب القرآني يبين، من خلال الخطاب الفرعوني، قابلية الارباب للتعدد واستحالة ذلك في باب الألوهية. لقد طغى فرعون عندما تجاوز حده البشري وادعى الألوهية. ولهذا الطغيان السياسي أبعاد وآثار اجتماعية وأخرى دينية.

1 ـ على الجانب الاجتماعي:

رأى فرعون في إبادة ذكور المواليد من بني إسرائيل إجراء من الإجراءات اللازمة للأمن الفرعوني، الذي يسمى الآن «الأمن القومي» أو «أمن الدولة».[1] وعندما ظهر موسى حاملاً الرسالة السماوية، ومبلغًا لها، لم ير فيه فرعون شيئًا سوى دين جديد في دائرة حكمه، وخطرًا يتهدد ملكه، فقال متحديًا موسى وإله موسى: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: 26].

وكان فرعون يعول، في كل هذا، على خفة شعبه وقلة عقل الملأ من حوله. «الملأ».. تلك الحاشية التي رأت أن مصلحتها جزء من المصالح الفرعونية، فحرضت فرعون على موسى وبني إسرائيل قائلةً: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: 127].

(1) جوهريًا؛ ما قام به هتلر في ألمانيا، وما قام به موسوليني في ليبيا، وستالين في روسيا، وما قام به ملك بلجيكا في الكنغو، وما قام به الأوربيون في العالم الجديد، لا يختلف عما قام به فرعون في مصر القديمة، غير أن تعاقب العصور وطول العهد جعل الكثير من أهل الفكر غير قادرين على رؤية وحدة الظاهرة.

عندما يضع فرعون نفسه موضع الرب الأعلى تكون دعوة موسى إلى الله مفسدة لهذه الربوبية، التي تغطى عادة بمصطلحات من نوع «المصلحة العليا» و«السياسة العليا» و«الأمن القومي». طغيان فرعون «سياسة عليا» أو «مصلحة عليا» و«أمن قومي» من وجهة نظر فرعون وملأه، لكنها سياسة خاطئة، ومصلحة غير معتبرة، في حكم الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: 8].

النص القرآني لا يعفي الجنود الذين ينفذون الأوامر من المسئولية لمجرد إنهم جنود، فلا يجوز أن يُعصى الله لأن الأوامر جاءت بذلك. وخطأ فرعون وهامان وجنودهما أسمه الطغيان الذي حرمهم توفيق الله، فكان هلاكهم في التقاطهم موسى وهو رضيع لا يقدر على شيء فنشؤوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا. وقد غرقوا في طغيانهم قبل أن يغرقوا في البحر وهم في أثر بني إسرائيل. ذاك هو جزاء الطغيان: حرمان التوفيق، وحصول التدمير الذاتي من حيث يظن الطاغية حسن التدبير.

2 ـ على الجانب الديني:

رأى فرعون في إيمان السحرة بإله موسى تطاولًا على مقامه لأنه لم يأذن بذلك، فسأل سؤالاً استنكاريًا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: 71]؟! إيمان لم تتقدمه موافقة أمنية مؤامرة تهدد أمن مصر الفرعونية -في شريعة فرعون- وجريمة عقوبتها المناسبة هو صلب الذين آمنوا على جذوع النخل. فعندما آمن السحرة بموسى نتيجة هزيمتهم أمام معجزته رأى فرعون في ذلك خرقًا للقانون، لأن السحرة لم يحصلوا على إذنه فقال: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 71].

كان السحرة مخلصين لفرعون، ومن أدواته الدعائية، حتى ظهر لهم البرهان، فتركوا الباطل وآمنوا برب هارون وموسى ﷺ. كان الموقف بطبعه يحتم الاختيار بين الله وفرعون، فاختار السحرة الله واليوم الآخر، مع علمهم بالعواقب الدنيوية لهذا الاختيار، إذ قالوا لفرعون في تحدي: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 72-73].

وقف المؤمنون الجدد، الذين كانوا قبل قليل سحرة، موقفًا استشهاديًا في مواجهة طغيان فرعون[1]. الطغيان يبدأ باعتقاد صاحب السلطة أن سلطانه يؤهله لأن يكون الرب الأعلى. وهذا هو الطغيان السياسي!

تصرفات فرعون ومواقفه إلغاء نظري لألوهية رب العالمين لأن فرعون قيد الإيمان بالله بإذن منه، وهو لا يملك ذلك، لأنه ليس الرب الأعلى أو الإله المعبود في مصر على الحقيقة، وإن قادته أوهامه إلى القول: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: 51]؟. سؤال استنكاري آخر على لسان إنسان يدعي الألوهية. ولم يكن فرعون الطاغية الأول ولا الأخير.

ب. النمرود:

المواجهة بين موسى وفرعون صورة من المواجهة بين إبراهيم ﷺ والنمرود، غير أن المواجهة/المحاجة هذه المرة كانت في سياق من هو الرب الذي يحيي ويميت. ولما قال النمرود ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: 258]!

(1) كان طغيان الطغاة دائمًا امتحانًا لإيمان الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر.

لقد ظن النمرود أن تركه الناس لتعيش منة منه، لأنه يستطيع قتل من يشاء منهم، وهذا يكفيه ليكون إلهًا.

عندما قال إبراهيم ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ جعل النمرود من نفسه لله ندًا وقال ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ فلما تحداه إبراهيم بأن يأتي بالشمس من المغرب بُهت! نسي النمرود أن الذي آتاه الملك هو الله الذي يأتي بالشمس من المشرق ويدبر أمر مخلوقاته دون شريك، وأن الذي آتاه الملك يمكن أن ينزعه منه، وقد نزعه منه فعلاً.

الطغيان قصير النفس أمام مالك الملك الذي يمهل ولا يهمل! هلك النمرود مثلما هلك فرعون ولكن عندما يهلك الطاغية يكون قد ترك خلفه قافلة من الشهداء، وقافلة من العبر والدروس لمن شاء أن يستقيم.

ومما يقع في مستقر العادة أن الطغاة يتعاقبون ولا ينتهون، فما أن يهلك طاغية حتى يظهر غيره، في مكان آخر أو زمان آخر. ومما يقع في مستقر العادة كذلك أن معظم الناس لا يتعظون، وربما لهذا السبب أنزل الباري عز وجل في محكم كتابه ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولَا﴾ [المزمل: 15].

إذا قرأت هذه الآية -من سور المزمل- في سياقها التاريخي فستجدها موجهة إلى أهل مكة. وإذا قرأتها باعتبار اللسان تجدها موجهة للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم. وإذا قرأتها باعتبار عموم رسالة سيدنا محمد ﷺ تجدها موجهة إلى كل واحد فينا، لأن الطاغية قد يكون رب أسرة أو رب عمل، أو رجل سياسة يعتقد أن بإمكانه أن يكون رب العالمين، أو يتصرف باعتباره إله من الآلهة. فرعون وهامان والنمرود يعيشون بيننا، ولكن بأسماء وصفات أخرى.

ج. الإمبراطور:

قد تكون تجربة الإسكندر المقدوني هي القناة التي مرت منها فكرة «الملك-الإله» من مصر الفرعونية إلى أوربا التي ستصبح فيما بعد إمبراطورية تؤله إمبراطورها الروماني. فعندما غزا الإسكندر مصر سنة 332 ق. م. أمر ببناء مدينة جديدة تحمل اسمه (الإسكندرية)، واتجه إلى الجنوب الغربي حيث معبد آمون في واحة سيوة. وهناك أعلنه الكهنة ابنًا للإله آمون، ليصبح فرعونًا وفقًا للتقاليد المصرية.

كانت ظاهرة «الملك الإله» أو «الحاكم الإله» شائعة في الشرق القديم ومن ضمنه بلاد فارس[1]، وقد يكون شيوع الفكرة هناك مما شجع الإسكندر على أن يجعلها من منجزاته، لكنها لم تتجاوز أحلامه التي لم تتحقق. كان الإسكندر يبني امبراطورية وفي حاجة لأن يكون إلهًا أو ابن إله مثل فراعنة مصر القديمة، لكن الفكرة لم تلقَ قبولاً لدى الإغريق.

وكان موت الإسكندر السريع وانقسام امبراطوريته من بعده سببًا في عدم رفعه إلى مقام الألوهية على المستوى الإغريقي-الأوربي. وبذا كان على فكرة «الإمبراطور-الإله» أن تنتظر حتى اقتراب ميلاد المسيح لتتحقق في روما، وعند الرومان، ابتداءً من سنة 42 ق. م.

ما كان يصبو إليه الإسكندر حققه الأباطرة الرومان فأصبح الإمبراطور الروماني إما إلهًا أو ابن إله، يُعبد وحده أو مع آلهة أخرى، في روما نفسها وفي المستعمرات الرومانية. وكما يقع في مستقر العادة؛ جاءت وفود من

(1) سأعود إلى هذا الموضوع لاحقًا عندما افصل القول في عبادة الإمبراطور وتأثر الإسكندر بممارسات الفرس

المستعمرات الشرقية إلى روما لتستأذن في بناء معابد للإمبراطور في البلاد المستعمرة![1]

في التراتبية الدينية الرومانية كان لقب الإمبراطور **Pontifex Maximus** وهو ما يترجم إلى «**الحبر الأعظم**». وعند دخول الرومان في المسيحية سنة 313م ظل الإمبراطور هو «**الحبر الأعظم**» حتى سنة 366 ثم تنازل عن اللقب للبابا ليصبح هذا الأخير الرب الأعلى في التراتبية الرومانية المسيحية. و«**الحبر الأعظم**» في التاريخ الروماني يساوي «**الرب الأعلى**» في لغة القرآن الكريم. وسنرى فيما بعد الاثار التشريعية لهذا المركز الذي ورثه البابا عن الإمبراطور زاعمًا أنه ورثه عن المسيح.

ثانيًا: من الإمبراطور الروماني إلى الإمبراطور الياباني:

ظل اليابانيون حتى الحرب العالمية الثانية في مستوى إدراك المصريين أيام الفراعنة: لا يرون غضاضة في عبادة الإمبراطور. وبالإمكان قلب الفرضية والقول إن المصريين أيام الفراعنة كانوا بهمة ونشاط وانضباط اليابانيين اليوم.

المعيار الذي استخدمته لقياس إدراك اليابانيين هو الألوهية، والتشابه الشديد بين فرعون مصر في مصر القديمة، وامبراطور اليابان في اليابان المعاصرة، من حيث الإله المعبود. أما المنجز المادي للمصريين القدماء فهو ما جعلني أستنتج أنهم كانوا بهمة ونشاط والتزام اليابانيين اليوم، لأن المنجز الفرعوني القديم لا يمكن أن يحققه مجتمع مفكك من نوع المجتمع المصري المعاصر.

دقة المنجز المادي في مصر الفرعونية مذهل لكن إدراك المصريين في ذاك الزمان كان سطحيًا حتى أن فرعون استخفهم فأطاعوه! المصريون عبدوا

(1) نوع مما يسميه مالك بن نبي «القابلية للاستعمار»!

فرعون قبل خمسة ألاف سنة، واليابانيون عبدوا الإمبراطور حتى منتصف القرن العشرين، وذلك يجعلهم في نفس مستوى الإدراك والشعور بالرغم من الفارق الزمني![1]

ولهذه المقدمة غرض واحد؛ وهو التأكيد على أن معيار الألوهية وتوحيد الإله المعبود هو ما يحكم نظرة صاحب هذا الكتاب إلى عالمي الأفكار والأشخاص، أما عالم الأشياء حيث المنجز المادي والحسابات المادية فالاهتمام به والتركيز عليه لا يكون عند غير من كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه.

في ضوء ما سبق سأشرح تطورات تأليه الأباطرة، من الإمبراطور الروماني إلى الإمبراطور الياباني، مرورًا بملوك اوربا في العصرين الوسيط والحديث وتشبههم بالأباطرة-الآلهة قصد الإفلات من قبضة الكنيسة، والاستقلال عن البابا، الذي يعتقد أنه ورث مفاتيح الأرض والسماوات عن بطرس، الذي استلمها بدوره من المسيح-الإله.[2]

أ. الإمبراطور الروماني:

كانت عبادة الأشخاص (ولاسيما الأسلاف)[3] معروفة عند الرومان، لكن عبادة الإمبراطور لم تعرف بشكل رسمي إلا عندما تم تأليه يوليوس قيصر بقرار من مجلس الشيوخ في روما، قبيل ميلاد المسيح ببضعة عقود.

(1) عندما يجعل الناس مع الله إله آخر تصبح قيمة زمنهم صفر، والاعمال فيه هباءً منثورًا، غير أنهم لن يدركوا ذلك قبل يوم القيامة.

(2) جاء في إنجيل متى (16: 19) أن عيسى قال لبطرس: «سأعطيك مفاتيح مملكة السماء، فمهما عقدت على الأرض فهو معقود في السماء، ومهما حللت على الأرض فهو محلول في السماء».

(3) كان الرومان يعتقدون أن الأرواح، ولاسيما أرواح الموتى من الأقارب، تؤثر في عالم الأحياء، ولذا دأبوا على التوجه إليها ببعض الشعائر اليومية في البيوت بإشراف رب الأسرة، وفي بعض المناسبات والأماكن العامة بإشراف كهنة مشعوذين.

اغتيل يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ سنة 44 ق م. ومجلس الشيوخ هذا، الذي قتل فيه، هو من أعلنه إلهًا سنة 42 ق. م. وهذا معناه أن تأليه يوليوس قيصر لم ينجز في حياته وإنما بعد مماته. وكان الإمبراطور أغسطس (الذي حكم روما بين سنتي 27 ق. م، و 14 م) أول من ثبت نظام الإمبراطور-الإله في حياته، ليصبح «فرعونًا رومانيًا» يحكم الإمبراطورية الرومانية حول البحر المتوسط لواحد وأربعين سنة.

كان الإمبراطور بوصفه الرب الأعلى هو من يأذن ويمنع في الشؤون الدينية، ولذا لم يمانع الإمبراطور هادريان[1] في أن تكون معه إلاهةٌ أنثى تحمل اسم عاصمة الإمبراطورية (روما)، وقد أنشأ لها في عهده معبدًا في العاصمة نفسها[2].

وكان هذا النظام الروماني يسمى في حينها «**السلام الروماني**» Pax Romana، ويسمى في نفس الوقت «سلام الآلهة» Pax Deorum، على اعتبار أن النظام قائم على تعدد الآلهة والإمبراطور من ضمنها. ومن يعكر هذا السلام توجه له تهمة الإخلال بسلام الآلهة.

ومن يرفض عبادة الإمبراطور يحاكم باعتباره قد عكر «**سلام الآلهة**» أو تسبب في الأضرار به. وهذه التهمة مثل ما يصنف اليوم «جرائم أمن دولة». وهي ذات التهمة التي وجهت لموسى وبني إسرائيل أيام الفراعنة، بعد أن وضعها «الملأ» في صيغة سؤال استنكاري: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]؟! عندها رأى فرعون في ذبح أبناء اليهود واستحياء

(1) ولد سنة 76م ومات سنة 138، وكان امبراطورًا بين سنتي 117-138.
(2) وعلى مستوى الخرافة كان جوبيتر هو كبير الآلهة الرومانية.

نسائهم قدرًا كافيًا من القهر الذي يضمن له موقع الرب الأعلى! ـ هذا هو التصور الفرعوني للأمور!

ولم يكن التصور الروماني لموقع الإمبراطور مختلفًا عن تصور المصريين لموقع فرعون، ولهذا التساوي في التصورات لم يكن تعامل الإمبراطور الروماني مع اليهود ثم مع النصارى من بعدهم مختلفًا عن تعامل فرعون مع بني إسرائيل. والسبب في تطابق المنهجين الفرعوني والروماني في التعامل مع اليهود والنصارى هو فكرة التوحيد التي حملها المضطهدين من المؤمنين (يهودًا ونصارى).

التوحيد يفترض نظامًا نقيضًا لنظام تعدد الآلهة ولذا صنف بالأمس ويصنف اليوم قضايا أمن دولة: (= أمن نظام قائم على تعدد الآلهة)! وقد تعامل الفراعنة (في مصر) والأباطرة (في روما) مع التوحيد (أي الإيمان بوحدانية الإله) على أنه تهديد مباشر لبقائهم (آلهة أو أبناء آلهة: لا يُعصى لهم أمر). وقد ظل الوضع على هذا الحال حتى تحولت أوربا إلى المسيحية.

في القرن الميلادي الرابع، وابتداءً من سنة 313 م، تركت أوربا عبادة الإمبراطور-الإله واستبدلت بها عبادة المسيح-الإله. بذاك التاريخ صدر مرسوم ميلانو الذي أوقف اضطهاد النصارى واعترف بالمسيحية دينًا، لتبقى أوربا والمسيحية بعد ذلك ضمن عالم تعدد الآلهة حتى يوم الناس هذا.

ب. الإمبراطور الياباني:

ظل الإمبراطور الياباني إله يُعبد في اليابان، من سنة **660** ق. م إلى سنة **1945**م. كان اليابانيون لا يرون الإمبراطور ولا يسمعون صوته ولا يذكرون

حتى اسمه، إلى أن هُزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية، وعندها سمع اليابانيون صوت الإمبراطور لأول مرة في تاريخهم الطويل.

ولسوء خاتمة الفرعون الياباني (الإمبراطور-الإله) كانت أول كلماته لليابانيين هي الإعلان عن هزيمة بلاده في الحرب العالمية الثانية. وعندها شاعت موجة من الانتحار في البلاد، وتم بعضها أمام قصر الإمبراطور للتعبير عن ندم المنتحرين على التقصير في تحقيق النصر. اعتبر اليابانيون أنفسهم مسئولين عن الإساءة للإمبراطور الذي كان من نسل الآلهة، ويوصف بـ «ابن السماء».

كان لليابان آلهة متعددة يعرف أحدها بـ «كامي»[1]. وقد أطلق «كامي كازي»، -التي تعني حرفيًا «الإعصار الإلهي»- على الطيارين الانتحاريين الذين هاجموا قطع الاسطول الأمريكي في الحرب العالمية الثانية. كان الإمبراطور الياباني إله من آلهة الباطل، وقد هُزم مثلما هزم فرعون المصري، لكن الغافل لا يرى وحدة الظاهرة لطول العهد.

لو كان الباطل ينقلب حقًا بمرور الزمن لصار الإمبراطور الياباني إلهًا، لكن الحق يبقى حقًا إلى قيام الساعة، والباطل يبقى باطلاً إلى قيام الساعة. في النهاية أصدر الإمبراطور الياباني (سنة **1947**) ما يعرف بـ «**إعلان الطبيعة البشرية**». وقد ورد فيه أن الافتراض القائل بأن الإمبراطور من طبيعة إلهية افتراض خاطئ. هذا الافتراض الخاطئ عمَّر ستة وعشرين قرنًا![2]

(1) كان هناك كامي الأرض، وكامي البحر، وكامي الجبل، وكامي حقول الأرز، وكامي مفترق الطرق، وكامي المنزل ومرفقاته ... إلخ. وكان الإمبراطور إلهًا معبودًا ضمن تلك الآلهة المتعددة.
(2) الافتراض الخاطئ الآخر، الذي عمّر لألفي سنة حتى الآن، هو افتراض ألوهية المسيح!

ثالثاً ـ تطلع ملوك أوربا إلى الربوبية العليا (الألوهية):

هناك قضية وهمية لن أضيع وقتًا طويلاً في تناولها، وهي قضية «**الإمبراطورية الرومانية المقدسة**» (**800-1806**)،[1] لأنها إمبراطورية زائفة، وافتراض وهمي، تلاعب به وتنازع عليه ملوك وباباوات أوربا لقرون طويلة.[2]

ذكرت فيما تقدم رغبة ملوك أوربا الاستقلال عن البابا الذي يعتقد أنه ورث مفاتيح الأرض والسماوات التي عهد بها المسيح-الإله إلى بطرس، فورثها الباباوات عن هذا الأخير. ولما كانت الألوهية هي صفة المسيح في الأسطورة المسيحية، كان حامل مفاتيحه (البابا) هو الرب الأعلى على سُلم السلطات، فهو فوق الملوك والأباطرة، لأنه مصدر المشروعية في ضمير الجميع (حكومة وشعبًا كما يقال) والجميع يخشاه لتلك الصفة أو السلطة.

لكل ما سبق تطلب الخلاص من هيمنة البابا تحديه على مستوى الألوهية. وكما هي العادة دائمًا، لا بد من تأسيس التحدي على المستوى النظري أولاً، فأين يمكن أن يجد المنظرون إلهًا مساويًا للبابا في التاريخ الأوربي؟ أين يمكن أن يجد المنظرون الأوربيون فرعونًا أوربيًا يتقمص الملك شخصيته، ويدعي سلطاته، في صراعه على مركز الرب الأعلى مع البابا الذي يدعي خلافة المسيح؟

(1) ولدت هذه الإمبراطورية الوهمية سنة 800م، عندما توج البابا شارلمان، ليصبح هذا الأخير امبراطورًا رومانيًا مقدسًا.

(2) ويؤثر عن فولتير قوله عنها: لا هي امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة! وبالإمكان مراجعة الفكرة/الظاهرة في كتابي «بين يدي الدستور»، إسطنبول، دار منابع النور، 2021، ص 111-118، ثم ص 150 وما بعدها.

وجد المنظرون في الإمبراطور الروماني القديم الإله الذي ينبغي رفع الملك إلى مستواه، دون الإعلان عن تلك النية صراحةً. وقد تم ذلك في خطوتين/ نظريتين متباعدتين زمنيًا (حتى أن الغافل لا ينتبه للعلاقة بينهما أو النتيجة المبتغاة من وراءها).

الخطوة الأولى لجعل الملك الرب الأعلى في مملكته كانت الإعلان عن أن الملك له جسدان؛ واحد بشري يأكل ويشرب ويمرض ويموت مثل كل البشر، والآخر سياسي يضم كل مملكته[1]. وهذا الجسد السياسي لا يمرض ولا يموت أو يفنى لأنه يشبه جسد المسيح-الإله (نظريًا).[2] والخطوة الثانية هي نظرية «السيادة» المصممة لجعل الملك الرب الأعلى في مملكته، لأن تعريف السيادة عند واضع نظريتها[3] هو «**القوة المطلقة والأبدية**».

La souveraineté est la puissance absoluë et perpetuelle

وهذا الكلام لا يمكن فهمه دون عرض موجز لتقلبات فكرة «السيادة» في عالم المصطلحات قبل أن ينظرّ لها الفرنسي جان بابتست بودان (سنة 1576). ويمكن أن يكون جوهر الإيجاز في عرض تقلبات الفكرة على النحو الآتي:

المصطلح لاتيني الأصل: **Plenitudo potestatis**

وترجمته إلى الفرنسية: **Plénitude de puissance**

(1) قياسًا على المسيح الذي له في التصور الكنسي جسدان: جسد بشري مثل كل البشر، وجسد روحاني يجتمع فيه المسيحيون واسمه «الكنيسة»!

(2) وصرخة « مات الملك.. عاش الملك» تعبير عن عدم موت الملكية وانما انتقالها إلى الملك الجديد.

(3) واضع نظرية السيادة هو جان بابتست بودان (-1529 1596)، في مؤلفه كتب الجمهورية الست الذي ظهر سنة 1576.

وترجمته إلى الإنجليزية: **Plenitude of power**

وترجمته إلى العربية يمكن أن تكون: «**منتهى القوة**» أو «**كامل القوة**».[1]

عند المسلم؛ منتهى القوة، وكلي القوة، هو «ذو القوة المتين» أو هو الله الذي لا إله غيره. ولكن نظرًا لقطع الكنيسة الوحي عند الانجيل، لم يحسم الصراع على الألوهية ومن يكون الرب الأعلى في أوربا إلى يوم الناس هذا. ألوهية الملك مرت من الملك له جسدان إلى الملك صاحب القوة المطلقة الأبدية، عبر الإعلان عن أن «**الملك امبراطور في مملكته**».

Le Roi est Empereur en son royaume

الملك له جسدان مثل المسيح، وإله مثل المسيح أو مثل الإمبراطور الروماني. وحيث أخذ البابا موقع المسيح فلم يبقَ للملك سوى موقع الإمبراطور الروماني. انتقلت أوربا من الإمبراطور-الإله إلى المسيح-الإله، في العصر القديم، وعادت إلى الإمبراطور-الإله عبر مبدأ «**الملك إمبراطور في مملكته**»، في العصر الوسيط!

معنى «**الملك إمبراطور في مملكته**» هو أنه «الرب الأعلى» على مستوى الإدارة، و«الإله» على مستوى التشريع. وقد تحول موقف الملوك هذا إلى مبدأ سياسي-قانوني سميَّ «**الحق الإلهي للملوك**»! وأفضل من عبر عن حقيقة الحق الإلهي للملوك هذا هو هربرت سبنسر[2] الذي قال:

(1) أبو الأعلى المودودي وسيد قطب ترجماه إلى «الحاكمية» لأنهما عالجا الموضوع في سياق التشريع والسلطات التشريعية.

(2) فيلسوف وعالم اجتماع انجليزي (1820-1903)، صاحب عبارة «البقاء للأصلح» وله كتاب بعنوان «الانسان ضد الدولة» الذي نشر سنة 1884!

الحق الإلهي للملوك هو الحق الإلهي
لأي فرد يستطيع أن يكون الأعلى. [1]

The Divine right of kings is the divine
right of anyone who can get uppermost.

هذا التنظير ولّد صراعات اشد وأسوأ من صراعات الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية، لأن الميثولوجيا خيال، أما تعدد الارباب والآلهة في أوربا فصراعات دموية ممتدة وأحداث تاريخية موثقة، وليست نسج خيال كما كانت في الزمن الغابر.

وسبب الصراعات السياسية العابرة للقرون في أوربا أن كل من البابا والملك اعتقد أنه الأعلى، أو صاحب الحق في أن يكون الأعلى (في العالم بالنسبة للبابا، وفي مملكته بالنسبة للملك). ولذا كانت عبارة «**الملك إمبراطور في مملكته**» فكرة/مشروع لقطع الطريق على البابا، ولكن ليس البابا الإنسان وإنما البابا الرب الأعلى.[2]

1 ـ من يكون الأعلى: البابا أم ملك فرنسا؟

بدأ الصراع بين البابا بونيفاس الثامن الذي كان على رأس الكنيسة مع نهاية القرن الثالث عشر (**1294-1303**)، والملك الفرنسي فيليب الرابع (**1284-1305**) عقب الحروب الصليبية، وكان لأسباب مالية/ضريبية منبثقة عن رغبة الملك فرض ضرائب على الثروات الطائلة التي عاد بها فرسان المعبد من الشرق. وعندما اعترضت الكنيسة على الرغبة الملكية كلفها ذلك الاعتراض ثمنًا باهضًا، وفي النهاية لم تكن نتيجة الصراع لصالحها.

(1) وفي التعابير القانونية-السياسية تطلق عبارة «الملكية المطلقة» على هذا النوع من أنظمة الحكم.
(2) وبهذه المناسبة أصدر البابا ما عرف بمرسوم وحدة القداسة **Unam sanctam** سنة **1302**.

كان البابا يمارس سلطاته ويدير الأمور بمراسيم (مفردها مرسوم Bull). وبمناسبة صراعه مع الملك الفرنسي أصدر البابا مرسومًا يترجم سلطانه التشريعي على المسيحيين (ملوك وعامة) وعرف بمرسوم وحدة القداسة Bull Unam Sanctam. وفي هذا المرسوم يدعو البابا كل سلطة زمنية إلى الخضوع له، لأن لا خلاص خارج الكنيسة، ويحرّم على تلك السلطات (الملوك) فرض ضرائب دون موافقته، تحت طائلة الطرد من الكنيسة الذي سيقع بمجرد فرض ضريبة، ودون الحاجة لأي إجراء آخر. كان البابا يعلن لمن له آذان ويسمع أنه خليفة المسيح-الإله ووريث بطرس (الذي استلم مفاتيح السماوات والأرض من المسيح). ولكن فيليب الرابع كان له رأي آخر وموقف آخر.

أرسل فيليب وزير عدله (وفي حينها كانت صفته «حامل الاختام») واسمه دو نوغاريه، إلى إيطاليا مصحوبًا ببضع مئات من الجنود لفرض رأي الملك. حاصر دو نوغاريه البابا لعدة أيام وعندما تمكن منه صفعه صفعة طرحته أرضًا، ليموت مخذولاً مدحورًا بعدها بشهر تقريبًا. وكان من نتائج هذه المواجهة نقل مركز البابوية من ايطاليا إلى فرنسا، ليصبح البابا في قبضة الملك.

2 ـ من يكون الأعلى: البابا أم ملك الإنجليز؟

في سنة 1517؛ عندما أنشأ لوثر المذهب البروتستانتي شاطرًا الكنيسة الكاثوليكية نصفين، انبرى هنري الثامن (1491-1547) للرد على أطروحاته، حتى أن البابا[1] أضفى علي هنري لقب «المدافع عن العقيدة»، تعبيرًا عن امتنانه لما قام به هنري الثامن في مواجهة لوثر. بعدها أصبح لقب هنري

(1) كان البابا في حينها ليون العاشر (1475-1521). وكان في مركز الحبر الأعظم من 1513 إلى 1521.

«ملك إنجلترا والمدافع عن العقيدة»[1]. ولكن الأمور لم تستمر على ذاك النحو طويلاً.

في سنة 1527 أراد الملك تطليق زوجته الاسبانية (كاثرين ابنة فرديناند وايزابيلا) التي لم تنجب له وريثًا، لكن البابا الذي بيده الحل والعقد في الأرض والسماوات لم يسمح له بذلك، وظل يماطله حتى فقد الملك صبره. ولما كان المذهب الجديد (البروتستانتي) الذي هاجمه هنري يرى سمو السلطة الزمنية على البابوية فقد نصح المستشارون ملكهم بتغير عقيدة المملكة وتبني المذهب الجديد. وفي هذا السياق عزم الملك على تغيير دين الإنجليز (ولائهم وشريعتهم) حتى يتمكن من تطليق زوجته.

جمع الملك البرلمان فأصدر قانون السمو سنة 1534، الذي أعلن أن الملك هو صاحب أعلى سلطة في كنيسة إنجلترا، وفي العام نفسه أصدر البرلمان قانون الخيانة، جاعلًا عدم الاعتراف بالملك على رأس الكنيسة خيانة عظمى عقوبتها الإعدام. وكان على كافة الرهبان أداء قسم الولاء للملك أو مواجهة عقوبة الإعدام[2]، وبذلك أنشئت كنيسة إنجلترا (أو الكنيسة الأنغليكانية) والملك هو ربها الأعلى.

تزوج الملك في الجملة ست زوجات؛ قتل اثنتين وطلق اثنتين، وماتت واحدة، وبقت الأخرى بعده. ثم قتل عشرين نبيلاً، وستة من أصدقائه. وصادر ممتلكات الكنيسة محتفظًا ببعضها لنفسه، وموزعًا بعضها الآخر

(1) وكان معروفًا بتمسكه الشديد بفكرة أن شراء صكوك الغفران من البابا يقصر من مدة مكوث المذنب في جهنم.

(2) قتل توماس مور عقوبة له عن رفض أداء قسم الولاء للملك، وقد صنف هذا الرفض جريمة «خيانة عظمى»!

على الموالين له مكافأة لهم على كونهم ملأه، بعد أن أصبح فرعونًا إنجليزيًا على رأس الكنيسة والدولة معًا. وبهذا الشكل انفصلت إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية وأنفرد ملكها بمركز الرب الأعلى على حساب البابا الذي يعتقد أنه خليفة المسيح-الإله! وهذا يوصلنا إلى الارباب والآلهة البشرية لدى أهل الكتاب.

المبحث الثاني
أحبار ورهبان

مازلنا مع الآلهة الأشخاص؛ وسأتناول في هذا المبحث الانحراف الذي قاد إلى تأليه المسيح، وما تفرع عنه من اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله! وهؤلاء بشر رفعهم بشر آخرون إلى مقام الأرباب والآلهة! فما هي الخطوات التي قادت إلى ذلك؟ وما هي المؤثرات الثقافية التي صاحبت ذلك، أي صاحبت تأليه المسيح وما يسمى اليوم «رجال الدين»؟

تحليل الظاهرة يقتضي الحركة على محورين: ما فصله القرآن من قول في الموضوع أولاً[1]، ثم الأحداث التاريخية التي جاءت موافقة لما في القرآن من إنباء عن الغيب ثانيًا. فمن دلائل إعجاز القرآن، بالمناسبة، أن الأحداث التالية لنزوله لا تأتي إلا مصدقة لما فيه، وذلك لأنه كتاب عزيز: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].[2]

(1) بعض مما قرره الشيخ محمد عبده هو أن الإسلام جاء لإلغاء السلطة الدينية وهدف من أهدافه اقتلاعها من جذورها، لكن البعض مازال يتعسف في تطبيق نتائج التجربة المسيحية، في أوربا، على الإسلام دون تفرقة بين الحق والباطل.

(2) ومعنى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن القرآن لا يحكي عما سبق نزوله من أحداث إلا الصدق، ولا تأتي الاحداث التالية لنزوله إلا مصدقة لما فيه. هذا هو معنى العزة في كتاب الله، ولذا قيل في القرآن: «من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه فقد هدي إلى صراط مستقيم».

أ. تأليه المسيح:

المسيح هو الحلقة الرابطة بين موسى ومحمد عليهم السلام جميعًا.[1] وللتأكيد على هذه الحقيقة توجه المسيح بالخطاب إلى قومه قائلاً: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6]. ومن بعد البشارة جاء التحذير من الشرك والانذار بسوء الخاتمة لمن يشرك بالله شيئًا. في هذا السياق قال المسيح ﷺ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: 72].

وبالرغم من هذا الوضوح نبذ أهل الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم وجعلوا من المسيح إلهًا، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله! فما هي الظروف التاريخية التي حصل فيها هذا التأليه: تأليه المسيح؟

لفهم تأليه المسيح لابد من الجمع بين ثلاثة ظواهر: 1) ظاهرة الأنبياء الملوك في بني إسرائيل. و2) أخذ الظواهر الشاذة صفة العمومية من حين إلى آخر، وكان تأليه الملوك من الظواهر الشاذة التي انتشرت في تلك الحقبة مشكلة شكلاً مما يسمى اليوم «الموضة»! و3) ظاهرة امتزاج الوحي بالفلسفة والاسطورة، وبالإمكان تقرير أن هذا المزج تكرر عند اليهود والنصارى والمسلمين، وبما يسمح باستنتاج أنه يقع في «مستقر العادة»، حسب الاصطلاح الخلدوني. والأمر على التفصيل الآتي:

1- لم يكن غريبًا على بني إسرائيل أن يكون أنبيائهم ملوكًا (داوود وسليمان وطالوت)، وقد شاع في بني إسرائيل عبادة غير الله ومن ذلك عبادة العجل،

(1) هذا الربط شاهد على وحدة الرسالة السماوية المتفرعة عن وحدانية الله.

وطلبهم من موسى أن يجعل لهم آلهة/أصناما، مثل القوم الذين صادفوهم بعد تجاوزهم البحر وفرعون مازال يغرق. كان التقليد الأعمى من الأمراض الشائعة في بني إسرائيل، فتصور أن المسيح كان ملكًا ظهر في حينها. ومازال المسيح معتبرًا كذلك عند المسيحيين حتى الآن.

وتقول الأسطورة إن الصليب -الذي سمر عليه المسيح- كان مكتوبًا عليه «المسيح ملك اليهود». وتبدو هذه الخرافة نوعا من أنواع الشماتة التي يظهرها المشركون كلما ظفروا بمؤمن لا يجعل مع الله إله آخر. والمشركون لم يظفروا بالمسيح في الواقع، ولكن شبه لهم[1]، وهو لم يكن في الحقيقة غير أحد الموحدين لله والرسالة السماوية، والداعين لتوحيدهما (وهذا هو الإسلام).

2- كان من الشائع في ذاك الزمان ومما يأخذ حكم «الموضة» كذلك، أن يكون الملك إله أو ابن إله، ففرعون أعلن أنه الرب الأعلى، وقد مر بنا كيف حاول الإسكندر المقدوني أن يكون إلهًا بإجراء من إجراءات الكهنة في معبد آمون. وقد أعلنه الكهنة ابنًا لآمون بالفعل، غير أن الإغريق رفضوا عبادته.

وكان معتادًا، أيام الرومان، أن يشار إلى يوليوس قيصر بيوليوس المقدس أو يوليوس الإله Divus Julius وكان يشار لابنه أوكتافيوس بابن الإله Divi filius. فالقول إن المسيح إله أو ابن إله لا خروج فيه عن أحكام «الموضة» في حينها.[2]

(1) وتقول بعض المصادر إن صلب شبيه المسيح ولد بلبلة في صيغة سؤال يقول إذا كان هذا هو المسيح فإين صاحبنا، وإذا كان هذا هو صاحبنا فأين المسيح؟ ويقول القرآن إن الله قد توفاه ورفعه إليه.

(2) وقد عبد العرب الأصنام اتباعًا لأحكام الموضة. ومعروف أن عمرو بن لحي هو أول من جلب الأصنام إلى جزيرة العرب من الشام.

3- العنصر الأخير هو عنصر الثقافات السائدة في ذاك الزمان وعلى رأسها الثقافة الإغريقية. ودخول هذه الثقافة وغيرها من الثقافات (بقايا البابلية والفرعونية) دائرة الوحي هو ما لوث رسالة السماء وقلب الموحدين مشركين. وفي هذا السياق دخل مصطلح «لوغس» الإغريقي دائرة الاستعمال المسيحي لأن ترجمة مصطلح «لوغس» هو «كلمة». المسيح كلمة الله؛ غير أن استخدام مصطلح أجنبي/إغريقي سيبدو أكثر فخامة، وسيكون اطلاقه على المسيح نوع من التعظيم.[1]

استبدال مصطلح «لوغس» بمصطلح «كلمة الله» كنعت للمسيح من مظاهر دخول الثقافة الإغريقية في الديانة المسيحية، وكان من أسباب انقلاب النصارى مشركين. وهذا ما نجد التعبير عنه في قول أنجيل يوحنا: **«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله»**.

هذه الجملة تصبح كتابًا مفتوحًا إذا جعلنا من تعدد معاني مصطلح ال«لوغوس» مفتاحًا لفك شفرتها[2]. وعندها سيكون معنى العبارة كالتالي؛

في البدء كان الكلمة = في البدء كان عيسى،

وكان الكلمة عند الله = كان عيسى عند الله،

وكان الكلمة الله = كان عيسى الله!

وقول اليهود «عزير ابن الله» تجعل قول النصارى «المسيح ابن الله» صورة من صور التاريخ وهو يعيد نفسه. ومما يدعم هذا الفهم قول القرآن عنهم:

(1) مرض الألقاب الفخمة موجود في أيامنا هذه، فهو لازمة بشرية لا يسلم منها إلا القليل (الأنبياء والأولياء والصالحون).

(2) تعدد معاني مصطلح ال«لوغوس» في اللغة الإغريقية (عقل، كلمة، كلام، حساب)، من التعقيدات التي قلبت الموحدين من أتباع المسيح إلى مشركين.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [التوبة: 30]، وهذا معناه أن اليهود والنصارى كانوا على طريق كفار آخرين يجعلون لله أبناء أو يجعلون بعض الأشخاص أبناء آلهة، ولكنهم تاريخيًا سابقون على اليهود والنصارى. واعتقد أن القرآن ضرب صفحًا عن ذكر الكفار الذين ألهوا البشر قبل اليهود والنصارى واكتفى بذكر هؤلاء (أهل الكتاب) لأنه عندما تعيد الأحداث نفسها سيضاهي المسلمون أهل الكتاب مثلما ضاهى أهل الكتاب من سبقهم من الكفار، وعلى النحو الذي جاء في الحديث **«لتتبعن سنن من كان قبلكم...»!**

تأليه الملوك وتأليه المسيح والقول إن الملك، أو الرسول، ابن الله اتخاذٌ لآلهة مع الله، ورفع للبشر إلى مقام الألوهية. وبالرغم من الاختلاف النوعي بين «الملك» و«الرسول» إلا أن اتخاذهما أربابًا وآلهة من دون الله يقود إلى ذات النتيجة: (الشرك).

ومن هذا النوع من الشرك، القائم على تأليه و/أو عبادة البشر، اتخاذ المسيح أو الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله. وارجوا ألا يعتقد القارئ أن الكلام لا يشمل المسلمين، لأن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم...»! ومن المؤكد أنه كان يقصد اليهود والنصارى بذاك الوصف، وليس لأهل الكتاب سنن مخالفة لسنن نبينا ﷺ إلا سنن التشريع المخالف لشريعة الله رب العالمين، وهو ما سيجعل التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى، عندما يرتكب المسلمون نفس الهفوة، ويتخذوا أحبارهم ورهبانهم (علماءهم) أربابًا من دون الله: (أي في قطيعة مع الله والتشريع بالمخالفة لأوامره ونواهيه). وهذا يوصلنا إلى صلب ربوبية الأحبار والرهبان (= العلماء).

ب. ربوبية الأحبار والرهبان:

اليهود الذين قالوا عزير ابن الله، والنصارى الذي قالوا المسيح ابن الله، لم يقولوا أحبارنا ورهباننا آلهة، وإنما رفعوهم إلى مقام الآلهة على مستوى التشريع، ومقام الأرباب على مستوى الإدارة/الحكومة.

1 ـ أرباب التشريع:

جاء في الأثر أن عدي بن حاتم الطائي جاء المدينة نصرانيًا والصليب يتدلى على صدره[1] فدخل المسجد ليجد النبي ﷺ يتلو ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] فاعترض عدي محاجًا أنهم لم يعبدوهم، فقال له النبي ﷺ: «**بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**».[2]

وقد يكون بولس الرسول مثال متقدم لراهب اغتصب سلطة التشريع فحرّم ما أحل الله، مثل تعدد الزوجات، وأذن بما لم يأذن به الله مثل الأكل من القرابين المقدمة لآلهة الرومان، ثم ألغي سنن الفطرة من نوع الختان الذي لا يعرفه اليوم سوى اليهود والمسلمين، ثم ألغى الغسل -وهو عمل من أعمال الطهارة- واستبدله ببدعة «التعميد». ومن ثمَّ ضاعت سنن الفطرة التي حافظ عليها كل الأنبياء، وورثناها نحن عن إبراهيم ﷺ.

(1) وقد قال له النبي ﷺ «دع عنك هذا الوثن»، فدل ذلك على أن الصليب وثن من الأوثان.
(2) روية هذه الواقعة بعدة طرق وعدة روايات في التفاسير ومنها تفسير ابن كثير، وبعض المراجع الأخرى.

ولليهود عيد أسمه «عيد الغفران»،[1] وفيه ينشد دعاء الغاء «**كل النذور**»، والاستغفار لنبذ العهود وإلغاء كل العقود! ويبدأ اليهود انشاد دعاء «**كل النذور**» باللغة الآرامية قبل الغروب ويستمر إلى أن تغرب الشمس. ويرتدي المصلون في هذه المناسبة شال الصلاة الذي لا يتم ارتدائه إلا في صلاة الصباح في الأيام العادية.

أما صيغة الدعاء فهي كالتالي: «**نعبرعن ندمنا على كل النذوروالتحريمات والأيمان واللعنات التي نذرناها و أقسمنا بها ووعدنا بها والتي حلت ولم نف بها من يوم الغفران هذا حتى الذي يليه، الذي ننتظر مقدمه السعيد، فلتكن كلها منسية، ونكن في حل منها، مُعفَيْن منها، ملغاة لا أثر لها، ولن تكون ملزمة لنا ولا سلطة علينا، والنذور لن تعد نذورًا، ولا التحريمات تحريمات، ولن تعد الأيمان أيمانًا**».[2]

ويقول المسيري إن «**هذه الصلاة تتلى ثلاث مرات حتى تتأكد دلالتها، وحتى يسمعها الجميع، وهكذا يتخلصون من عبء الشعور بالذنب، فيبدؤون الاحتفال بأقدس يوم عندهم مرتاحي الضمير**».[3] والمهم في هذا كله هو دور الأحبار الذين يحلون ويحرمون بخلاف شريعة رب العالمين ودون خشية من غضبه أو خوف من عقابه، فالاعتبار عندهم للمصلحة الآنية والغنائم الدنيوية.

(1) عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الرابعة (الموسوعة الموجزة) 2008.
(2) المرجع السابق، ص 66.
(3) المرجع السابق

وقد يعتقد الغافل، أو يقاد لأن يعتقد، أن هذه القضايا عفا عليها الزمن، أو أنها نزلت في قدماء الأحبار، والمعاصرون منهم مختلفون عنهم. يقول المسيري: «**في انتخابات عام 1988، قام بعض حكماء حزب شاس (...) بتلاوة دعاء كل النذور على شاشة التيلفزيون ليُحلوا الناخبين الذين وعدوا بإدلاء أصواتهم لحزب أجودات إسرائيل (...) من وعودهم حتى يمكنهم الادلاء بها لحزب شاس**»![1]

2 ـ أرباب الإدارة:

وبعد الفساد التشريعي يأتي الفساد الإداري والمالي، وفي هذا السياق يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 34]! مهم جدًا إدراك البعد المعاصر لعبارة أموال الناس: (وهي ما يسمى اليوم الأموال العامة)، فالأحبار هم حكومة اليهود، والرهبان هم حكومة النصارى، وهاتان الحكومتان استحفظتا كتاب الله واحدة بعد الأخرى، فضيعتاه واحدة بعد الأخرى.

وبعد إضاعة الكتاب جاء أكل أموال الناس بالباطل ومنه قول اليهود ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: 75] استحلالا لإقراض المسلمين بالربا. ولذا تولى المولى عز وجل حفظ كتابه (القرآن) من الضياع لأنه لو تركه لحفظ المسلمين لوقع له ما يقع في مستقر العادة. والمسلمون الذين حفظوا القرآن حرفًا ضيعوه تشريعًا، فكان ذلك هو السبب خراب دينهم ودنياهم، وما ربك بظلام للعبيد.

(1) المرجع السابق، ص 67.

وعندما أراجع تاريخ ما يسمى «الفتنة الكبرى» أجد أن بداية الفتنة كان اضطرابًا إداريًا وماليا، وكان مقتل عثمان رضى الله عنه مجرد نهاية مأساوية لتفاقم ذاك الاضطراب، الذي كان التركة التي ورثها الخليفة الرابع، من أول يوم واستمرت في ولايته حتى مقتله، بعد أربع سنوات، على يد من كان يعتقد أن قتل الخليفة هو الحل.

لا بد من التأكيد على خطورة المعاملات المالية وحساسية البشر تجاهها، ومن ذلك ما ذكره القرآن عن الذين كانوا يلمزون النبي لأسباب ماليه فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58]. ووجه العبرة في هذا الكلام أن الناس لم يتورعوا عن لمز النبي الذي كان حشو وسادته ليف، وكان أثر الحصير يُرى في جنبه عندما يقوم من نومه، لشدة فقره ﷺ.

وإذا كان هذا حال الحاكم الذي فراشه حصير ووسادته ليف، فكيف يكون حال الحاكم الذي بخزانته أموال طائلة وتسمى بيت مال المسلمين أو أموال الخزينة العامة. وكان عمر بن الخطاب صارمًا في هذا الباب لعلمه بتربص المتربصين بالمال العام، وتربص العامة بالحكام وأبناء الحكام، للحذو حذوهم في أكل الأموال بالباطل كلما سنحت الفرصة (وبأي حجة واهية).

خلاصة القول؛ أن ما يبدأ نظريًا ينتهي عمليًا في عالم الاجتماع والاقتصاد والسياسة، فإذا فسد النظر ففساد التطبيق فرع من فساده باتخاذ آلهة مع الله، وعندها يلتبس الحق بالباطل. ومن اختلاط الحق بالباطل ينشأ فساد التشريع، وإذا بالأموال تنهب والأرواح تزهق، وذاك هو الفساد في الأرض. ولذا بدأ النبي ﷺ من حيث لا يبدأ إلا نبي مرسل. بدأ بالدعوة إلى توحيد الله

لأن أصل الفساد اتخاذ آلهة مع الله، فكل الآلهة متفرعة عن عبادة الهوى وتستخدم لتبريره. اتخاذ إله مع الله إذن، هو الفساد الأصلي الذي تتفرع عنه بقية أنواع الفساد.

وإذا كانت مكافحة الفساد لا تجدي نفعًا في الوقت الحاضر، فذلك لأن المعالجة منصبة على فروع الفساد وليس أصله المزمن، وهو اتباع الهوى. واتباع الهوى يضل عن سبيل الله، كما في قوله تعالى لداود ﷺ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: 26]!

الهوى له عواقب وخيمة أخرى تترتب على اتباعه حتى يصبح إلهًا يضل عن سبيل الحق جل وعلى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23]. اتباع الهوى يفقد العلم والعقل والسمع والبصر كل قيمة حتى يتساوى الإنسان والدابة في السلوك والتصرف.

الفصل الثاني
آلهة أشياء

الأشياء التي جعل منها البشر آلهة إما أصنام وإما أوثان. الأصنام منحوتات حجرية يغلب عليها أن تكون في صورة إنسان. والأوثان أشياء أخرى قد تكون من خشب أو معدن، وقد تأخذ أي صورة يضفي عليها الإنسان قدرًا من القداسة، أو يُعتقد أنها يمكن أن تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا، ومن ثم يتوجه لها بعض البشر ببعض الشعائر التعبدية أو يعول عليها في أمور مصيرية.

ومعروف أن النبي ﷺ قد قال لعدي بن حاتم الطائي «دع عنك هذا الوثن» عندما رأى الصليب معلقًا في رقبته، لأنه ممن تنصر قبل الإسلام والتحق بالروم حتى كتبت له اخته ترغبه في الإسلام لما رأت من كرم النبي معها[1].

وذكر هذه الواقعة مهم فيما يتعلق بالفرق بين الأصنام والأوثان، لأن هناك من يقلب المصطلحات فيجعل الأوثان اسمًا للتماثيل التي تشبه البشر، في حين ان التماثيل هي الأصنام، وآية ذلك قول إبراهيم ﷺ لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52]؟ وعندما سألوه عن مسئوليته عن تحطيمها قال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63] مما سلف يتبين لنا أن الأصنام هي تماثيل على صورة بشر، أما الأوثان فهي غير ذلك، وكما سنفصل فيما يأتي من فقرات.

(1) لكرم أبيها حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الكرم.

المبحث الأول
الأصنام

أشار القرآن إلى شيوع عبادة الأصنام عند البشر قبل الإسلام. ومن ذلك ما ذكره في قصتي نوح وإبراهيم ﷺ. وبعد الإسلام تناول الكُتّاب المسلمون الأصنام بالذكر والوصف في أكثر من مصنف منها اخبار مكة للأزرقي[1] وكتاب الأصنام للكلبي[2].

ومما يقع في مستقر العادة وجود كبير للآلهة في كل الحضارات التي اتخذت من الأصنام آلهةً. في هذا السياق كان هبل كبير آلهة العرب، وكان جوبيتر كبير آلهة الرومان، بينما كان زيوس كبير آلهة الإغريق، وآمون كبير آلهة المصريين. ومن استقراء القرآن الكريم وتاريخ البشرية يتضح أن البشر اتخذوا الأصنام آلهة إما تقليدًا لغيرهم أو تخليدًا لعظمائهم.

أ. أصنام التقليد:

عندما سأل إبراهيم ﷺ قومه ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52]؟ أجابوه ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]! لقد وقع القوم في الضلال تقليدًا لآبائهم ولذا واجههم إبراهيم بالحقيقة: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنبياء: 54].

(1) أبو الوليد الازرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت، دار الاندلس، الطبعة الثالثة، 1983.

(2) هشام بن محمد الكلبي، كتاب الأصنام، القاهرة، دار الكتب المصرية، 2012.

ولما كانت عبادة الأصنام مما يقع في «مستقر العادة»[1] دعى إبراهيم ربه في البلد الحرام أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، فكان من دعائه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]. وعلل إبراهيم دعواته قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: 36].

الواضح من السياق أن إبراهيم ﷺ توقع عصيان بعض بنيه، وهو ما حصل لاحقًا وكما هو مدون في القرآن وكتب التاريخ بخصوص كل من اليهود والعرب وهم أبناء إبراهيم ﷺ.

بعد ابراهيم بأجيال وعهود طويلة رغب بنو إسرائيل في عبادة الأصنام تقليدًا لغيرهم من الأمم، وهو ما رواه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 138-140]؟

تبدو سطوة التقليد ظاهرة في مسلك بني إسرائيل الذين طلبوا من موسى أن يتخذ لهم صنمًا مثل أهل الباطل. لقد نسى القوم فضل الله عليهم وإرساله موسى لإنقاذهم من فرعون وملئه، فأعلنوا عن استعدادهم لمفارقة ملة إبراهيم تقليدًا للذين اتخذوا الأصنام آلهة، فرد عليهم موسى بما يستحقون من وصف وهو الجهل، الذي تحول جاهلية عند الشق الثاني من أبناء إبراهيم ﷺ.

(1) العبارة لأبن خلدون وهي من منهجه في استقراء أحداث التاريخ.

سار عرب الجاهلية على ذات الطريق؛ إذ روى ابن الكلبي أن عمرو بن لحي وجد أهل البلقاء بالشام يعبدون الأصنام فقال ما هذه؟ قالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة. ومن ثم تكاثرت الأصنام ببلاد العرب حتى كان عددها يوم فتح مكة ثلاثمائة وستون صنمًا، أكبرها وأشهرها هبل الذي هتف أبو سفيان بعلوه في غزوة أحد.

كان هُبل على صورة انسان وكانت يده مكسورة فجعلت له قريش يدًا من ذهب[1] ونصبته في جوف الكعبة، وكانت العزى من آلهة قريش بمكة كذلك. «**ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئًا من الأصنام إعظامهم للعزى**»![2]

ومن آلهة العرب المشهورة اللات لثقيف بالطائف، وقيل إنها سميت اللات لأن رجلاً من اليهود كان يلت السويق عندها، وكانت مناة للأوس والخزرج قرب البحر وكان ممن عبدها غطفان وبعض أهل الشام. وكان لطي صنم اسمه الفَلس. وكان ذو الشرى لبني الحارث بن يشكر وهم من الأزد، وذو الخلصة وذو الكفين لبني منهب من دوس.

ولم يقتصر التقليد على بني إسرائيل وبني إسماعيل، وإنما امتد إلى أمم وثنية أخرى فكانت آلهة الرومان مستنسخة عن آلهة الإغريق، إلهًا بإله، فكبير آلهة الإغريق زيوس حل محله جوبيتر عند الرومان. وكانت أرتميس آلهة الصيد والبراري عند الإغريق فحلت محلها ديانا عند الرومان. وأثينا آلهة الحكمة أصبحت عند الرومان مينيرفا، وكانت افروديت آلهة الحب والجمال

(1) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، ص 119
(2) كتاب الأصنام ص 27

فأصبحت عند الرومان فينوس، وديونيسيوس إله الخمر عند الاغريق أصبح باخوس عند الرومان... وهكذا.

ب. أصنام التخليد:

درج البشر على تخليد عظمائهم في صورة تماثيل، وقد يكون العظماء المخلدون أنبياء أو قديسين أو أولياء صالحيون، أو ابطالا حقيقيين أو ابطالا أساطير. ومع الزمن تتحول هذه التماثيل إلى أصنام تعبد، وقد جاء في سورة نوح خبر من هذا النوع إذ ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 21-23].

وقال المفسرون ان الأسماء الواردة في هذه الآية لرجال صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما طال الزمان عُبدوا. ومن بعد تحولت هذه الأسماء إلى آلهة عند عرب الجاهلية: هذيل اتخذوا سواعًا بينبع، واتخذت كلب ودًا بدومة الجندل، واتخذت مذحج وأهل جرش يغوث، واتخذت خَيوَان وهي قرية بين مكة واليمن يعوقا.[1]

وكانت إيساف ونائلة صنمان على الصفا والمروة. كان إيساف بن يعلى رجل من جرهم وكانت نائلة بنت زيد امرأة من جرهم كذلك. مسخ الاثنان صنمين بعد أن فجرا في الحرم، فوضعهما العرب على الصفا والمروة للاعتبار، ومع الزمن تحولا إلى معبودين يتمسح بهما الناس من قريش وخزاعة ومن حج من العرب.

(1) الأصنام، مرجع سابق، ص 9-10

وكان الاغريق يضعون أبطالهم على الخط الفاصل بين البشر والآلهة، بينما ألّه الرومان بعض أباطرتهم، وفرضوا على الناس عبادتهم، وهو ما شكل محنة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كانوا على بقية من توحيد ويرفضون عبادة الأصنام.[1]

(1) سأعود في الفصل الأول، من الباب الثاني، من هذا القسم، إلى تفاصيل محنة أهل الكتاب بسبب رفضهم التوجه ببعض العبادات إلى غير الله.

المبحث الثاني
الأوثان

من أشهر الأوثان الصليب، فالنصارى اتخذوه معبودًا يركعون له ويقبلونه لاعتقادهم أن ابن الرب (المسيح) قد قضى على الصليب. وقد تأسست على هذه الخرافة أساطير منها اكتشاف هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين «الصليب الحقيقي» في زيارة لها للقدس (سنة 623)، وقد اتخذ النصارى من تاريخ ذاك الاكتشاف عيدًا.[1]

ومن بعد اعتاد الأوربيون عند بناء كنيسة جديدة في أوربا إشاعة أن بها جزء من «الصليب الحقيقي». وقد اتخذت الأسطورة ابعادًا خرافية، حتى قال قائلهم لو جمعنا الاخشاب التي قيل إنها من الصليب الحقيقي لملئت سفينة، فرد عليه المدافعون عن الوثن بأن ما حصل من تضخم للأخشاب دليل على بركة دم المسيح الذي سال على الصليب.

وفي الحروب الصليبية كان «الصليب الحقيقي» يحمل في تلك الحملات حتى أنه وقع في أيدي المسلمين في احدى المعارك غير أن صلاح الدين الأيوبي أعاده إليهم. وفي النهاية قررت الكنيسة إلغاء الاحتفال بيوم اكتشاف «الصليب الحقيقي» بعد التحقق من أنه اسطورة بنيت على خرافة استحقت هيلن في مقابلها الرفع إلى مقام القديسة لزعمها أنها اكتشفت ذاك «الصليب الحقيقي»، الذي لم يكن في الحقيقة أكثر من قطعة خشب بالية.

(1) وقد ظل يوم اكتشاف الصليب (3 مايو) من أعياد الكنيسة حتى سنة 1960 وعندها تم إلغاءه.

ومن الأوثان صورة مريم والمسيح التي تملأ بيوت النصارى، وصور الكثير من القديسين، وصورة الملائكة ومنهم جبريل الذي يصور في صورة حمامة بيضاء. ويطلق بابا النصارى من نافذة الفاتيكان حمامة بيضاء في تعبير رمزي عن زيارة جبريل للفاتيكان واتصاله بالبابا، ولا سيما وهو يقرر أمور الكنيسة![1]

وفي ذكره عبادة العرب للأوثان يقول الكلبي: «**إن الذي حملهم على ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم... فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطو افهم بالكعبة تيمنًا منهم بها وصبابة بالحرم وحبًا له**».[2] وأحيانًا تسمى هذه الأحجار «نُصب» لأن العرب يقيمونها ويذبحون عندها ويسبغونها بدم الذبيحة، وقد حرّم رب العالمين أكل ما ذبح على النصب من ضمن ما حرم في سورة المائدة.

وكانت للمشركين شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات انواط يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يومًا. وفي غزوة حنين قال بعض الناس لرسول الله بعد ان مروا بشجرة عظيمة يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال لهم رسول الله ﷺ: **الله أكبر الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة...! إنها السنن، سنن من كان قبلكم.**[3]

وأثناء الحروب الصليبية أخذ الصليبيون فكرة المسبحة من المسلمين وأضافوا لها الصليب لتتحول إلى وثن. وفي الزمن الحاضر اعتبرت المنظمة

(1) هناك لوحة فنية تبين البابا جالس يكتب، وجبريل فوقه غير بعيد يوحي له، وهو في صورة حمامة ترفرف فوق البابا.
(2) الكلبي، الاصنام، مرجع سابق، ص 6.
(3) الازرقي، أخبار مكة...، مرجع سابق، ص 130

العالمية للعلوم والثقافة (اليونيسكو) بعضًا من الأوثان محل حمايتها، لأنها من التراث العالمي، ومن ذلك الخرزة الزرقاء، كما ادانت اليونيسكو تحطيم أصنام بوذا في وادي باميان، بأفغانستان، بعد أن فجرها مجاهدو طالبان.[1]

وتنتشر الأوثان الآن بشكل مهول دون أن ينتبه أحد أو يهتم أحد. ومن الأوثان ما أصبح شعارًا لكثير من الدول ورتب لضباط الجيش والشرطة. ومن ذلك الصقور والنسور التي يعطيها الجنود وضباط الصف التحية لأنها على العلم أو على اكتاف الضباط وقبعاتهم.

وفي زيارة لي مؤخرًا لبيت الله الحرام (في بداية 2025)، وجدت في شارع إبراهيم الخليل دكان يبيع مسبحات بعضها عليه الصقر الذي اتخذته الإمارات شعارًا، وبعضها الآخر عليه رأس الأسد وهو شعار أحد نوادي الكرة...إلخ! هذه الاوثان تباع عند بيت الله الحرام وعلى بعد خطوات من الكعبة! وسأترك للقارئ استنتاج ما يمكن استنتاجه من ظواهر هذا نوعها، وفي البلد الحرام!

ولن يكتمل الحديث عن الأوثان وعودتها قبل الحديث عن ظاهرة «تحطيم الأوثان» التي ظهرت في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) بين سنتي 700-843م وعُرفت أو عبر عنها بالمصطلح الاغريقي Iconoclast المركب من Icon ويعني ايقونة أو وثن، وclast أي محطِم أو تحطيم. وهذه الحقبة التي بلغت قرابة القرن ونصف القرن من الزمان قريبة جدًا من ظهور الإسلام وقد تكون مما حدث عند الروم تأثرًا به وبموقفه من الأوثان.

(1) تعود أصنام بوذا إلى القرن السادس الميلادي ويبلغ طول أحدها 55 مترًا والآخر 38 مترًا

وعلى فرضيتي هذه دليلان. الأول؛ ظهور الإسلام في القرن السابع وظهور ممارسة تحطيم الأوثان والجدل حولها بين القرنين الثامن والتاسع، أي بعد الإسلام بشكل مباشر تقريبًا. والدليل الثاني؛ هو حصول الظاهرة في الإمبراطورية الشرقية دون الغربية لقرب الشرقية من مركز الإسلام في ذاك الوقت، لأن وصول الإسلام لغرب أوربا قد تأخر حتى فتح الأندلس سنة 711، ولم تتصل أوربا الغربية بالإسلام من طريق الاندلس إلا بعد ترجمة المنجز الحضاري الإسلامي وهو ما أخذ أربعة قرون تقريبًا.

ولا استبعد أن يكون تحطيم الأوثان معبر عن بقية من توحيد عند البعض من أهل الكتاب في حينها، إذ جاء في أحد الوصايا العشر في التوراة: **«لا تصنع لنفسك صنمًا، لا في صورةً شيء مما في السماء...، ولا في صورة لما في الأرض، ولا مما في الماء تحت الأرض. لا تركع لهم ولا تعبدهم...» (سفر الخروج 20: 4-5).** والنص الإنجليزي كالآتي:

You shall not make for yourself an idol, whether in the form of anything that is in heaven above, or that is on the earth beneath, or that is in the water under the earth. You shall not bow down to them or worship them... (Exodus 20: 4–5).

وبما سلف انهي الفصل المخصص للآلهة الأشياء، بعد الآلهة الأشخاص، لأتفرغ للآلهة الأفكار وهو مبحث جديد نسبيًا بالنسبة لقراء العربية.

الفصل الثالث
آلهة أفكار

قد يعبد البشر فكرة خاطئة كما لو كانت إلهًا، وعندها يمكن أن توصف تلك العبادة بعبادة الأصنام، لكنها ليست أصناما مادية على أية حال.

Idolatry may always be used (...) to describe any mistaken idea of God that men may worship, but that it does not then mean in particular the worship of physical idols.

Norman Daniel,

«Islam and the West. The Making of an Image»

مقدمة

في هذا الفصل سأتناول نظريتين كان لهما في اوربا مكانة أصنام الجاهلية الأولى عند العرب. النظرية الأولى؛ هي «الكنيسة» التي تمثل اتحاد المسيحيين في «**جسد المسيح الروحاني**»[1]. والثانية؛ هي نظرية «**الملك له جسدان**»[2] التي انتهت بأصحابها إلى عبادة الوطن، باعتباره الجسد الافتراضي للملك (المملكة) الذي حل محل الجسد الروحاني للمسيح (الكنيسة)[3].

وبذا يكون لكل من المسيح والملك جسدان: جسد يضعف ويعجز ويفنى وهو البشري، وجسد لا يمرض ولا يضعف ولا يبلى، وهو الكنيسة بالنسبة للمسيح، والمملكة بالنسبة للملك[4]. وهاتان النظريتان من الأفكار البالية التي سادت في اوربا-القرون الوسطى، وقد تم تعويضهما بعد النهضة بآلهة نظرية جديدة هي آلهة الحداثة.[5]

(1) الروحاني تقابل وصف الصوفي Mystic، والتصوف هو Mysticism. وانا استخدم «الجسد الروحاني» وليس «الجسد الصوفي» حتى لا يعتقد من لا علم له أن للمسيح جسد من صوف.

(2) الكتاب الوحيد في هذه النظرية لأرنست كرونوفيتش، بالإنجليزية، انظر ص ... فيما بعد

(3) الجسد الروحاني للمسيح هو جسد افتراضي بلغة اليوم: جسد لا حقيقة له، وافتراض باطل تأسست عليه الكنيسة.

(4) من هنا كانت صيحة «مات الملك.. عاش الملك» تعبيرًا على دوام المُلك، فما يموت هو الملك وليس المملكة أو الملكية!

(5) جعلت الحداثة الأوربية من تعدد الآلهة ظاهرة عالمية تأسست عليها جاهلية جديدة، وكما سنرى في القسم الثاني من هذا الكتاب.

المبحث الأول
الكنيسة - جسد المسيح

الكلام عن نظرية الكنيسة يتضمن الحديث عن بنيتها أو ثوابتها (أولاً) ثم وظيفتها القائمة على بنيتها، والمحددة لنوعيتها (ثانيًا).

أولاً – ثوابت الكنيسة:

تدور ثوابت الكنيسة على فكرتين؛ الأولى أن المسيح إله كما هو معلوم، والثانية أن المسيح له جسدان: جسد بشري مثل كل البشر، وجسد صوفي corpus (mysticum) أي روحاني، لا ينال منه الضعف لأنه بكل بساطة جسد المسيح-الإله!

ومعنى ثوابت في هذا السياق هو أن التضحية بأي من الفكرتين (ألوهية المسيح أو أن له جسدان) سيؤدي حتمًا إلى انهيار المسيحية، وفي هذا يقول نيتشه: «**لنحذف فكرة واحدة من هنا، ونضع حقيقة واحدة مكانها، وإذا بالمسيحية بكليتها تتهاوى إلى عدم**»! فالقول إن المسيح ليس إلهًا سيؤدي حتمًا إلى انهيار المسيحية، والقول إن فكرة الجسد الروحاني للمسيح محض خرافة له نفس الأثر.

التأكيد على إنسانية المسيح وأنه رسول من ضمن الرسل هي الحقيقة التي سيؤدي الاعتراف بها إلى نسف الأساس النظري الذي قامت عليه الكنيسة، وهو ألوهية المسيح. ولما كان نفي ألوهية المسيح من ضمن مفردات الإسلام، فقد أصبح من ثوابت الكنيسة، وجزء من بنيتها الفكرية، الكفر بمحمد وما أنزل

على محمد ﷺ. وبذا يكون للكنيسة ثلاثة ثوابت: 1) المسيح إله، 2) المسيح له جسدان، 3) الكفر بمحمد وما أنزل على محمد ﷺ.

وعن هذا الكفر بمحمد وما أنزل عليه تتفرع أخطر وظائف الكنيسة، وهي الصد عن سبيل الله (الإسلام)، لأن بقاء الكنيسة متوقف على مدى قدرتها على ممارسة هذا النوع من الصد. وسأبين فيما يأتي من هذا البحث مفردات «الكنيسة-النظرية» التي تعكس فكرة وحدة الوجود في شكلها الديني-المسيحي، ثم أعود إلى الصد عن سبيل الله بما هو الوظيفة الدائمة للكنيسة.

أ. الله والمسيح شيء واحد:

«**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**». وبذا تقع النظرية بمجملها في نطاق الشرك الذي حذر منه المسيح ﷺ عندما قال لقومه: «**يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأوه الناروما للظالمين من أنصار**».

وما تمثله نظرية الكنيسة في هذا السياق هو فكرة وحدة الوجود في شقها الديني،[1] فهي تعني أن الله والمسيح شيء واحد، وأن المسيح والمسيحيين جسد واحد.

(1) وحدة الوجود لها شق علماني يمثله هيجل الذي يعتقد أن الله والعقل والتاريخ شيء واحد. وفي هذا السياق يتحدث هيجل عن مكر العقل ومكر التاريخ مثلما يتحدث القرآن عن مكر الله!

ب. المسيح والمسيحيين جسد واحد:

أحد المغضوب عليهم واسمه شاؤول الطرسوسي دخل المسيحية وتسمى باسم القديس بولس، معلنًا نفسه رسولاً من لدن المسيح ليبشر ببدعة توحد الضالين في المسيح-الإله. وتقوم البدعة على «التعميد»[1]، وهو شعيرة مسيحية تقوم على غمر المعمّد في الماء وإخراجه منه باسم «الأب والابن والروح القدس». وبذا قلبَ بولس الغُسل من عمل من أعمال الطهارة، وسنة من سنن الفطرة، إلى إجراء رمزي يوحد الضالين افتراضيًا في جسد المسيح الروحاني/الصوفي.[2]

وبخصوص أثر التعميد على المعمّد يقول بولس للمسيحيين: «**هل تجهلون أننا نحن الذين تم تعميدنا في عيسى المسيح أننا في موته قد تعمّدنا؟ لقد ضمنا التعميد إلى موته حتى نقوم مثل المسيح بمجد الرب، وبالمثل نسير نحن كذلك في حياة جديدة.**»[3] غمر المعمّد في الماء يرمز للموت والدفن، وخروجه من الماء قيام من الموت وميلاد جديد لشخص جديد غُفرت ذنوبه بإجراءات التعميد، باعتبار التعميد رمز للشراكة مع المسيح في الموت والدفن والقيامة!

(1) تعميم الجسد بالماء هو الغُسل، الذي يحقق طهارة البدن. وهو من «سنن الفطرة»، بحسبها أعمال النظافة التي مازال اليهود والمسلمون يمارسونها حتى اليوم. وكلمة التعميد (Baptism) لا تعني في أصلها اللغوي-الإغريقي غير «الغسل».

(2). التعميد هو لحظة انضمام المعمّد إلى الكنيسة، الذي يقابل نطق المسلم للشهادتين عند دخول الإسلام.

41(3). رسالة بولس إلى الرومان (6: 3-4).

وفيما سلف يقول بولس: «**لقد تم تعميدنا جميعًا لنكوّن جسدًا واحدًا.. لقد ضمنا جميعًا روح واحد**». هذا هو الأثر الأول للتعميد (الجسد الواحد)، أما الأثر الثاني فهو أن يكون هذا الجسد الافتراضي هيكلًا للروح القدس.

ج. هيكل الروح القدس:

الجسد الواحد المكوَّن من اتحاد المسيحيين بالمسيح هو الهيكل الذي يقيم فيه الروح القدس. وفي هذا السياق، وطبقًا لهذا التصور، يقول بولس للمسيحيين: «**أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم، ومن يفسد هيكل الله يفسده الله، لأن هيكل الله، الذي هو أنتم، مقدس**»[1]**!** وتعليقًا على محتوى هذه الرسالة قال نيتشه: «**لن نستطيع مهما فعلنا أن نفي مثل هذا الكلام حقه من الاحتقار..**»![2]

وبالرغم مما سلف مازال صدى رسالة بولس يتردد حتى القرن العشرين، ومن ذلك ما جاء في «الموسوعة البريطانية» من تعريف أحد اللاهوتيين الكاثوليك للكنيسة على أنها: «**شعب الله مجتمعًا كجسد للمسيح وهيكل للروح القدس**».[3]

The Church is ... the people of God established as the body of Christ and the temple of the Holy Spirit. [4]

(1) رسالة بولس إلى كورنثوس (13:12).
(2) نيتشه، نقيض المسيح، فقرة 45.
(3) كان هذا سنة 1965.
(4) نسب العبارة في الموسوعة إلى: M.-J. le Guillou, a Roman Catholic theologian

وبذا يكوّن المسيحيون جسدًا واحدًا متحدًا في المسيح-الإله، وهذا الجسد هو الهيكل الذي اسمه «الكنيسة» حيث يقيم الروح القدس. وتنبثق عن هذا الباطل النظري مؤسسة تتكون من مجموع الرهبان وعلى رأسهم البابا الذي يتصور أنه خليفة بطرس، ويكون بهذه الصفة مؤهلاً للجلوس على كرسي القداسة وترأس حكومتي الدنيا والآخرة.

ثانيًا) وظيفة الكنيسة:

تعتقد الكنيسة أنها حكومة عالم القداسة، أما وظيفتها كما في القرآن الكريم (وهو المصدر الأول لتصورات المسلمين) فهي صد العالم عن سبيل الله (وهو الإسلام).[1]

أ. حكومة عالم القداسة:

يتصور البابا والرهبان من حوله أنهم حكومة القداسة في السماء والأرض. ذلك لأن بطرس وهو أول بابا بعد المسيح قد استلم -في الأسطورة المسيحية- مفاتيح السماء والأرض من المسيح-الإله! وفي هذا يروي الإنجيل أن المسيح قد قال لبطرس: «**سأعطيك مفاتيح مملكة السماء، فمهما عقدت في الأرض فهو معقود في السماء، ومهما حللت في الأرض فهو محلول في السماء**»!

وتأسيسًا على ما سلف يقرر بولس «**أن القديسين سيدينون العالم**»! ويتساءل مستنكرًا: «**ألستم تعلمون أننا سندين (= نحاسب) ملائكة، فبالأولى أمور هذه الحياة**»! وقد تكون الإشارة إلى هذا الكلام من ضمن

(1) ومن صد الكنيسة عن سبيل الله عملها الدؤوب على تنصير من استطاعت من أبناء المسلمين.

المقصود في قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]!

رهبان النصارى المنتظمون في الكنيسة هم الحكومة التي خرجت بالمنتسبين إليها عن دين عيسى (وهو الإسلام) إلى عبادة عيسى ضمن ثالث ثلاثة. ويعقد هؤلاء الرهبان من حين إلى آخر مؤتمرات تتقرر فيها معتقدات المنتسبين للكنيسة، من نوع ألوهية المسيح وأنه ثالث ثلاثة[1]! وعلى هذا الموقف كذلك ينطبق قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، لإنهم يشرعون في مجال ليس لهم حق التشريع فيه، وهو مجال المعتقدات الإيمانية.

وبهذه الصفة (حكومة عالم القداسة) قررت الكنيسة رد المسلمين عن دينهم ليصبحوا أخوة في المسيح وليس في الله، وأخوة في منظومة اسمها الكنيسة وليس في نظام أسمه الإسلام.[2] وهذا يوصلنا إلى الوظيفة الحقيقية للكنيسة بما هي منظمة عالمية للصد عن سبيل الله.

ب. الصد عن سبيل الله:

هذه الوظيفة موصوفة في قوله تعالى: «**يا أهل الكتاب لما تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**». والصد عن سبيل الله، الذي لا تكف عنه الكنيسة، هو العمل على

(1) أكثر هذه المؤتمرات شهرة «مجمع نيقية» الذي تقرر فيه أن المسيح إله وابن إله!
(2) الإسلام في نظر الكنيسة هرطقة رجل أراد أن يصل إلى كرسي البابا، فلما لم يستطع ابتدع دينًا جديدًا.

إخراج المسلمين من عبادة الله وحده إلى عبادة ثالث ثلاثة. وعبادة ثالث ثلاثة يسمى في نظرية الكنيسة «الخلاص»!

وقد تطورت منهجية الكنيسة في صد من آمن (المسلمين) عن سبيل الله عبر القرون، انطلاقًا من الحروب الصليبية قبل ألف سنة وصولاً إلى حوار الحضارات الذي انطلق قبل خمسمائة سنة، وكان استمرارًا لذات السعي الكنسي ولكن من طريق جديد.

1 ـ الحروب الصليبية:

في سنة 1095م دعا البابا أوربان الثاني أوربا إلى غزو المسلمين في الشرق. والأسباب التي دعت إلى ذاك الغزو كثيرة، وكان الصد عن سبيل الله من بينها. أخذ الغزو مسمى الحملات الصليبية التي كانت من المناسبات الشهيرة التي أصدرت فيها الكنيسة صكوك غفران تمنحها لكل من يتجند في تلك الحملات من المجرمين. ومن بعد أصبحت تلك الصكوك تباع لمرتكبي شتى أنواع الخطايا والذنوب، حتى أنه كان بإمكان الموسرين من رعايا الكنيسة شراء صكوك غفران للذنوب التي لم ترتكب بعد.

كانت صكوك الغفران ضربًا من ضروب أكل أموال الناس بالباطل، المقترنة بالصد عن سبيل الله. وفي هذا السياق يضيء القرآن المنفعة المالية التي تجنيها الكنيسة من الضالين: «**يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله**»! والمعنى أن الانحراف في المسائل المالية ناتج عن انحراف في العقيدة ومرتبط به، ولذا سيستمر الانحراف المالي طالما استمر الانحراف الديني.

استمرت الحروب الصليبية لقرنين من الزمان دون طائل يذكر، وكانت فكرة حوار الحضارات من البدائل التي ظهرت للتعويض عن ذاك الاخفاق. بكلمات أخرى: تحولت الكنيسة على إثر فشل العمل المسلح إلى الجبهة المعرفية قصد دراسة معارف الشرق بشكل يمّكنها من الإحاطة به علمًا تمهيدًا لتنصيره بطريقة أكثر فعالية وأقل كلفة من الحروب.

ولتحقيق المقصد المذكور قررت الكنيسة سنة 1312م تدريس أربع لغات شرقية هي: العربية والعبرية والسريانية والإغريقية في خمس جامعات أوربية هي: سالامانكا في إسبانيا، وباريس وأفينيون في فرنسا، وإكسفورد في إنجلترا، وبولونيا في ايطاليا.[1] ومن جامعة سالامانكا خرجت فكرة حوار الحضارات الهادف إلى الصد عن سبيل الله. وجاءت الفكرة من طريق أحد المشتغلين بتدريس اللاهوت في تلك الجامعة، واسمه يوحنا الاشقوبي.[2]

2 ـ حوار الحضارات:

الحديث عن حوار الحضارات سيشمل بإيجاز انطلاقته كفكرة من أفكار الكنيسة من جانب، ثم كيف ظلت الكنيسة مخلصة فيه لثوابتها وعلى رأسها الصد عن سبيل الله من جانب آخر. وما هو أهم من كل ما سبق هو أن يعلم المسلمون الذين يشاركون في هذا الحوار اليوم -لأجل المشاركة لا أكثر- المقاصد التي يخدمها هذا الحوار والاهداف التي يسعى لتحقيقها[3]. كما أنه من الحكمة كذلك أن يطلع الباحثون في الموضوع على أصوله التاريخية،

(1) هذه المناسبة هي اللحظة التاريخية التي ولد فيها «الاستشراق».
(2) واسمه الاسباني Juan de Segovia، وعاش بين سنتي 1390 1458-.
(3) يذكر سذرن R. W. Southern أن يوحنا الاشقوبي عدد ثلاثين فائدة للحوار، حتى وإن لم يحقق هدفه الأساسي وهو رد المسلمين عن دينهم.

بدل البقاء في غفلة عن حقيقة الهدف منه وقصد الكنيسة من وراء اطلاقه أو المشاركة فيه.

حوار الحضارات فكرة كنسية. إذا وضعت اسم يوحنا الاشقوبي في محرك البحث فسيظهر لك اسمه في «ويكيبيديا» قرين فقرة تقول إنه «**قضى الكثير من وقته في المناداة بالتعايش السلمي مع العالم الإسلامي، وقام بترجمة القرآن إلى القشتالية واللاتينية بمعاونة الفقيه الاندلسي المسلم عيسى بن جابر، لكن الترجمة ضاعت**».

هذا النوع من التدليس لا ينطلي إلا على الغافلين، لأن ما يمثله حوار الحضارات هو استمرار الكنيسة في الصد عن سبيل الله، ولكن من طريق تأمل الكنيسة أن يفضي إلى تنصير المسلمين دون حاجة لإراقة الدماء. هذه هي فلسفة حوار الحضارات.

3 ـ تاريخية حوار الحضارات:

من المناسب تسليط الضوء على الظروف التاريخية التي ولد فيها المشروع، وفلسفته عند رجال الكنيسة الذين اخترعوه وشاركوا في نقاشه، في العقد الذي فتحت فيه القسطنطينية (1450-1460). وقد أخذ المشروع شكل المؤتمر الذي عُقد عن بعد، وبالمراسلة بين أطرافه.

وما سأقوم به الآن هو الكشف عن أسماء وادوار المؤسسين لمشروع حوار الحضارات الهادف إلى تنصير المسلمين. وهؤلاء المؤسسون أربعة هم: 1) يوحنا الاشقوبي من إسبانيا، 2) نيكولاس الكوزي (نسبة إلى مدينة كوزا) من ألمانيا، 3) جان جيرمان من فرنسا، 4) أنياس سيلفيوس من إيطاليا. وكان الأربعة كرادلة، وأمسى الأخير بينهم بابا الكنيسة الكاثوليكية بين عامي 1458-1464.

يوحنا الاشقوبي (1400-1458). صاحب الفكرة؛ والداعي الأول لها، ثم شارح فلسفتها التي لا تخلوا من تعقيد. رأى يوحنا في كل حرب بين المسلمين والنصارى صورة من صور قيام المسلمين بواجبهم، ففي الرؤية الغربية الحرب (الجهاد) هي الطريقة التي يُعبر بها الإسلام عن نفسه، والغزو هو الوسيلة المتبعة لذلك. وعلى الجانب الآخر تعبر الحرب التي يشنها المسيحيون صورة من صور خذلان المسيحيين لجوهر عقيدتهم (التي تفترض السلمية).

لكل ما سبق كان من الضروري إيجاد طريقة لمواجهة الإسلام دون عمليات عسكرية، ولا سيما بعد اخفاق كل الحملات الصليبية على الشرق المسلم. وكانت الطريقة المقترحة (أي الحوار) تقتضي فهمًا عميقًا للإسلام قبل الشروع في الحوار مع المسلمين.

وفي سبيل التعمق في فهم الإسلام سعى يوحنا الاشقوبي إلى تأمين ترجمة جديدة للقرآن الكريم، باعتباره كتاب الذين ينوي صدهم عن سبيل الله. وكانت الترجمة الجديدة لازمة لسببين؛ أولهما أن الترجمات السابقة مليئة بالمضامين المسيحية التي تشوه فهم القرآن، والسبب الثاني هو أن الافتراء على الإسلام لم يأت بنتيجة، والحروب الصليبية كذلك، فلا أقل من معرفة مصدر الإسلام الأول (القرآن) معرفة دقيقة ليأخذ الصد عن سبيل الله منحىً أكثر صلابة.

في هذا السياق؛ كتب يوحنا للثلاثة الباقين يقترح الدخول في حوار مع المسلمين قصد ردهم إلى المسيحية. وفي تبيان نجاعة هذا الحل قال «**حتى لو أخذ الحوار عشر سنوات فإنه سيكون أقل كلفة من الحرب**». واقترح في هذا السبيل استقدام بعض التجار من القاهرة والإسكندرية وأرمينيا

واليونان لشرح الإسلام عقيدة وممارسة تمهيدًا لأثبات أن القرآن ليس كلام الله. واقترح أن يتم، بعد جمع المادة المفيدة أن القرآن ليس كلام الله، التوجه لأقناع المسلمين بنجاعة المسيحية ودعوتهم إلى نبذ الإسلام.

كانت فرضية أن القرآن ليس كلام الله هي المحور الذي ستدور عليه جهود المتآمرين الأربعة. وقد تصور أحد الكرادلة أن بإمكانه إثبات الفرضية اعتمادًا على خبرة سابقة وكما سنرى الآن. وهو ما يوصلنا إلى الطرف الثاني في هذه المؤامرة.

نيكولاس الكوزي (1041-4641):

اشتهر هذا الكردينال بسعة اطلاعه وبحوثه التاريخية، التي كان من أشهرها اكتشافه تزوير ما يسمى «هبة قسطنطين»، وهي وثيقة تقول إن قسطنطين قد وهب أوربا الغربية للكنيسة. وقد أثبت نيكولاس أن تلك الوثيقة صادرة في حقبة لاحقة على زمن قسطنطين، وتكون بذلك مزورة ولا قيمة لها. وقد توجه إليه يوحنا الاشقوبي لينضم إليه في مسعاه، على أمل أن يجد في القرآن ما يمكن الاعتماد عليه في إقناع المسلمين أن القرآن ليس كلام الله.

اعتقد نيكولاس أن بإمكانه القيام ببحث نقدي فيما يخص القرآن مثلما فعل مع «هبة قسطنطين». وقد توصل إلى بعض النتائج منها أن محمدًا قد ضلله بعض مستشاريه اليهود فنهج نهجًا معاديًا للمسيحية، وأن بعض الأخطاء في القرآن مما أضافه اليهود إليه بعد وفاة محمد»[1]. وكان مما توصل

(1) ويعد ما قام به نيكولاس الكوزي باكورة ما يسمى اليوم «نقد النص»، الهادف إلى تكذيب القرآن الكريم. ومن غرائب هذا النقد انتقاله في زمننا المعاصر إلى بعض كتاب المسلمين المتأثرين بنهج الكنيسة وهم لا يشعرون.

إليه بحثه أن دين محمد ليس شيئًا في أساسه غير مسيحية نسطورية، وهي هرطقة تنازع المسيحية الحقيقية في طبيعة المسيح واتحاده بالله.

جان جيرمان (0041-1641):

كان جان جيرمان فرنسي، لا يؤمن بغير الصليبية التقليدية في مواجهة المسلمين، ولا سيما بعد تقدم العثمانيين في أوربا وفتحهم القسطنطينية (سنة 1453). لقد رد على رسالة يوحنا له بخطاب طويل ينفع لاستثارت المشاعر الصليبية. وعلى خلاف المؤمنين بالحوار كتب جان جيرمان إلى ملك فرنسا يستثير فيه الحمية الصليبية ويطلب منه أن يكون مثل شارلمان أو قسطنطين وغيرهما من المحاربين الذين خاضوا معارك أسطورية، وأن يسّخر قدراته لانتزاع الأماكن المقدسة من المسلمين. وبذا كانت فكرة يوحنا الاشقوبي اخفاقًا تامًا على مستوى جان جيرمان الذي تملكته روح صليبية من النوع التقليدي، الذي لا يؤمن بغير القوة المسلحة. وبذا بقي موقف واحد من فكرة يوحنا الاشقوبي، وهو الموقف الأخير في هذا العرض.

أنياس سيلفيوس (5041-4641):

سبق وأن ذكرت أن أنياس هذا قد أصبح البابا بين عامي 1458- 1464. وقد تحمس هذا البابا لفكرة اقناع المسلمين بالارتداد عن دينهم. ومن ثقته بمشروعه توجه إلى محمد الفاتح يدعوه إلى قبول النصرانية ليكون أكبر حاكم في الشرق بعد تعميده في الكنيسة وتثبيته من البابا الذي يملك مفاتيح السماوات والأرض. كانت الرسالة طويلة وفيها اسهاب ومقارنات بين المسيحية والإسلام. وفيما يأتي أهم فقرات الرسالة حيث يقول البابا لمحمد الفاتح:

«شيء بسيط يمكن أن يجعل منك أعظم و أقوى رجل... القليل من الماء تُعمد به، ثم تعود إلى الشعائر المسيحية والإيمان بالإنجيل. افعل هذا ولن يكون بوسع أي أمير أن يتجاوزك في المجد أو يساويك في القوة. وسنسميك إمبراطور الإغريق والشرق. والأرض التي تحوزها الآن بالقوة ستصبح لك بحق، والمسيحيون سيوقرونك ويجعلون منك الحكم بينهم... عد إلى المسيحية وستكون أعظم رجل في زمانك وبرضى عالمي [رضى الكنيسة]».

It is a small thing, however, that can make the greatest and most powerful man in your time... a little water with which you may be baptized, and turn to the Christian sacraments and believe the gospel. Do this, and there is no prince who will exceed you in glory, or equal you in power. We will call you emperor of the Greeks and the East. The Land which you now occupy by force you will then hold by right, and all the Christian will reverence you and make you their judge... turn to Christianity and you will be the greatest man of your time by universal consent. (1)

تعكس الفقرة المستشهد بها ما بينته قبل قليل من أن البابا يعتبر نفسه المتصرف في السماوات والأرض بحق، حتى أن بإمكانه أن يضفي على ما أخذه محمد الفاتح بقوة السلاح المشروعية التي تملك الكنيسة أن تضفيها على أي فعل فيصبح مشروعًا، وإن لم يكن مشروعًا قبل كذلك. كما اعتقد البابا أن

(1) R. W. Southern, Western Views of Islam in The Middle Ages, Harvard University Press, third reprinting, 1980.

بإمكانه أن يجعل الفاتح امبراطورًا في الشرق! كيف لا وهو الذي ورث مفاتيح مملكة السماوات والأرض عن بطرس، ومن سلطاته حكم الناس في الدنيا ومحاكمة الملائكة في الآخرة!

4 ـ نهاية وبداية:

من غير المعروف ماذا كان موقف محمد الفاتح من تلك الرسالة أو رده عليها، إن وجد! المهم هو أن فكرة الحوار عند رهبان الكنيسة وقادة الرأي العام في العالم المسيحي قد انتهت إلى نتيجة غير النتيجة المتوقعة والمرغوبة. وقد لخص أر دبليو سذرن R. W. Southern نتيجة المحاولة على النحو الآتي.

«حتى وإن لم يظهر حل للمشكلة [الإسلام]، أصبح توصيف المشكلة أكثر تعقيدًا، أكثر عقلانية، وأكثر اتصالاً بالتجربة من ذي قبل... أخفقت الابحاث في الإسلام كمعضلة تواجهها أوربا في القرون الوسطى، وأخفق الباحثون في إيجاد الحل الذي بحثوا عنه ورغبوا به؛ لكنهم طوروا أنماط تفكير وقوة استيعاب تستحق النجاح لو أنها كانت عند رجال آخرين [غير رهبان الكنيسة] أو كانت في حقول أخرى [غير الصد عن سبيل الله]».

Even if the solution of the problem remained obstinately hidden from sight, the statement of the problem became more complex, more rational, and more related to experience... the scholars who labored at the problem of Islam in the Middle Ages failed to find the solution they sought and desired; but they developed habits of mind and power of comprehension which, in other men and other fields, may yet deserve success.[1]

(1) Ibid, p. 108

ما حصل نتيجة هذا المؤتمر-المؤامرة إذن، هو تطور أنماط التفكير وقوة الاستيعاب للإسلام، ولكن بقصد صده، والصد عنه، وليس الدخول فيه. وظيفة الكنيسة المتفرعة عن كفرها بمحمد وما أنزل على محمد ﷺ هي الصد عن سبيل الله وليس شيء آخر.

والمقصود بالصد عن سبيل الله ليس منع أوربا من الدخول في الإسلام فقط، أو منع الإسلام من دخول أوربا فقط، أو منع الإسلام من الانتشار في العالم فقط، بل المقصود هو رد المسلمين عن دينهم إلى المسيحية من طريق الحوار وليس الحرب. الهدف الاستراتيجي للصد عن سبيل الله هو القضاء على الإسلام وإن اختلفت التكتيكات والأساليب الهادفة لتنويم المسلمين حتى يسهل اقتلاع الإسلام من جذوره[1].

وكل ما ترتب على هذا المؤتمر في النهاية هو ازدياد جهل أوربا للإسلام عمقًا وعدائها له تعقيدًا. ومن بعد كان على الأوربيين الانتظار حتى انهيار الكنيسة للدخول في دين الله أفواجًا، ولم يكن ذلك ممكنًا قبل القرن العشرين. ولاستكمال صورة ضلالات ما قبل الحداثة لا بد من العودة الآن إلى مرحلة الانتقال من الجسد الروحاني للمسيح إلى الجسد السياسي للملك باعتبار ذلك من نظريات القرون الوسطى التي تجعل مع الله إله آخر.

(1) كما في وصية نابليون التي شرحتها في كتابي فوضى الأفكار، دار منابع النور، اسطنبول، 2023، ص 20-21.

المبحث الثاني
نظرية الملك له جسدان[1]

تعتبر نظرية الملك له جسدان الحلقة الرابطة، والمرحلة الانتقالية، بين الكنيسة والدولة بما هما مصدران متعاقبان للمشروعية، يلغي اللاحق منهما السابق، في عالم متعدد ومتجدد الآلهة. وسأسعى فيما يلي من فقرات لتبيان كيف كانت «الملكية» -في القرون الوسطى الأوربية- المرحلة الانتقالية من «الكنيسة» التي مثلت جسد المسيح-الإله إلى «المملكة-الوطن» التي تمثل الجسد السياسي للملك، وهو جسده الثاني الذي سيحل محل الكنيسة التي مثلت الجسد الثاني للمسيح.[2]

استمرت حقبة الانتقال هذه من بداية القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، عندما قُطع رأس لويس السادس عشر ليفسح الطريق أمام عصر الجمهوريات، وآلهة الحداثة التي شرعت تأخذ مواقعها على المسرح (السياسي). لم تخرج أوربا من عالم تعدد الآلهة حتى الآن، وكل ما تبذله وما بذلته من جهود كان في سبيل استبدال آلهة قديمة بآلهة جديدة، لكن الغافل لا يرى الآلهة الجديدة لأنها نظرية (أصنام نظرية)!

(1) Ernst H. Kantorowicw, The King's Two Bodies, A Study in Medieval Political Theology, Princeton University Press, 1957.

(2) هذا التحول أنتج فرعونًا جديدًا، وإن كان أوربيًا وليس مصريًا هذه المرة. والغريب العجيب في الأمر أن هذا التحول قد تم برعاية الكنيسة.

تأسيسًا على ما سلف؛ سأختصر الآن التطورات التي بدأت في القرن الثالث عشر بتصور الملك بجسدين، وانتهت عندما قطعت الثورة الفرنسية رأس الملك الإنسان.[1]

أولاً ـ جسد الملك الذي يموت:

كان نعي الملك يتم بعبارة «**مات الملك.. عاش الملك**»! فالملك الذي مات خلفه ملك آخر لتتواصل الملكية في المملكة دون انقطاع، فالملك الذي مات هو الجسد البشري للملك، وعلى هذا الجسد يجري ما يجري على كل الأجساد البشرية من أمراض وبقية الحوادث التي قد تصيب الإنسان بين بداية عمره ونهايته. وعلى عكس ذلك تمامًا يكون الجسد الذي لا يموت للملك، وهو الجسد السياسي!

وإذا كان القارئ على إلمام بثقافة الإنجليز فلا بد أن يذكر شعارهم For King and country «**في سبيل الملك والبلاد**». هذا الشعار السياسي متوارث منذ العصور الوسطى ويعبر عن ميل الإنجليز للمحافظة في الميدان السياسي.[2]

في تلك الحقبة؛ وابتداءً من القرن الثالث عشر شرَّعت الكنيسة «الموت في سبيل الوطن» pro patria mori ثم صاغت عبارة «في سبيل الملك والوطن» pro rege et patria كنوع من العبادات الجديدة المتمثلة في القتل والموت

(1) بمرور المقصلة على رقبة لويس السادس عشر ولدت «الجمهورية»، وماتت خرافة الملك له جسدان، يموت احداهما ولا يموت الآخر.

(2) وبالرغم من أن الترجمة الحرفية يمكن أن تكون «في سبيل الملك والبلاد» إلا أنني اخترت ترجمته الأولى لأنه يعكس أصله اللاتيني في تشريعات الكنيسة.

ليس في سبيل الله، بل في سبيل الملك الذي له جسدان، يموت أحدهما ولا يموت الآخر (لأنه الوطن)[1]. وفي هذه الحقبة بدأ زوال سلطان الكنيسة وأخذ يترسخ السلطان البديل، سلطان الملك الذي سيصبح فرعونًا انجليزيًا مع هنري الثامن (1491-1547م) وفرنسيًا مع لويس الرابع عشر (1638-1715).

ثانيًا: جسد الملك الذي لا يموت:

في عصر إليزابيث الأولى (1533-1603)[2] انتهى الرأي القانوني في انجلترا إلى أن: **«الملك له جسدان.. هكذا! جسد طبيعي وجسد سياسي. جسده الطبيعي (عندما ينظر إليه لوحده) هو الجسد الذي يموت، ويجوز في حقه الضعف الذي يصيبه بالطبع أو بحادث... مثلما يحدث لأجساد بقية البشر. أما الجسد السياسي فلا يُرى ولا يحاط به، ويتكون من السياسات والحكم... وهذا الجسد خال من الطفولة والتقدم في السن وبقية أنواع العجز والسفه التي قد تصيب الجسد الطبيعي.. ولهذا السبب ما يقوم به الملك كجسد سياسي لا يجوز عليه الفسخ أو الإبطال لعجز في جسده الطبيعي»!**[3]

The King has in him two bodies, viz., a Body natural, and a Body politic. His Body natural (if it to be considered in itself) is a Body mortal, subject to all infirmities that come by Nature or Accident, to the Imbecility of Infancy or old Age, and to all like Defects that happen to natural Bodies of other people. But his Body politic is

(1) فكرة الوطن ستحييها الثورة الفرنسية بعد قرون لتكون صنمًا من أصنام الحداثة التي ستحل محل الملك والكنيسة.

(2) عصر اسرة تيودور الملكية.

(3) هذه الفقرة من تقرير شهير عن تلك الحقبة ويعرف بتقرير بلودين Plowden Report.

a Body that cannot be seen or handled, consisting of Policy and Government... this Body is utterly void of Infancy, and old Age, and other natural Defects and Imbecilities, which the Body natural is subject to, and for this cause, what the King does in his Body politic, cannot be invalidated or frustrated by Disability in natural Body.

في هذه الحقبة -السابقة للحداثة- شرع الجسد الثاني للملك يحل محل الجسد الثاني للمسيح، وبدأ يوصف بالجسد السياسيBody politic على غرار ما كان الجسد الثاني للمسيح يوصف بالجسد الروحاني.Mystic Body الجسد السياسي/الثاني يجعل ما يصدر عن الملك لا يخضع للفسخ والإبطال، ليصبح المبدأ أن «الملك لا يخطئ» The King could do no wrong. وهذا ما يجعل الملك فرعونًا (الرب الأعلى) ولكن ليس بشخصه، بل من أثر جسده السياسي الذي لا يُرى ولا يبلى.

ما يجعل الطبيعة الفرعونية لملك الإنجليز تختفي عن الأنظار هو أن ما تم قد تم من طريق تشبيه الملك بالمسيح أو وضعه موضع المسيح-الإله. وبذا كان البابا والملك طواغيت العصور الوسطى في أوربا؛ لأن الأول يزعم وراثة المسيح-الإله، والثاني يزعم أن له حق إلهي في الحكم. وإذا كان طغيان البابا ذي أصول في الانجيل ومن وضع بولس في رسائله، فإن طغيان الملك مما لا أصل له! لذا تقرر لدى هربرت سبنسر[1] أن: «**الحق الإلهي للملوك هو الحق الإلهي لأي فرد يستطيع أن يكون الأعلى**».

(1) فيلسوف انجليزي (1820-1903)، وصاحب عبارة «البقاء للأقوى»! وله كتاب بعنوان الإنسان ضد الدولة.

The Divine right of kings is the divine right of anyone who can get uppermost. [1]

لقد تحول ملوك أوربا إلى فراعنة لكن لم يكن بوسعهم الإفصاح عن ذلك من لدن أنفسهم، مثلما فعل فرعون مصر القديمة، نظرًا لأن أوربا أصبحت مسيحية ولم يعد بالإمكان تخطي الكنيسة بسهولة وبشكل مباشر، إذ كان لزامًا إشراك الكنيسة بطريقة أو بأخرى. وكان إشراك الكنيسة في عملية تتويج الملك إجراء رمزيًا هدفه إثبات حضور الكنيسة في الشأن العام.

كانت الكنيسة في كل هذا أكبر طاغوت ومن أكبر أنصار الطغيان. والشواهد على ما سلف ثلاث: 1) صد الكنيسة أوربا عن الإسلام القائم على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. 2) تشريع الموت لأجل الملك والوطن ليكون سبيل الضالين من اتباعها. 3) القيام بتتويج الملوك حتى يختفي طغيانهم وراء ستار من الطقوس التي تمارسها الكنيسة بحسبها مصدر المشروعية في الأرض، ولا يبرم عقد أو يحل إلا برضاها.[2]

ولم يستمر هذا التصور النظري أبعد من عصر النهضة، إذ ظهرت عندها نظرية جديدة، في فرنسا، هدفها رفع الملك إلى مقام الفرعون-الإله دون حاجة إلى رضى الكنيسة. هذه النظرية هي «نظرية السيادة»، التي لا تعني غير «الألوهية» التي يتعدد مدعوها والمتنازعون عليها في أوربا. ولا مناص من التعرض للنظرية بشرح ولو يسيرًا حتى نرى جانب الألوهية المخبأ في تلك النظرية.

(1) https://www.brainyquote.com/quotes/herbert_spencer_165829

(2) تتويج الكنيسة للملك إضفاء للمشروعية، التي تزعم أنها مصدرها، على سلطات الملك السياسية وتصرفاته.

ظهرت نظرية السيادة Sovereignty سنة 1576، في كتاب الفرنسي جان بابتست بودان، وكان عنوانه «كتب الجمهورية الست»[1]، وفيه عرّف بودان السيادة على أنها: «**القوة المطلقة والأبدية**»! وهي في تصوره للملك الحاكم للبلاد (ملك فرنسا).

في القرن التالي قال لويس الخامس عشر: «**في شخصي فقط تكمن السيادة... ومني وحدي تستمد محاكمي وجودها وسلطتها... ولي وحدي تعود السلطة التشريعية بدون قيد... والنظام العام بأسره ينبثق مني، وحقوق ومصالح الأمة التي يتجرأ البعض على أن يجعلوا منها جسمًا منفصلاً عن الملك، هي بالضرورة متحدة مع حقوقي ومصالحي، وأنها لا تستقر إلا بين يدي**».[2]

مجمل هذه التطورات حدثت في أواخر العهد الملكي الذي قضت عليه الثورة الفرنسية (سنة 1789)، لتدخل أوربا طورًا جديدًا من اطوار تعدد الآلهة. في هذا الطور تحولت الآلهة نظريات سياسية تتخطى الكنيسة من جانب، والحق الإلهي للملوك من جانب آخر. لقد تبدلت مصادر المشروعية حسب تبدل الآلهة.

كانت «الدولة» ـ كما نظّر لها هوبس وهيجل وروسو ـ على رأس آلهة الحداثة، إلا أن ما مكن للدولة-الإله هو الثورة كمصدر لمشروعية العنف

(1) المقصود بالجمهورية في هذا المؤلف هو «الدولة». ذاك المصطلح الذي مازال أمامه 75 سنة حتى يظهر في صورة «ليفايثان» هوبس.

(2) استشهد بها جان جاك شوفالييه في كتابه تاريخ الفكر السياسي، من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1985، ص 533.

الذي يلغي الكنيسة والملَكية معًا. الثورة-الآلهة دشنت عهدًا جديدًا هو عهد الأمة-الدولة أو الشعب-الإله، وهذا ما سأعود إليه بالشرح والتحليل في القسم الثاني من هذا الكتاب.

الباب الثاني

التوجه بالعبادة إلى غير اللّه والحكم بخلاف ما أنزل اللّه

الفصل الأول
التوجه بالعبادة إلى غير الله

العبادة هي الطاعة المطلقة. وهذا النوع من الطاعة لا يجوز لغير الله. ولذا كانت طاعت غير الله طاعة مطلقة من أنواع الشرك، ولا سيما إذا كانت في معصية الله[1]. وهناك أعمال بيّنها الشارع ويقوم بها المسلم عبادة لله، أي طاعة لله طاعة مطلقة، واتباعًا للنبي الذي بلغ الرسالة وأنذر المخالفين بسوء العاقبة. وتسمى الأعمال المعبرة عن الطاعة المطلقة «العبادات».

ونظرًا لتعدد العبادات سأذكرها تباعًا، مبينًا كيف يتوجه بها غير المسلم إلى غير الله، وقد يفعل المسلم ذلك جهلًا بالدين أو تقليدًا أعمى للآخرين. ولذا كان من أعمال المسلمين، علماء وعامة، النهي عن التوجه بالعبادات إلى غير رب العالمين بحسبه من المنكر الذي وجب النهي عنه، وصيانة للتوحيد الذي وجبت حراسته.

أولاً ـ السجود:

كان من الشائع السجود للبشر على سبيل التحية حتى نسخ الإسلام ذلك. وفي هذا السياق لا بد من التفرقة بين سجود التحية الذي نسخه الإسلام، وسجود العبادة الذي حرمه الله مطلقًا لغير الله، قبل الإسلام وبعده.

1 ـ سجود التحية:

أمر رب العالمين ملائكته بالسجود لآدم لحظة بث الروح فيه وأخبرنا بذلك في محكم التنزيل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ

(1) ومعصية الله إما إضاعة فرائضه، أو انتهاك حرماته، أو تجاوز حدوده.

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: 71-74].

ولما كان ذلك من أمر الله، كان السجود لآدم في حينها هو العبادة (أي الطاعة المطلقة) لله صاحب الأمر، وليس لآدم الذي أراد الله تكريمه فأمر ملائكته بالسجود له على سبيل التحية. سجدت الملائكة طاعة لله (عبادة)، وعلى خلاف إبليس الذي عصى واستكبر فطرد من رحمة الله. في تلك اللحظة وقع السجود عبادة لله وليس لآدم، لأن الله هو الذي أمر بالسجود وليس آدم ﷺ.[1]

وفي سجود أبناء يعقوب لأخيهم يوسف ﷺ مثال آخر على السجود على سبيل التعظيم والتحية. وقد روى القرآن ذلك بشيء من التفصيل في سورة يوسف؛ فعندما اجتمع الشمل بعد أن مكن الله ليوسف في الأرض ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ [يوسف: 100].

والمعنى دقيق في قوله تعالى «**خروا له سجدًا...**»، أي وقعوا له سجدًا على الأرض، فلم تكن تحيتهم إيماءً بالرؤوس أو ركوعًا أمام يوسف وهو على العرش. وقد اعتبر يوسف ذلك تأويلاً للرؤيا التي رآها وهو طفل وأخبر بها يعقوب ﷺ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: 4]. وببعثة النبي ﷺ نُسخ سجود التحية بشكل نهائي، ولم يبق إلا سجود العبادة وهو ركن في الصلوات الخمس.

(1) بعض ممن لا قيمة لعقله ولا علمه يقول إن إبليس رفض السجود لآدم لأنه لا يعبد إلا الله.

2 ـ سجود العبادة:

ويعد من المنكرات إذا كان لغير الله وفي غير طاعة الله بغض النظر عن زمانه. ومن ذلك ما أخبر به الهدهد سليمان ﷺ عن ملكة سبأ حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24].

وعندما أرسل يهود المدينة وفدًا إلى قريش في مكة يحرضها على قتال النبي ﷺ، سألت قريش الوفد: قريش أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال اليهود لكفار قريش أنتم أهدى! فقال كفار قريش للوفد اليهودي إن كان ما تقولون حقًا فاسجدوا لآلهتنا! فسجد الوفد لأصنام قريش نكاية في محمد وكفرًا بما أنزل عليه. وفي هذه الواقعة نزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

ثانيًا ـ الركـوع:

والركوع من أركان الصلاة عند المسلمين، ولا يجوز اداءه في غير الصلاة لا على سبيل التحية ولا لأي معنى آخر. وما زال الركوع عند غير المسلمين من العبادات والتحيات التي يؤديها البشر لغير الله من أصنام وأوثان وبشر. ومن ذلك ركوع موظفي الحكومة في المغرب للملك، وركوع غير المغاربة من مبعوثين أجانب (سفراء وغير سفراء) للملك عند تقديم أوراق اعتمادهم، أو مقابلاتهم مع الملك حسب مقتضى الأحوال. ومن الركوع لغير الله ركوع النصارى للصليب وهو أكبر أوثانهم وأشهرها.

ومن الركوع على سبيل التحية ما يقوم به اليابانيون تجاه بعضهم البعض، وتجاه غيرهم من البشر. ومن أنواع الركوع المنتشر عند المشركين وانتقل إلى بلاد المسلمين ركوع المطربين والممثلين للجمهور على سبيل التحية، أو على سبيل ردها، عندما يعبر الجمهور عن امتنانه للفنانين بالتصفيق لحظة ظهورهم على المسرح أو لحظة ختام الحفلة أو المسرحية.

ثالثًا: الاعتكاف:

وهو المكوث عند الصنم أو الوثن وأداء بعض الطقوس التعبدية عنده. وكان الوليد بن المغير ممن يعتكف عند العزى كما في حديث خالد بن الوليد الذي قال للنبي عليه الصلاة السلام: «**يا رسول الله؛ الحمد لله الذي أكرمنا و أنقذنا بك من الهلكة، لقد كنت أرى أبي يأتي العزى بخير ماله من الأبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثاً، ثم ينصرف إلينا مسروراً..**»!

وهذا النوع من الشرك هو ما استنكره إبراهيم ﷺ على قومه عندما قال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52]؟ فما كان منهم إلا أن ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]. ومن هذا الطريق، طريق تقليد الأباء والاجداد، كان الاعتكاف عند الأصنام و/أو الأوثان شائعًا عند العرب حتى جاء الإسلام وجعل الاعتكاف في بيوت الله وعلى سنة رسول الله فقط.

رابعًا ـ الحج:

وهو ركن من أركان الإسلام ويتكون من عدة مناسك سأبينها تباعًا، لأبين كيف يمكن أن يتوجه الغافل بمثلها إلى غير الله، فتتحول شركًا ظاهرًا لمن علم ظاهر الشرك وباطنه.

أ. القصد:

الحج معناه قصد بيت الله على سبيل التعبد، أي الطاعة المطلقة لله الذي أمر الناس بالحج ليشهدوا منافع لهم (دينية ودنيوية). ولا يجوز قصد غير بيت الله على سبيل التعبد، على نحو ما كانت العرب تفعل في الجاهلية إذ روى ابن إسحاق في السيرة النبوية أن العرب «**اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطو افها بها وتنحر عندها**».

وقصد من هذا النوع، أي الحج إلى بيوت أخرى (طواغيت) غير البيت الحرام بمكة من أنواع الشرك الذي كان معروفًا عند عرب الجاهلية[1]. وقد قضى الرسول على هذا النوع من الشرك لأنه من أعمال العبادات التي خرجت عما أمر الله به لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]، وقول رسوله «**خذوا عني مناسككم**» بخصوص الحج والعمرة.

وبهذا الفهم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان لمّا رأى الناس تقصدها (تحج إليها) لتصلي تحتها لأن النبي صلى تحتها. لقد تحولت الشجرة إلى مقصد وأصبحت الناس تحج إليها، جاهلين أن التوجه وشد الرحال تعبدًا لا يكون إلا إلى بيت الله الحرام الذي ببكة. وحتى لا يعود الناس للشرك وهم لا يشعرون، من طريق الحج إلى تلك الشجرة، أمر الفاروق رضي الله عنه بقطعها.

(1) راجع الكلبي، كتاب الأصنام، مرجع سابق، ص 7.

وقد شاع في الناس الحج إلى مراقد الأولياء طلبًا للشفاء من بعض الأمراض أو طلبًا للولد أو السعة في الرزق أو عودة غائب أو حتى بث الشكوى أو طلب خدمة. وكل أنواع هذه الممارسات والطلبات من الشرك الظاهر والخفي.

ب. التلبية:

عبارة «لبيك» تدل على سرعة الاستجابة؛ ومما جاء في مرويات كثيرة قول بعض الصحابة «لبيك يا رسول الله»، عند ندائه عليهم. وتأتي تلبية الحجيج استجابة لنداء إبراهيم على الناس بالحج لما أُمر بذلك: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27].

والصيغة الأصلية للتلبية هي «**لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك لبيك**». وقد أدخل بعض العرب أصنامهم في التلبية بقولهم: «**لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك.. إلا شريكا هو لك.. تملكه وما ملك**»! فقولهم «**إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك**» إشارة إلى أصنامهم المنتشرة في جزيرة العرب. وقد جعل بعض المفسرين ما سلف من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]!

وقد أورد الكلبي تفاصيل كثيرة لما أدخلت القبائل العربية من أقوال وافعال في التلبية، وما تأتيه تلك القبائل من أفعال وهي في طريقها إلى مكة للحج أو العمرة قبل الإسلام. ومن ذلك ما ابتدعته قبيلة عك من سير عبدين من عبيدها أمام القافلة المتجهة إلى مكة وهما يقولان: «**نحن غرابا عك**»[1]!

(1) كانت العرب تصف العبد بالغراب. ومن ذلك قولهم عن سيدنا بلال عند وقوفه للآذان على ظهر الكعبة «لم يجد محمد غير هذا الغراب»! ويذكر بعض المفسرين أن هذا الموقف من أسباب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11].

فتقول القبيلة من ورائهما: «**عك إليك عانية.. عبّادك اليمانية.. كيما تحج الثانية**»!

وقد ظل الوضع على ذاك الحال حتى بعثة النبي ﷺ الذي أعاد الحج وأداء المناسك إلى ما كانت عليه في ملة إبراهيم ﷺ. ومن المشهور قوله ﷺ في حجة الوداع: «**خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**». ومن هذا الطريق تم حذف كل ما أضافته عرب الجاهلية إلى مناسك الحج.

ج. الطواف:

والطواف حول الكعبة سبعة أشواط من اركان الحج والعمرة. وهو من العبادات عمومًا غير أنه يحل محل تحية المسجد في غير البيت الحرام، فالوافد على المسجد الحرام يطوف بالبيت سبعًا في الحج والعمرة، وتحية للبيت في غيرهما من الأوقات، فمن المعروف أن تحية البيت الطواف. وبعد الفراغ من الطواف يصلي الحاج أو المعتمر ركعتين سنة. وذلك هو ما فعله النبي علية الصلاة والسلام، وتبعه في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك يفعل من تبعهم بإحسان من المسلمين.

ومع انتشار الجهل بعد عصور الإسلام الزاهية ابتدع بعض الناس شد الرحال إلى مراقد بعض الأولياء وأهل الصلاح، والطواف بقبورهم، غافلين عن حقيقة أن الطواف من العبادات التي لا تكون إلا حول الكعبة، وفي بيت الله الحرام وليس في غيره.

خامسًا ـ التذكية وتقديم القرابين:

والمقصود بالتذكية نحر الإبل وذبح الغنم والبقر. والتذكية من العبادات، فالنحر والذبح مثل الصلاة لا يتوجه به العبد المسلم إلا لله لقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: 2]. ومن المطلوب كذلك أن تكون التذكية باسم الله، فالمذكي يستقبل القبلة ويسمي الله عند الشروع في النحر أو الذبح. وقد نهى الله عز وجل عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه قصدًا، لأن من قصد عدم ذكر الله أو ذكر غيره يكون قد توجه بالنحر إلى غير الله والنحر من العبادات لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: 1-2].

وكان تقديم القرابين للآلهة منتشرًا في القرون الخالية قبل الإسلام، وهو ما أحدث محنًا حقيقية للموحدين أو لمن كانوا على بقية من توحيد ويرفضون تقديم القرابين للآلهة أو لا يأكلون من لحوم القرابين المقدمة إليها. وكان الأكل من لحوم القرابين المقدمة للأصنام مما امتحن به الإمبراطور الروماني ديسيوس صدق النصارى في ردتهم عن اتباع عيسى.

حكم ديسيوس الإمبراطورية الرومانية من عام 249 إلى 251 ميلادية، وقد أصدر مرسومًا في عام 250م يلزم جميع سكان الإمبراطورية بتقديم قرابين لآلهة الرومان نوعا من إثبات الولاء للإمبراطور والإمبراطورية. كما طُلب من السكان الحصول على شهادة رسمية تُثبت أنهم قدموا قرابين أو ذبائح للأصنام، وقد عرفت هذه الشهادة باسم ليبولوس Libellus.

المسيحيون الذين رفضوا المشاركة في هذه الطقوس تعرضوا لكثير من الاضطهاد، فعرفوا السجن والتعذيب وأحياناً القتل بأبشع الأساليب.

وكان ممن قُتل لرفضه تقديم قرابين لآلهة الرومان القديس فابيانوس، قديس روما، الذي قتل سنة 250. وقد تعرضت القديسة أغاثا لتعذيب شديد لرفضها تقديم القرابين لآلهة الرومان، ولرفضها الزواج من شخص غير مسيحي (وثني) هو حاكم صقلية.

ومن أساليب التعذيب الشنيعة والقتل لرافضي تقديم القرابين إلقائهم للوحوش أمام المتفرجين على المدرجات الرومانية ومن بينها الكولوسيوم في روما. وفي هذا السياق كان القاء الضحايا للأسود من العقوبات التي تأخذ شكل الاعمال الاستعراضية لتسلية المواطنين الرومان.

سادسًا ـ النذر:

والنذر هو التعهد بأداء عبادة بعينها (صوم أو حج أو عمرة أو صدقة) لله إذا تحقق قصد مطلوب، مثل النجاح في عمل أو شفاء مريض أو النجاة من خطر. وقد درج بعض الغافلين على النذر للأولياء لغفلتهم عن أن النذر من العبادات، والمسلم لا يتوجه بالعبادة إلى غير لله.

ومن النذر الشهيرة في التاريخ نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أبنائه إذا أعطاه الله عشرة منهم، لما أراد حفر زمزم وخذلته قريش. وسأعود لتفصيل نهاية هذا النذر عند الحديث عن تقديم القرابين البشرية، لكن وجب التنويه بأن البشر ما أن ينفكوا عن عادة حتى يعودوا إليها بعد تطاول العهد، ومن ذلك تقديم القرابين البشرية في العصر الحديث.[1]

(1) تقديم القرابين البشرية في الزمن المعاصر سيكون محل تفصيل في القسم الثاني.

سابعًا: عبادات منقرضة:

والعبادات المنقرضة هي: حرق البخور للآلهة، وعبادة الكواكب، وتقديم القرابين البشرية، وتخصيص البحيرة والسائبة، وعبادة العقل.

أ. حرق البخور:

وكان حرق البخور للآلهة من العبادات القديمة. وقد عُذب القديس بابياس، أسقف أنطاكية، حتى الموت لأنه رفض التبخير للأوثان. وقد رفضت القديسة أغاثا حرق البخور للآلهة بالإضافة لرفضها تقديم القرابين فكان مما عذبت به قطع ثدييها وتركها لتموت في السجن.

وكان في محاكم الرومان تماثيل للأباطرة والآلهة ليقدم لها المرتدون عن المسيحية القرابين ويحرقون لها البخور تعبيرًا عن صدق نبذهم لما كانوا عليه من نصرانية، وبقية من توحيد تمنعهم من عبادة أباطرة الرومان والأصنام الممثلة لهم والأكل من لحوم القرابين المقدمة إليها.

ب. عبادة الكواكب:

كانت الأمم الخالية تعتقد أن الكواكب السبعة آلهة تؤثر في العالم[1]، ولذا عبدتها بصور شتى. وأهم من عبد الكواكب في التاريخ الإسلامي صابئة حران الذين يُعتقد أنهم وصفوا أنفسهم بالصابئة لأن المعتصم خيرهم بين الإسلام أو الدخول في ملل أهل الكتب المعترف بها أو القتل، فأعلنوا أنهم

(1) ومعلوم أن الأوربيين قد سموا أسماء الأسبوع على الكواكب، فالأحد يوم الشمس والاثنين يوم القمر وهكذا.

صابئة للنجاة بأنفسهم، لكن المعتصم مات في المهلة واحتفظ هؤلاء بالاسم الجديد رغم أن منهم من عاد إلى ضلاله القديم.[1]

وقد فصَّل ابن النديم في الفهرست الكثير من عباداتهم، مثل ذبح الحيوانات أو حرقها. ومن ذلك ذبح سبع خراف للآلهة السبعة وثور للزُهرة. كانت الذبائح من الغنم والبقر، وكان من عباداتهم ذبح صبي قربانًا للآلهة عندما يولد للآلهة إله جديد.

وكان من عبادات الصابئة الصوم إذ كانوا يصومون في تشرين الثاني عدة أيام آخرها يوم تسعة وعشرين. وكان لهم صوم في شهور أخرى حسب تفاصيل طويلة ومملة أوردها ابن النديم حسب تتابع الشهور وأيامها.[2]

ج. تقديم القرابين البشرية:

في غير العرب من الأمم الغابرة؛ كان تقديم القرابين البشرية معروفًا عند سكان الشمال الأوربي الذين يعبدون إلهًا اسمه «أودن» ويتقربون إليه بتعليق العبيد على الأشجار[3]. كما كان المصريون يقدمون فتاة للنيل سنويًا، وظلت هذه العادة سارية حتى أبطلها الإسلام بعد فتح مصر.

ولما أراد عبد المطلب حفر زمزم وخذلته قريش نذر إن أعطاه الله عشرة أولاد أن يذبح أحدهم لله. وكان أن وهبه الله عشرة أولاد فساهم بينهم للذبح ثلاث مرات، فكان سهم عبد الله والد النبي ﷺ يخرج في كل مرة. ثم تقرر وضعه في مقابل عشرة من الأبل، وكلما خرج سهم عبد الله زيدت الأبل عشرة،

(1) ابن النديم، الفهرست
(2) ويستوعب الشرح أربعة عشر صفحة من الفهرست (442-456).
(3) وقد ذكر هذا الإله توماس كارلايل في كتابه عن الابطال والبطولة وعبادة البطل.

وظلت المساهمة تزداد بهذا النحو حتى بلغت الأبل مائة فتم فافتداه بها. وكان ذاك الحل نهاية تقديم القرابين البشرية في عالم عرب الجاهلية الأولى.

د. السائبة والبحيرة والوصيلة والحام:

قال ابن إسحاق في كتابه السيرة النبوية: «**السائبة؛ الناقة إذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر، سيبت، فلم يركب ظهرها، ولم يجزوبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من انثى شقت اذنها، ثم خلى سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجزوبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهي البحيرة بنت السائبة. والحامي: الفحل إذا أنتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمي ظهره فلم يركب ولم يجزوبره، وخلي في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك**»![1]

وقد أنزل الله من القرآن ما يكشف عن هذه البدع ويسفه أصحابها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: 103]![2]

وقد أسهب القرآن في تبيان بدع الجاهلية، وكيف يكون الافتراء على الله في باب الرزق وما يخصص منه لأصنام الجاهلية فقال: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الأنعام: 136]!

(1) ابن إسحاق، السيرة النبوية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004
(2) يقول ابن إسحاق أن عمرو بن لحي -جالب الأصنام إلى جزيرة العرب- هو أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة. السيرة النبوية، مرجع السابق، ص 60

وتبين هذه الآيات بعض صور الإشراك بالله، فالله هو الخالق الرازق لكن عرب الجاهلية جعلوا بعضًا مما رزقهم الله من الانعام لله وبعضه الآخر لأصنامهم. وما كان لأصنامهم (شركائهم) فلا يصل إلى الله، وما كان لله فيصل إلى شركائهم، إذ يذهب ما جعلوا لشركائهم من الطواغيت، وهم سدنة الأصنام وحجابها القائمين على خدمتها والمحصلين لريعها.

هـ. عبادة العقل:

وهي من العبادات التي فرضها بعض ثوار فرنسا عقب الثورة الفرنسية (1789)، وصادروا في سبيل ذلك كنيسة روتردام لتكون محلاً لعبادة العقل Culte de la Raison. وفي ذات السياق صودرت عدة كنائس وتسميتها «معابد العقل» (سنة 1794). وحُدد يوم 11 نوفمبر ليكون يوم الاحتفال بعيد العقل.

كانت شعائر تلك العبادة هزيلة بشكل عجل بزوالها، لصالح عبادة الكائن الأسمى L'Etre Supreme، وهذه العبادة اختفت أيضا سريعًا، ولا سيما بعد انفراد نابليون بالسلطة والاتفاق مع الكنيسة على العودة للفضاء العام بشكل يخدم حلم نابليون إعلان نفسه إمبراطورًا.

الفصل الثاني
الحكم بغير ما أنزل الله

الحكم بغير ما أنزل الله يعبر عن آلهة غير مرئية (أشهرها الهوى والشيطان)، وعبادات خفية يتوجه بها الأفراد والجماعات إلى الطاغوت (ولذا وُصف بعض البشر بأنهم عَبَدَ الطاغوت). وفي سبيل استيعاب هذا الموقف الجديد نسبيًا؛ أرجو أن يكون القارئ مستعدًا لقبول أفكار غير تقليدية (أو لنقل غير ماركسية)، من نوع «التاريخ يعيد نفسه»، و«التاريخ كله تاريخ معاصر»![1]

من استوعب هذه الأفكار غير التقليدية (أو تخلص من ثوابت الماركسية بعبارة ادق) سيرى أن الإمبراطور الياباني، الذي ظل إلهًا يعبد حتى الحرب العالمية الثانية، ما هو إلا نسخة معاصرة من فرعون مصر القديمة الذي دافع عن ألوهيته -ظلمًا وعدوانًا- حتى الغرق. وبالمثل سيرى القارئ في غزو نابليون لمصر في نهاية القرن الثامن عشر (1798م) مجرد نسخة جديدة أو مكررة لغزو الإسكندر المقدوني لها في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد (332 ق م).

وحيث قدّر صاحب نقد العقل العربي أن «**العقل العربي يتعامل مع الألفاظ أكثر مما يتعامل مع المفاهيم**»[2] فسأتحدث، تجاوزًا لهذا القصور، عن مفهوم الطاغوت بداية ثم عن تحكمه أو الحكم باسمه بعد ذلك.

(1) عبارة «التاريخ كله تاريخ معاصر» للمفكر الايطالي كروتشه.

(2) بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربي، الطبعة الثانية 1987، ص 564.

المبحث الأول
مفهوم الطاغوت وأنواعه

من اللافت للنظر ورود مصطلح الطاغوت في صيغة المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، في ثمانية مواقع من القرآن الكريم. لكل ما سبق لا بد من تبيان أنواع الطاغوت حسبما جاء في كتاب الله (أولاً)، ثم تحديد مفهوم الطاغوت انطلاقًا مما ورد من آيات بالخصوص (ثانيًا).

أولاً ـ أنواع الطاغوت:

ورد ذكر مصطلح الطاغوت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، منها صيغتا المذكر والمؤنث، وصيغتا المفرد والجمع، وعلى النحو الآتي؛

- في سورة البقرة: والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت (جمع)،
- في سورة النساء: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به (مفرد مذكر)،
- في سورة الزمر: والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها (مفرد مؤنث)،

ويقتضي الحال القول إن الطاغوت كما يكون شيئًا أو شخصًا، يمكن أن يكون فكرة مجردة أو نظرية سياسية من نوع «نظرية الدولة»، وكما سنرى تفصيلاً في القسم الثاني في هذا الكتاب.[1]

(1) وفي الغرب يدرس هذا النوع من النظريات فيما يسمى اللاهوت السياسي Political Theology.

ثانيًا: مفهوم الطاغوت:

كل ما عُبد من دون الله سواء بجعله إلها مع الله أو التوجه إليه بالعبادة يسمى طاغوتا: اليهود الذين عبدو العجل عبدوا الطاغوت، واليهود الذين سجدوا لأصنام قريش عبدوا الطاغوت، والعرب الذي حجوا إلى غير بيت الله عبدوا الطاغوت. الشيطان سواء كان من الإنس أو الجن طاغوت، والساحر طاغوت، وسدنة الأصنام وكهان المعابد وما عبدوا طواغيت.

ولما كانت الأصنام طواغيت؛ أرى من المناسب للربط بين عالم الطواغيت الحجرية القديمة والطواغيت النظرية، الحديثة والمعاصرة، الاستشهاد بقول نيتشه «**الأصنام أكثر مما يظهر في و اقع العالم**»!

.There are more idols than realities in the world

الخلاصة: الطاغوت يمكن أن يكون شخصًا أو شيئًا أو فكرةً، لكن طاغوت الأفكار مما لا يخطر على بال الغافل، ويستحق وقفة على التحول الذي حدث مع الثورة الفرنسية التي دشنت لحظة الحداثة، إذ بدأ مع الثورة الفرنسية التحول من طغيان الأشياء والأشخاص إلى طغيان الأفكار المجردة.

كان الطغيان من مبررات الثورة على الملكية في فرنسا؛ وفي هذا السياق يقع ما كتبه بعض مفكري الارهاصات الثورية قبل اندلاع الثورة سنة 1789، إذ كتب (سنة 1778) الكونت دو بوات-نانسي إلى لويس السادس عشر رسالة يقول فيها: «**هل تعتقد أن حكم الله لم يشرع لك؟ أم أنك أكثر من إنسان حتى يعود كل شيء إلى مجدك ويتوقف على رضاك؟ من أنت إذن؟ لأنك إن لم تكن إلهًا فأنت وحش**»![1]

(1) هذه الفقرة من ترجمتي، وأصلها في كتاب ميشيل فوكو الذي سيأتي ذكره لاحقًا. الفقرة المذكورة في ص 119 من الأصل الفرنسي.

وبالإمكان استبدال عبارة «أنت طاغوت» بعبارة «أنت وحش» في الرسالة، وبكل سهولة، لأن للموضوع علاقة بالطغيان مبررا للثورة التي اندلعت بعد عقد من كتابة هذه الرسالة. وكانت تلك الجملة في حينها على كل لسان لتبرير الثورة وما يقوم به الثوار.

غير أن ما قادت إليه تلك الثورة في النهاية هو المزيد من الرعب والدماء، واستبدل الطاغوت القديم وهو «الملك» بطاغوت حديث أو حداثي اسمه «الثورة»، التي كانت مصدرًا جديدًا لمشروعية الإرهاب الثوري، وطاغوت جديد يتم باسمه القتل!

وبدل «مات المالك ... عاش الملك « استُحدث مشروع «اقتلوا الملك ليحيا الوطن»! وبذا كان الطاغية السابق (لويس السادس عشر) أول قربان يقدم للصنم الجديد (وهو الوطن) بناءً على توصية من سان جوست[1]، وهو أحد قادة الثورة. الدولة والثورة أفكار ونظريات يكون القتل باسمها والموت في سبيلها.

(1) لويس أنطوان دي سان جوست (1767-1794). وقد وضع قتله مع روبيسبيير نهاية لحقبة الإرهاب التي اعقبت الثورة الفرنسية.

المبحث الثاني
حكم الطاغوت والحكم باسمه

هذا السياق يستدعي تمهيد موضوعه الفرق بين الحضارة البائدة والحضارة السائدة. الحضارة البائدة هي الحضارة الإسلامية التي قامت على الجمع بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. والحضارة السائدة هي الحضارة الأوربية-الغربية، القائمة على حكم الطاغوت والتحُكم باسمه، مع الإيمان بالله أو بدونه! الحضارة الغربية هي التي بنت النظام العالمي الحالي، ولذا استحقت وصف الحضارة السائدة. هذه الحضارة تتحكم في العالم بشكل يجعل ممارساتها الطاغوتية (السلب والنهب والقتل) ممارسة يومية يدفع المستضعفون ثمنها.

أولاً ـ حكم الطاغوت:

للحضارة الغربية تاريخ طويل في إخفاء الطاغوت والاختفاء وراءه؛ فمثلما زعم الإسكندر في غزو مصر أنه قادم لتحرير المصريين من الفرس سنة 332 ق م، زعم نابليون أنه جاء لتحريرهم من المماليك سنة 1798م. ومثلما ذهب الإسكندر لمعبد سيوة حتى يُعلن أنه ابن للإله آمون ذهب نابليون إلى الأزهر معلنًا أنه وجيشه من المسلمين. ولم يكن للإسكندر ومن بعده نابليون من غرض سوى حكم مصر والتحكم فيها.[1]

(1) يقول تاليران (وزير خارجية فرنسا في العهدين الملكي والجمهوري) «إن الإنسان أعطيَ ملكة الكلام لإخفاء ما يفكر به»! خطابات الإسكندر ونابليون أفضل دليل على إخفاء النية وراء الكلمات، ومازال التاريخ يعيد نفسه!

ومثلما عكس الإسكندر رغبة في السير على خطى فرعون، عكس نابليون ذات الرغبة في السير على خطى الإسكندر، اتباعًا لنصيحة مكيافيللي للأمير الجديد الذي يؤسس مجده على السير في أثر عظماء الرجال وليس على الانحطاط الذي مثلته الكنيسة التي كانت -من وجهة نظر مكيافيللي- سبب الضعة والشر اللذان اتسم بهما الايطاليون في زمانه.

الطاغوت في جوهره عبادة الإنسان لهواه أو للشيطان دون إدراك لذلك أو دون تصريح به. وقد لا تتجاوز عبادة الطاغوت تقليد الأباء والاجداد وتفضيل الموت في سبيل الطاغوت على الموت في سبيل الله. والقضية لا تتوقف عند الموت في سبيل الطاغوت وإنما تمتد إلى القتل باسمه وكما سنرى بعد قليل.

وإنه لمما يقع في مستقر العادة قتل الطاغوت لمن يكفر به، وعلى نحو ما فعل فرعون بالسحرة الذين آمنوا لموسى دون العودة إليه. كان فرعون في منتهى الصراحة في ادانته لسلوك السحرة الذين آمنوا بأن ما جاء به موسى فوق السحر، إذ قال مستنكرًا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: 49]! لقد كانت عقوبة السحرة الإعدام لأنهم آمنوا لموسى قبل أن يأذن لهم فرعون بذلك!

لا قيمة لقول فرعون أنا ربكم الأعلى إذا كان الاتّباع لموسى، ولا قيمة لألوهية فرعون إن كانت الطاعة لغيره. ولم يكن لويس الخامس عشر بعيدًا عن فرعون عندما قال: «**في شخصي فقط تكمن السيادة... ومني وحدي تستمد محاكمي وجودها وسلطتها... ولي وحدي تعود السلطة التشريعية**

بدون قيد... والنظام العام بأسره ينبثق مني...»! ويكفي لتبيان جدية هذه المزاعم أن القوانين الملكية كانت تذيل بعبارة «لأن هذه هي رغبتنا».

ولا غرابة في هذا السياق أن يسمى وكيل النيابة «وكيل الملك»، أو أن يجلس القاضي للقضاء باسم الملك، بل كانت الأحكام تصدر وتنفذ باسم الملك. وكانت «الصيغة التنفيذية» التي توضع على الأحكام تبدأ بعبارة «باسم الملك...»! هذا هو الطغيان الذي ثار عليه الفرنسيون ومارسوا في مواجهته ارهابًا دمويًا أصبح سنة فرنسية يتبعها العالم ويطبقها باسم إله جديد اسمه الثورة! هذا الإله يأذن بما لا يأذن به الله (سفك الدماء وسلب الأموال). ومما يغفل عنه الناس أن الطغيان لم ينته بالثورة الفرنسية ذات المبادئ الخداعة، لأن فرنسا التي تحولت جمهورية ديمقراطية في فرنسا ظلت طاغوتية في المستعمرات.

ثانياً ـ الحكم باسم الطاغوت:

كان القرن الثامن عشر من اللحظات التي اقتربت فيها أوربا من الإسلام الذي فقد بريقه في حينها.[1] ومازال الناس غافلين عن أن «الكفر بالطاغوت» هو الفكرة الثورية في الإسلام، وهذه الفكرة هي القوة التي اطاحت بطواغيت الجاهلية وامبراطوريتي فارس والروم في نفس الوقت. وفي غفلة عن هذه الحقيقة مازال الكثير من أبناء المسلمين يحتكمون إلى الطاغوت ويحكمون باسمه اتباعًا للفكر الفرنسي الذي كفر بطاغوت ليقيم آخر.

(1) في القرن الثالث عشر كانت أوربا قريبة جدًا من الإسلام، لكن ظهر رجل استطاع صد أوربا عن سبيل الله حتى القرن العشرين. هذا الرجل هو توما الأكويني (1224-1274) الذي أنشأ علم كلام كاثوليكي هدفه الصد عن سبيل الله (الإسلام).

في الحضارة (الإسلامية) البدء في كل أمر باسم الله والانتهاء في كل الأمور بحمده. وفي غير الحضارة الإسلامية تبدأ الأمور «باسم المسيح» أو «باسم الملك» أو «باسم الشعب» أو «باسم الأمة» أو «باسم الثورة». وفي مثلها يقول جل وعلا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم: 23]! حكم الطاغوت والحكم باسمه شيء واحد، والحكم باسم الطاغوت وعبادته شيء واحد. ويعطي حكم الطاغوت والتحكم باسمه نتيجة واحدة هي الطغيان!

وقد لا يخطر على بال القاضي وهو يحكم «باسم الشعب» أنه يحكم باسم الطاغوت. وعندما تجلس محكمة أمن الدولة لتحكم على أبناء الحركة الإسلامية بالإعدام لا يخطر على بال قضاتها أن الأمن الذي يجلسون للحكم باسمه وحمايةً له هو «أمن الطاغوت»! والقول الفصل في احكام أمن الدولة إنها ليست عنوانًا للحقيقة أو للعدل وإنما عنوانًا للظلم والتحكم باسم الطاغوت والحكم باسمه.

وتوصف هذه المحاكم وأحكامها بالمحاكمات السياسية، وهي في الواقع طغيانية طاغوتية، وتسمى سياسية للتخفيف من هول الصدمة التي قد تنبه الغافل إذا سميت باسمها القرآني. محكمة أمن الطاغوت هي المحكمة التي حكمت بأن يُحرق إبراهيم ﷺ حيًا، وهي التي حكمت بأن يلقى أصحاب الاخدود في النار، ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

في تلك الحقبة لم يكن اسم المحكمة «محكمة أمن الدولة» ولا «محكمة أمن الطاغوت» كما نسميها اليوم، ولكن هذا الاسم هو المناسب لها: («محكمة أمن الطاغوت»). عندما يكون الإسلام منهج تفكير تكون للمصطلحات القرآنية مضامين إسلامية تثري عالم الأفكار وتؤثر فيه. ولن يكون شيئًا من هذا واقعًا ملموسًا طالما ظل التحكم للطاغوت والحكم باسمه!

الحل يبدأ بحسم مسألة الألوهية بحيث لا تكون لغير الله. ولا تكون الألوهية كذلك إلا بعد الكفر بالطاغوت. وأي إصلاح قبل ذلك مجرد إعادة لخلط الأوراق وإضاعة للوقت وهدر للجهود والدماء. وقد يكون من المناسب هنا استدعاء قصة يوسف ﷺ عندما طلب منه رفاق السجن أن يفسر لهم حلمًا رأوه في السجن.

قبل الشروع في تفسير الحلم استهل يوسف الخطاب بموعظة قال فيها للمعنيين: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 39-40].

الأسماء التي ما انزل الله بها من سلطان طواغيت يتصرف الملحدون باسمها في مصائر الغافلين عن مضامينها الخطيرة! وقد تكون الأسماء التي تتحول إلى طواغيت أسماء أنبياء وأولياء. وفي هذا السياق لم يكن لتأليه عيسى من أثر سوى الحكم باسمه، أي الحكم باسم عيسى-الإله! وهذا النوع من أنظمة الحكم يسمى «ثيوقراطية» ومعناها الدقيق هو الحكم باسم الآلهة ومن بينها عيسى ضمن ثالث ثلاثة، الذي أعطى مفاتيح السماوات والأرض لبطرس، وقد ترك هذا الأخير ذات المفاتيح للبابا من بعده.[1]

وحيث صُدت أوربا عن الإسلام، لم تستطع التخلص من هذا النوع من الهراء إلا باختراع آلهة جديدة أطلقتُ عليها مسمى «آلهة الحداثة»، تميزًا لها

(1) البابوات الآن أربعة: أرثوذكسي وكاثوليكي وانغليكاني وقبطي، ولا أحد يعلم إلى من منهم انتهت حيازة المفاتيح.

عن الطواغيت القديمة التي قدمت فيما تقدم جردًا لها ووصفًا للظروف التاريخية والاجتماعية التي ظهرت فيها. وسيكون القسم الثاني من هذا الكتاب مخصصًا لهذه الطواغيت الجديدة، أو آلهة الحداثة التي تأخذ في الغالب طابعًا نظريًا ينتمي إلى عالم الأفكار المجردة، ويصعب ادراكه على من يكتفي بالنظر إلى سطح الأفكار والأحداث.

القسم الثاني

اَلهة الحداثة

الباب الأول

تعدد آلهة الحداثة

تمهيد

تحتل «الدولة»[1] بين آلهة الحداثة موقع هبل عند عرب الجاهلية الأولى، وموقع جوبيتر عند الرومان، وموقع أورانوس عند الإغريق، وموقع آمون عند المصريين القدماء. وليس لهذا الوصف الموجز لتاريخ تعدد الآلهة من هدف سوى تبيان أن الظاهرة عابرة للأجيال والحضارات، فما من حضارة من حضارات المشركين إلا ولها كبير للآلهة.

في هذا السياق فقط يمكن فهم قلق إبراهيم ﷺ وهو يبتهل إلى الله عند البيت: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: 35-36]. ولا يعكس الدعاء القلق فقط، بل يعكس إدراك إبراهيم ﷺ لما يقع في مستقر العادة من اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله، كما يعكس توقعه أن يحدث مثل ذلك من بعض أبنائه، ولذا تمنى على الله أن يشمل بالمغفرة والرحمة من لم يتبعه منهم.

أرجو أن يدرك القارئ أن هذا الكلام لكاتب من ملة إبراهيم: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 130-131]!

كما أرجو أن يدرك القارئ أن كاتب هذه الكلمات يعتقد أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] ينصرف إلى العبادة كما ينصرف إلى التفكير. هذه هي ملة إبراهيم.

(1) الدولة اسم علم مذكر في الفرنسية (L'Etat) واللغات اللاتينية الاخرى للاشتراك في الأصل.

وأنا لا أرجو بهذا غير تنبيه المسلمين إلى أن البعض من غير المسلمين أعمق فهمًا لظاهرة أصنام الحداثة من المسلمين، الذين يُفترض فيهم اجتناب الآلهة المتعددة في عالم الأفكار بقدر اجتنابهم لها في عالم الأحجار. وهذا يوصلني إلى الثورة باعتبارها الإله الثاني في آلهة الحداثة.

الثورة هي آلية تغيير الإله في عالم لا يرى غضاضة في الشرك، ويملأ فضاءه بآلهة لا حصر لها، وكما سنرى تفصيلاً بعد قليل! في هذا السياق سأشرح موقف هانز كلسن[1]، من قضية «القاعدة المفترضة» التي تعلو الدستور في نظريته الخالصة للقانون.

قد يبدو هذا الكلام غايةً في التعقيد بالنسبة لعامة الناس لكن قصدي لا يتجاوز جعله كتابًا مفتوحًا لمن أراد معرفة أثر الثورة في عالم القانون الوضعي حيث تتعدد الآلهة التي تأذن بما لم يأذن به الله (سفك الدماء وسلب الأموال ومصادرة الحريات). وسأشرح فيما بعد كيف تتدخل الثورة بوصفها الإله الذي يغيّر «القاعدة المفترضة»، التي يستمد منها الدستور نفاذه وصلاحيته.

وتعتمد الثورة على إرادة إله آخر اسمه «الشعب»! وفي هذا السياق لا بد أن القارئ قد صادف عبارة «أصبح الشعب إلهًا» في قول بعض الشعراء أو الأدباء والكتاب. أما عبارة «السيادة للشعب» فلها نفس مضمون ومفعول «أصبح الشعب إلهًا». وسنرى كيف كانت إرادة الشعب وإرادة الله شيئًا واحدًا عند جان جاك روسو الذي كان كتابه «العقد الاجتماعي» انجيل الثورة والثوار في فرنسا سنة 1789.

(1) هانز كلسن من أشهر منظري القانون الوضعي في القرن العشرين. وله كتاب بعنوان «النظرية الخالصة في القانون»

وقبل قرن من الثورة الفرنسية قامت ثورة إنجليزية (سنة 1688) وانتهت بالكشف عن خواء نظرية الحق الإلهي للملوك، وبطلان ذاك الحق بالتبعية لبطلان النظرية التي قام عليها. سميت تلك الثورة «الثورة المجيدة»، وكان من آثارها صدور «قائمة الحقوق»، التي أعلنت أن الشعب هو مصدر سلطات الملك. وبذا أصبح ملك الإنجليز مدينًا بملكه للشعب![1]

ومن بوسعه إلغاء حقًا إلهيًا (حق الملوك) لا بد أن يكون هو الآخر إلهًا يتصرف في مملكة الباطل حيث تتعدد الآلهة. وكانت الثورة هي الإله الذي حكم بنقل الألوهية للشعب بعد أن كانت لثالث ثلاثة، في أوربا المسيحية.

في هذا العالم؛ عالم البحر المتوسط وما حوله من أمم وحضارات، ما انفك الصراع يدور بين عالم تعدد الآلهة، والذين لا يجعلون مع الله إلهًا آخر. وقد ظل هذا الصراع يجري عبر حقب تمتد بين قدماء الفراعنة والفراعنة المعاصرين، غير أن الغافل لا يرى فيما يجري في أوقات متباعدة وحدة الظاهرة- ظاهرة الشرك وتعدد الآلهة.

وهذا القدر من الفهم يجعل الإنسان يدرك أن صراعات الأشخاص في عالم الأشياء (مثل الصراع على السلطة أو الثروة مثلاً) قليلة الأهمية مقارنة بالصراع الفكري في عالم العقائد، والحضارات المؤسسة عليها. وبمثل هذا الفهم ندرك حقيقة أن المسلمين جميعًا من أيام ابراهيم ﷺ وحتى يومنا هذا قد ظلوا في صراع مع المشركين ومحل اضطهادهم، لأن المسلمين لا يجعلون مع الله آلهة أخرى، الأمر الذي يجعلهم أعداء لرموز النظام القائم.

(1) هذه الاعتبارات جعلت السيادة في إنجلترا للبرلمان وليس للملك أو الدولة. ومعنى أن السيادة للبرلمان هو أن ما على من يريد تغير نظام الحكم في إنجلترا إلى جمهوري أو إسلامي إلا أن يعلن ذلك في برنامجه، ويحقق الفوز بما يتجاوز 50% من مقاعد صاحب السيادة (البرلمان).

في السياق السالف بيانه؛ لا يختلف فرعون وملك الإنجليز وملك الفرنسيين وملك المصريين عن جمال عبد الناصر لأن جميعهم من عالم تعدد الآلهة (عالم الأصنام والفراعنة)، وعدوهم الابدي هم الذين لا يجعلون مع الله إله آخر، سواء كانوا ذراري بني إسرائيل أو ذراري الإخوان المسلمين. فرعون استخف قومه فأطاعوه؛ في مصر القديمة ومصر المعاصرة. وما يجعل من فرعون فرعونًا هو خفة الشعب المهرج، الذي يجعل منه البعض إلهًا!

الشعب من جهة إله، ومن جهة أخرى يحكمه فرعون (الزعيم) الذي يظن أن بإمكانه أن يكون الرب الأعلى. والمشرك يعبد الحجر (الصنم) إن لم يعبد البشر (فرعون أو الزعيم)[1]. وعبادة البطل أو الزعيم من عبادات الحداثة التي هيمنت على أوربا بدايةً ثم انتقلت إلينا عبر التعليم، فلوثت عقيدتنا وكدرت معيشتنا.

(1) لتوماس كارلايل كتاب في البطولة، وعبادة البطل، والبطولي في التاريخ.

الفصل الأول
الدولة

ما انفك فلاسفة أوربا - على مدى القرون الأربعة الأخيرة - يؤكدون على ألوهية الدولة، وعلى الترتيب الزمني الآتي؛

- هوبس (1588-1678) أعلن أن الدولة هي الإله الذي يموت في ظل الإله الذي لا يموت،
- هيجل (1770-1831) أعلن أن الدولة هي العقل عندما يحقق ذاته كإرادة،
- نيتشه (1844-1900) أعلن أن الدولة هي الصنم الجديد،
- يونغ (1876-1961) أعلن أن الدولة قد أخذت مكان الله.

هذا في أوربا؛ أما في بلاد العرب (وبها 350 جامعة) فلم يتحرك قلم واحد لمعالجة الظاهرة: ظاهرة أصنام الحداثة التي تتميز بكونها نظرية. ولذا سأبدأ البحث في هذا السياق عند اللحظة الفاصلة بين الأصنام الحجرية والأصنام النظرية، لحظة توماس هوبس واضع نظرية الدولة-الإله (سنة 1651).

في هذه اللحظة لم تكن الآلهة الجديدة صنمًا حجريًا ولا فكرة مجردة، بل صورة! صورة رسمها فنان فرنسي[1] حسب تعليمات هوبس، لتكون منجزًا فنيًا وليست عملًا علميًا. ويستدعي الأمر نوع من التفكيك الذي يكشف أسرار النظرية، إن لم يكشف سر أسرار الحضارة الأوربية في مجملها. وسيكون الكشف عن سر الاسم (أولاً) ثم أسرار الصورة (ثانيًا) ثم سر الوظيفة أو الغاية (ثالثًا).

(1) ابراهام بوسيه Abraham Bosse رسام فرنسي (1604-1676).

أولا: سر الاسم في نظرية الدولة:

من خصائص أسرار الحضارة الغربية إمكانية الكشف عنها -أصولاً وفروعًا- بالنظر في تاريخ الأفكار. ومن الأسرار الأوربية سر اسمه «**ليفايثان**»، وهو الاسم الذي اختاره توماس هوبس عنوانًا لنظرية الدولة، التي عرفتها أوربا لأول مرة سنة 1651. وما أهتم له في جملة أسرار هذا الاسم ليس مصدره التاريخي في الفكر الأوربي، بل حضوره في الفكر الإسلامي القديم وما عرف في حينها بالإسرائيليات.

أ. تاريخية الاسم في الفكر الأوربي:

لا خلاف في أن التوراة هي المصدر التاريخي لمفردة «**ليفايثان**». وإذا كانت التوراة قد نزلت حوالي 1321 ق. م. على وجه التقريب، وأن كتاب هوبس قد ظهر سنة 1651، فإن تاريخ الاسم يكون قد عمر لقرابة الثلاثة (3) ألاف سنة، عبرَ خلالها أمم غابرة وحضارات بائدة وأخرى سائدة. وقد حل هذا الاسم بكتب التفسير والحديث التي سأعود إلى بعض منها بعد التوقف عند الجانب الأسطوري-التوراتي في الاسم.[1]

«**ليفايثان**» اسم لوحش بحري مذكور في سفر أيوب بين أسفار أخرى في التوراة. وبإمكان القارئ مراجعة التوراة بالخصوص لكنه لن يجد شيئًا ذي بال لأن الأساطير باطل وسخافات، وإن استطاع البشر البناء عليها بناء الضلالة والغرور.

(1) والقصد من كل هذا هو تنبيه أبناء الحركة الإسلامية إلى الخطأ الفادح الذي يرتكبونه بإهمالهم تاريخ الأفكار.

سر اختيار هوبس لاسم هذا الوحش هو التعبير عن ضخامته الأسطورية، وأن الدولة مثله لا يقف أمامها عاقل، لأن روحها المحركة هي «**القوة المطلقة الأبدية**»[1]! وبهذا المنطق، وفي هذا السياق، يعلن هوبس أن الدولة هي «**الإله الذي يموت في ظل الإله الذي لا يموت**»!

هذا الإله النظري (الدولة) يولد لحظة إبرام «العقد الاجتماعي» ويموت بالحرب الأهلية[2]. ومهمة هذا الإله المؤقت -عند هوبس- هي توفير الأمن، لكن الناظر من الخارج ولا سيما إن كان من الذين لا يجعلون مع الله إله آخر يرى غاية أخرى، لا يدركها إلا من أدرك حقائق الفكر الأوربي ظاهرًا وباطنًا.

من حقائق أوربا أنها موطن تعدد الآلهة التي كانت الكنيسة على رأسها حتى ظهور نظرية الدولة. وفي هذا السياق تتمحور غاية هوبس حول إيجاد مصدر بديل للمشروعية التي احتكرتها الكنيسة حتى تلك اللحظة. وقد كان نيتشه ثاقب النظر عندما رأى في نظرية الدولة صنم جديد ينتصب في الفضاء الأوربي.

خصص نيتشه في كتابه «هكذا تحدث زرادشت» فصلاً للدولة كان عنوانه «الصنم الجديد»، على اعتبار أن الكنيسة القائمة على ثالث ثلاثة هي الصنم القديم. فكل ما فعلته أوربا في حقبة «الحداثة» هو استبدال صنم جديد بصنم قديم، ومازال هذا العالم جبهة واحدة في الصد عن سبيل الله الذي بدايته لا إله إلا الله.

(1) و«القوة المطلقة الأبدية» هو تعريف «السيادة» عند واضع نظريتها في القرن السادس عشر جان بابتست بودان.

(2) الحرب الأهلية تفرق الشعب المتحد في الدولة، فتحيله إلى جملة أفراد متعارضي المصالح وكل يسعى من أجل البقاء على حساب الأخرين.

ب. أثر الاسم في الفكر الإسلامي:

في تفسيره «**الجامع لأحكام القرآن**»؛ ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]، عشر مسائل، جاء في السادسة منها ما نصه:

«وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها، فألقى في قلبه، فقال: هل تدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع، قال: فهم لوثيا بفعل ذلك فبعث الله دابة فدخلت في منخره، فعج إلى الله منها فخرجت. قال كعب: والذي نفسي بيده، إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت حيث كانت»![1]

لكن هذا ليس نهاية الأمر؛ لأن القرطبي عاد إلى ذات الموضوع بمصطلحات كثيرة، ومن نفس النوع، في تفسير «نون» من سورة «القلم»، حيث نرى من الإضافات ما يمّكننا من الربط بين «لوثيا» و«ليفايثان».

مفتتح السورة هو: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]؛ وفي تفسير نون يورد القرطبي عدة مصادر منها مجاهد الذي قال: نون الحوت الذي تحت الأرض السابعة... وقال الكلبي ومقاتل اسمه الهموت. وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا. وقال كعب: لوثوثا، وقال: بلهموثا .

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ص 257.

كثرة الأسماء السالف بيانها جعلت أحمد عبد العليم البردوني (مصحح «الجامع لأحكام القرآن») في حيرة من كيفية تصحيحها دون الوقوف على مصدرها، فكتب على هامش تفسير القرطبي لمفردة «نون» في الآية المذكورة ما نصه: «**اضطربت الأصول والمراجع التي بين أيدينا في هذه الأسماء**»!

في باب الأصول والمراجع؛ لم يستطع مصحح تفسير القرطبي تجاوز رواية شيخ البخاري (أبو نعيم)[1] الذي روى عن كعب الأحبار وكان هذا الأخير من يهود اليمن. دخل كعب الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب وانتقل إلى المدينة، ومنها إلى الشام ليعيش فيها بقية حياته هناك. كان المسلمون يسألون كعب عن كثير من الأمور باعتباره من أهل الكتاب، وكان كعب يحكي لهم أساطير التوراة على نحو ما رأينا.

نحن إذن إزاء الآلية التي تدفقت بها الإسرائيليات وما حوت من أساطير، إلى الحديث والتفسير اعتمادًا على روايات شفهية لبعض أهل الكتاب الذين خلطوا كلام الله بأساطير أمم وحضارات بائدة مثل البابلية والإغريقية.

ولم أقرأ لمن يقرن هذا السبب بأسباب أخرى لتخلف المسلمين سوى مالك بن نبي الذي توجه -في ثلاثينيات القرن العشرين- إلى لويس ماسينيون بسؤال نصه: «**سيادة الأستاذ: ألا تعتقدون أن تدهور العالم الإسلامي مرده، ضمن أسباب أخرى، إلى أن التفسير القرآني محشو بالخرافات الإغريقية والإسرائيليات؟**»[2]

(1) لأن ذلك يقتضي مراجعة التوراة ونقدها، وهو ما قام به ابن حزم، متقدمًا علينا ألف سنة.
(2) مالك بن نبي، العفن، ترجمة نور الدين خندودي، الجزائر، دار الأمة، 2007، ص 37.

وفي وصف ردة فعل ماسينيون يقول بن نبي: «**أتذكر أن وميضًا برق في عينيه ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع سؤالي، الذي لم أسع من جهتي لإعادته**»[1]. ولا يُستغرب من مخلوق مثل ماسينيون ألا يعين مسلم يفكر تفكيرًا سليمًا، ولا يستغرب من ماسينيون أن يحاول تحطيم مسلم من نوع بن نبي لأنه كفاءة قد تحقق استقلالاً حقيقيًا مؤسسًا على استقلال فكري للجزائر والأمة المسلمة.

دعى بن نبي إلى خوض حرب التحرير على جبهة الأفكار، غير أن دعوته ذهبت أدراج الرياح لأن حرب من هذا النوع لا يمكن خوضها بإيمان العجائز السائد الآن. حرب التحرير على جبهة الأفكار تعني القطيعة مع كل الآلهة النظرية التي تُقدم لها اليوم قرابين بشرية، مثلما كان الحال أيام كانت الإنسانية في أحط دركات الهمجية.

(1) نفس المرجع السابق.

ثانيًا: أسرار الصورة: (ليفايثان):

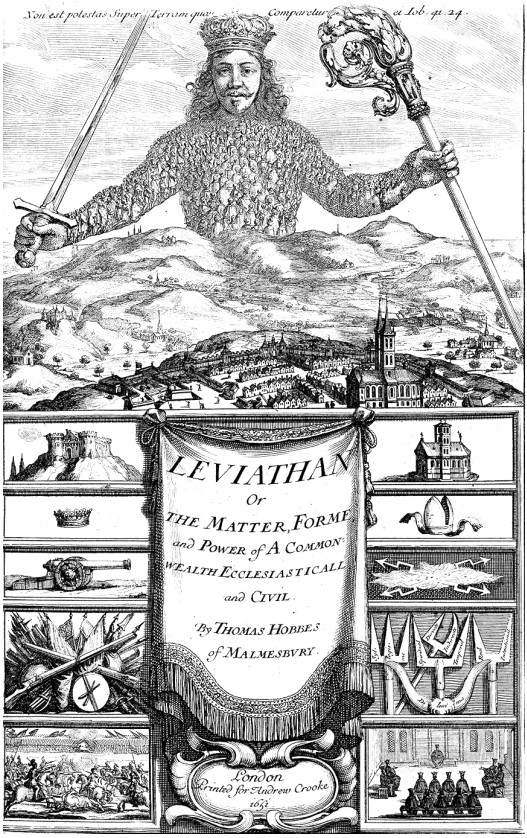

بطلب من توماس هوبس وحسب توجيهاته
رسم الفنان الفرنسي ابراهام بوسيه صورة الدولة L'Etat

تحمل الصورة رموزًا لنظرية الدولة في الحضارة الغربية. ومعرفة سر الرموز يجعل النظرية كتابًا مفتوحًا لتاريخ ممتد لألفين وخمسمائة سنة على الأقل. فك الرموز سيكشف سر الشكل والموضوع في لفايثان هوبس.

أ. سر الشكل:

تأخذ الصورة شكل إنسان اجتمع فيه كل أفراد الشعب! ويعود تصور هذا الشكل إلى الفلسفة الإغريقية وفكر بروتاغوراس تحديدًا[1]. إذ تقرر لدى هذا الفيلسوف أن «**الإنسان مقياس الأشياء جميعها**» أو مقياس جميع الأشياء، Man is the measure of all things. وهذا ما يجعل الآلهة تأخذ شكلاً بشريًا، في الحضارة الإغريقية وعند غيرها من الشعوب! هوبس لم يتجاوز فكرة بروتاغوراس، بل أعاد صياغتها لتكون أكثر شمولاً، وليؤكد بالمناسبة أن «**البشر يجعلون من أنفسهم المقياس لكل الأشياء الأخرى وليس لبقية البشر فقط**»!

Men measure, not only other men, but all other things, by themselves.

ومن الأشياء الأخرى الآلهة! ولذا لا يستغرب من هوبس أن يؤكد على أن الدولة هي الإله الذي يموت في ظل الإله الذي لا يموت The mortal god under the immortal god. ويلفت الانتباه في هذا السياق إن إله هوبس يشاطر الإنسان الشكل والموت.

ب. أسرار العنوان الفرعي:

وبعد بروتاغوراس يمتح هوبس من أفكار أرسطو ليستخدم العناصر المكونة للهوية عند ارسطو (المادة، والشكل، والصانع، والغاية) في صياغة العنوان الفرعي للكتاب وهو: «**مادة وشكل وسلطة الدولة كنسية ومدنية**»

(1) بروتاغوراس من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد (481-411).

الذي يشرح العنوان الرئيس وهو «**ليفايثان**». ولذا يبدو العنوان في الإنجليزية على النحو الآتي:

Leviathan,

Or Matter, Form and power of a commonwealth ecclesiastical and civil.

ظاهر في العنوان الإنجليزي أن بداية مصطلحي المادة Matter والشكل Form مميزان بحروف كبيرة للأهمية. فمادة هذا الإله الفاني هي الشعب الذي توحد في الدولة-الإله التي تأخذ شكل الإنسان. في هذه الحقبة بدأ «الجسد السياسي» يأخذ مكان المسيح-الإله، وجسده الروحاني وهو «الكنيسة» في الرؤية المسيحية. بعد ذلك وفي الحقبة العلمانية أخذ ذات الجسد السياسي صفة الدولة بوصفها إله علماني ضدًا على الكنيسة وهي دولة دينية!

تحول النصارى في أوربا من «الجسد الروحاني» للمسيح إلى «الجسد السياسي» للدولة استغرق ألف وخمسمائة سنة. وبذا يمكن أن نرى هيمنة فكرة وحدة الوجود على الفكر الأوربي في شقيه الديني والعلماني.[1]

ويؤيد هذه الرؤية قول وايتهد: «**كل الفلسفة الغربية هوامش على افلاطون**». وافلاطون هو أبو فكرة وحدة الوجود في أصلها العلماني. تأليه العقل إذن هو شيفرة فكرة وحدة الوجود، ووحدة الوجود هي المفتاح لفهم الفكر الغربي. هذه هي تركيبة الشيفرة Combination التي تجعل الحضارة الغربية كتابًا مفتوحًا أمام من ربط الفروع بالأصول في الفكر الغربي.

(1) تأليه «العقل» هو العمود الفقري لفكرة وحدة الوجود، التي تشكل «الجهاز الحركي» للفكر الغربي.

بكلمات أخرى: تحول أوربا من حضارة إغريقية-رومانية إلى حضارة يهودية-مسيحية لم يمس فكرة وحدة الوجود التي التقت بالتوراة قبل الميلاد والتقت بالإنجيل بعده[1]، لتجعل المسيح والمسيحيين جسدًا واحدًا في العصر القديم، ثم تجعل الملك والمملكة شيئًا واحدًا في العصر الوسيط، ثم تجعل الشعب والدولة شيئًا واحدًا، إلهًا واحدًا، في حقبة الحداثة. وما سيعيننا على استيعاب ما سلف هو تفكيك الرموز التي تملأ الصورة.

ج. أسرار الرموز:

في النصف العلوي من الصورة يظهر شخص مكون من مجموع أفراد الشعب، على رأسه التاج رمز الملك، وبيده اليمنى السيف رمز القوة، وبيده اليسرى الصولجان رمز السلطة. هذا الشخص يملأ الأفق ويهيمن على المدينة. وما يجعل هذا الشخص يتحرك، في نظرية هوبس، هو «القوة المطلقة الأبدية» التي تجعل منه الإله الثاني أو الإله الفاني إلى جانب الباقي. هذه القوة المطلقة الأبدية (= الألوهية) هي أساس شرعية الملك وقوة قبضته الحديدية التي تهدد من تسول له نفسه العبث بالسلم.

وفي النصف السفلي من الصورة هناك عمودان من الرموز واحد على اليمين والآخر على اليسار. على اليمين رموز «الكنيسة» وعلى اليسار رموز «الدولة»، وبينهما عنوان الكتاب على ما يشبه اللافتة أو الراية:

في قمة العمود الأول على اليمين صورة «الكنيسة» تقابلها صورة «القلعة» في قمة العمود على اليسار كذلك، والصورتان ترمزان إلى اتحاد الشعب في

(1) وفي الحضارة الإسلامية ظهرت الفكرة عند الحلاج والبسطامي وابن عربي.

الكنيسة قديمًا، واتحاده في الدولة ابتداءً من نظرية هوبس في منتصف القرن السابع عشر (1651).

قلنسوة البابا في الصورة على اليمين يقابلها تاج الملك في الصورة على اليسار. ولا ينبغي أن ننسى أننا نتحدث عن حقبة كان فيها جسد الملكة (=المملكة) والدولة شيء واحد، فالملك ما زال هو رأس الدولة في حينها، وسيظل الأمر كذلك حتى الثورة الفرنسية (1789).

تصور أن الشعب جسد واحد رأسه الملك حل محل الشعب جسد واحد رأسه المسيح. كان الجسد الواحد متحدًا دينيًا فأصبح بعد نظرية هوبس متحدًا علمانيًا. وسيأتي روسو لتعميق فكرة الشعب الإله، ثم يأتي هيجل للتأكيد على ألوهية العقل الذي يحقق ذاته كإرادة في شكل الدولة!

الرمز الثالث هو رمز الطرد من الكنيسة (Excommunication)، ويقابله على الجانب الأيسر «المدفع» المصوب نحو رمز الفصل من الكنيسة. فالطرد من الكنيسة منتهى قوة الكنيسة، وهذه القوة يقابلها المدفع وهو قوة مادية بيد الملك والحكومة المدنية.

الرمز الرابع للمنطق ويقابله السلاح. الرمز الخامس لمحكمة الكنيسة التي تقابل أرض المعركة على الجانب الأيسر.

ثالثًا: أسرار الوظيفة:

قد يكون من المناسب تذكير القارئ بدايةً بأن بحث نظرية الدولة يجري هنا في سياق ظاهرة تعدد الآلهة، وعبادات المشركين المتفرعة عنها. وهذا التقديم هدفه تبيان أن عدم الاهتمام بالدولة بما هي الحكومة، أو الإدارة،

أو التقسيم السياسي للعالم، غير ناتج عن غفلة، بل هو مقصود لتحرير «موضع النزاع» كما يقال.

الهدف إذن؛ هو الدولة بما هي مصدر لمشروعية ممارسات غير مشروعة في الإسلام، وهو ما يجعل الدولة من الآلهة التي تأذن بما لم يأذن به الله! والدولة من أقرب الآلهة لمن يرفض الاحتكام إلى كتاب الله وشريعته. وهذا هو الشرك الذي سأقف على تفاصيله فيما يخص المشروعية وتطبيق التشريعات في كل بلاد لوحدها، وعالميًا فيما يخص العلاقات بين الدول والحضارات، فعندما تأذن الدولة بما لم يأذن به الله تكون شريكًا لله في ملكه. وهذا ما لا يراه الغافل من المسلمين وغير المسلمين.

إذا نظرنا، من داخل العقل المسلم، إلى مفردات نظرية الدولة (كما جاءت في كتابات هوبس وروسو وهيجل) فسوف يتبين لنا أن المشركين يثبتون للدولة بعضًا مما يثبته المسلم الحقيقي لله: الوجود والإرادة والقدرة والسيادة/الألوهية! ربما لمثل هذه الأسباب خصص نيتشه في كتابه «هكذا تحدث زرادشت» فصلاً للدولة، بعنوان «الصنم الجديد»، باعتبار اختلاف هذا الصنم عن الأصنام القديمة التي كانت حجرية! هذا «الصنم الجديد» مصدر لمشروعية أعمال غير مشروعة في الإسلام، ومن بينها سفك الدماء وسلب الأموال وإشاعة المنكر.

أ. الدولة: مصدر المشروعية في الداخل:

تونس ورثت الدولة-الإله عن فرنسا، فسارت الأمور على نفس النسق: الدولة تحلل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله! والمثال الأبرز لتحليل المحرم هو الموقف من الدعارة! أما المثال الأبرز على تحريم ما أحل الله، أو ما اوجب الله،

وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتجده في موقف الدولة من الإسلام والإسلاميين.

1 ـ الموقف من الدعارة:

نظمت فرنسا الدعارة في تونس بتشريع خلال الحرب العالمية الثانية، وعندما خرجت فرنسا من تونس بعد الحرب تركت للدولة في تونس المستقلة مهمة الاعتناء بالدعارة. الدولة في تونس المستقلة لم تحرم الدعارة، بل نظمتها بمنح التراخيص لفتح بيوت الدعارة ونظمتها بالإشراف على ممارستها طبقًا للقانون، باعتبارها قطاع خدمي مثل سيارات الأجرة. ولم تمنع الدولة في تونس سوى الدعارة التي تتم بالمخالفة للقانون، كممارستها بدون ترخيص أو بالمخالفة للوائح، إذ وضعت عقوبات على تلك المخالفات.

الدولة إذن هي الإله الذي يأذن بما لم يأذن به الله (الدعارة)، ولا تعاقب من ارتكبها طبقًا للقانون، أو لا تعاقب عليها لأنها فاحشة ومقتًا، بل لممارستها بدون ترخيص إن حدث! ومن المحتمل أن تجبي الدولة ضرائب عن دخل المومسات لأنه نشاط مشروع، ومنظم لائحيًا على المستويين الصحي والمالي. عندما تكون الدولة إله مع الله تُلغى الشريعة، لأن الشريعة لا تطبق في بلاد فيها مع الله آلهة أخرى.

والدولة لا تشرّع المحرم وتحرم المشروع في تونس وحسب، وإنما في مصر كذلك، وهذا ما شهدت به اعتماد خورشيد بخصوص مدير مخابرات عبد الناصر الذي «**كان يبرر أفعاله بأن كل أجهزة العالم تستخدم الجنس في الأعمال القذرة، وتعتبره أمرًا مشروعًا.... وكان هدفه من استخدام... النسوة في أعماله القذرة كما يقول: تحقيق أمن الدولة.**» الفاحشة في دين الله مقت،

وعند مخابرات عبد الناصر من مقتضيات «**أمن الدولة**»، فهي إذن مباح لأن أحد سدنة الدولة قرر ذلك!

وفي الحقيقة لا وجود لشيء اسمه دولة في فرنسا أو تونس أو مصر. هناك أفراد اجتمعوا ليكونوا نظام يمارس الفسوق والعصيان باسم خرافة الدولة![1] الدولة هي اسم الطاغوت الذي يتحكم في فرنسا وتونس ومصر، حتى أن الدكتورة نوال السعداوي دعت الدولة في مصر لفتح بيوت الدعارة والإشراف عليها. الدولة مجرد وهم يبرر للغافلين والمغفلين تجاهل الشريعة والعيش على نقيضها أو ناقضها بحجة أنه صادر عن الدولة، فالدولة التي تحلل الدعارة وتستخدمها لحفظ أمنها، وتحرم على المسلمين تكوين حزب يقوم على نفي تعدد الآلهة وشعاره «لا إله إلا الله» هي الطاغوت الذي يظهر في أوضح صوره عند التعامل مع الذين يؤمنون بأن الإسلام نظام شامل يتجاوز الصلاة والصيام والحج إلى السياسة والحكم بما أنزل الله.

2 ـ الموقف من الإسلاميين:

أراد بورقيبة أن يختم حياته بتقديم بعض القرابين للدولة، على أن تكون من ذات القيمة البشرية، فاختار الشيخ راشد الغنوشي مع سبعين من حركة الاتجاه الإسلامي وقدمهم لمحكمة أمن الدولة (سنة 1987)، مع توصية بالحكم على الغنوشي بالإعدام.

لم تكن مجرد مصادفة أن المحكمة التي قُدمت لها الحركة كان اسمها «محكمة أمن الدولة»، أي محكمة «أمن الوهم» الذي باسمه يتحول هوى بورقيبة إلى قواعد إجرائية، وأحكام عقابية، تصدر بحق من يعترض طريقه،

(1) E. Cassirer, The Myth of the State, Yale University Press, 1946.

بعد أن تحول اسمه إلى «المجاهد الأكبر» كنوع من البهتان الذي يزدهر في ظل الأصنام والأنظمة القائمة عليها.

وعندما صدر الحكم بالسجن المؤبد على الشيخ راشد، أمر بورقيبة بإعادة محاكمته والحكم عليه بالإعدام، فمحكمة أمن الدولة من محاكم الأصنام التي قتل لأجلها أبو سفيان سبعين صحابيًا عند جبل أحد! محكمة أمن الدولة مجرد أداة تحول أهواء الطاغوت إلى أحكام قضائية بإعدام الذين لا يجعلون مع الله إله آخر! الله لا يأذن بسفك دماء الأبرياء ونهب أموالهم لأنهم من «حركة الاتجاه الإسلامي»، لكن الدولة تأذن: الدولة رمز الباطل أو اسم الطاغوت الذي يأذن بما لم يأذن به الله!

وتنقلب حياة المسلم رأسًا على عقب كلما تعددت الآلهة، فيصبح مجرمًا بعد أن كان مسلمًا، ويصبح دمه وعرضه وماله حلالا بعد أن كان حراما، وبدل الأمن يعش في رعب، لأن مقاليد الأمور لم تعد بيد الذين يعبدون الله وحده وإنما بيد الذين يعبدون أهواءهم، ويعدون شهادة أن لا إله إلا الله خروجًا على «النظام العام». نظام تعدد الآلهة!

وفي مثل هذا النظام تسمى حركة الاتجاه الإسلامي «حركة إرهابية»، ويمسي اسم جماعة الإخوان المسلمين في مصر «المحضورة»! فالإسلام عمل غير مشروع، والتنظيم الحزبي محظور على الإسلاميين، بينما الدعارة عمل مشروع وتصدر له تراخيص حكومية، ونوادي القمار تفتح طوال الليل بحراسة الشرطة، بينما تقفل المساجد بعد صلاة العشاء مباشرة. هذا هو الحال في الداخل عندما يكون مع الله إله آخر. ولا يختلف الحال كثيرًا عل

المستوى العالمي حيث ينظر إلى الإسلام والإرهاب على أنهما شيء واحد، وينظر إلى الإسلاميين على أنهم ارهابيين حتى بدون تعريف للإرهاب!

ب. مصدر المشروعية في العالم:

الدولة هي الإله الذي أذن للاستعمار بنهب أراضي ومقدرات الشعوب المستعمرة، وعلى نحو ما سنرى الآن. فعندما أدركت فرنسا (سنة 1962) أنها لا يمكن أن تكون الإله الذي يقرر مصير الجزائريين، صرح الجنرال ديغول بأنه بات من الضروري إجراء استفتاء على استقلال الجزائر.وكأن مليون من الشهداء ليس استفتاءً!

كانت لغة الجنرال معبرة عن التصور الأوربي للدولة والشعب كآلهة، وأن فرنسا وشعبها من بينهم، أما الجزائريون فلم يبلغوا هذا المستوى (الألوهية). في هذا السياق وبهذا الفهم قال الجنرال ديغول أنه يتوجه إلى الجزائريين بصفتهم أفرادًا وليس دولة، لغياب «الوحدة» و«السيادة» التي تنبثق عنها. والسيادة تساوي أو تقابل في التصور الأوربي الألوهية في التصور الإسلامي، لأن صاحب السيادة هو صاحب «القوة المطلقة والابدية».

وبذا يكون معنى السيادة الذي لم يفصح عنه ديغول هو أن شعبًا ما قد أصبح الإله في أرضه أو إلهًا في الأرض! ومعنى الاستفتاء في هذا السياق هو تمكين الشعب الجزائري من أن يكون الإله في الجزائر، وهو ما يصطدم بما جاء في إعلان فاتح نوفمبر من أن النية متجهة إلى بناء دولة جزائرية على المبادئ الإسلامية، غير أن الإسلاميين لم يكونوا في الموعد أو في مستوى الوعي الذي حلم به مالك بن نبي.

وبالعودة إلى الموضوع؛ لقد كان على الجزائريين تقديم مليون من الشهداء حتى تقتنع فرنسا بأنها ليست الإله الذي يقرر مصيرهم. وأمام هذا الواقع الجديد صرح ديغول تصريحًا من تصريحات الذين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، عندما قال مكرهًا غير مختار:

«لقد أصبح من الضروري اليوم الإعلان عن اللجوء لتقرير المصير. وسأطرح المسألة على الجزائريين بصفتهم أفرادًا، لأنه منذ أن أصبح العالم عالمًا لم توجد وحدة أو بالأحرى سيادة جزائرية! لقد اجتاح البلاد الرومان، والوندال، والبيزنطيون، وعرب سوريا، وعرب قرطبة، والأتراك، والفرنسيون، واحدًا بعد الآخر، دون أن تكون هناك في أي لحظة وبأي طريقة دولة جزائرية».

Je considère comme nécessaire que ce recours à l'autodétermination soit proclamé aujourd'hui. Je pauserai la question aux Algériens, en tant qu'ils sont des individus, car depuis que le Monde est le Monde il y'a jamais eu d'unité ni à plus forte raison de souveraineté algérien. Carthaginois, Romains, Vandales, Byzantins, Arabes de Syrie, Arabes de Cordoue, Turques, Français, ont tour à tour pénétré le pays, sans aucun moment et d'aucune façon, il y'ai eu un Etat Algérien [1]

(1) https://www.youtube.com/watch?v=nrBHSZkC4f4

الاستعمار يبدأ باحتلال أرض ليس بها شعب، أو بها شعب ليس بوسعه الدفاع عن نفسه، وبتمام الاحتلال يتم إلغاء وجود السكان قانونًا. وهذا هو ما صاغه اوبنهايم[1] في لغة قانونية عندما قرر أن: «**الاحتلال هو التصرف الذي تقصد بموجبه دولة بسط سيادتها على إقليم بعينه باعتباره لا يخضع لسيادة دولة أخرى... فقط مثل ذاك الإقليم يمكن أن يكون محلاً للاحتلال حالة كونه لا يخضع لسيادة أية دولة، إما لأنه غير مأهول بسكان، كجزيرة مثلاً، أو مأهول بسكانه الأصليين الذين ما كان لجماعتهم أن تُعتبر دولة**».

Occupation is the act of appropriation by a state which intentionally acquires sovereignty over such territory as is at the time not under the sovereignty of another state... Only such territory can be the object of occupation, as belongs to no state, whether entirely uninhabited, an island for example, or inhabited by natives whose community is not to be considered as a state.[2]

الفقرة السابقة تساوي بين الأرض غير المأهولة والأرض المأهولة بسكان لكنهم في نظر الاوربيين ليسوا دولة! وفي هذا مساواة بين السكان الأصليين والعدم، أو هو إلغاء قانوني للوجود البشري فوق الأرض التي تم احتلالها من قبل دولة اوربية قادرة على الغزو!

(1) اوبنهايم (1858-1919). من أشهر اساتذة القانون الدولي في حقبة التوسع الاستعماري.
(2) Oppenheim International Law, 9th edition, Volume 1 Peace: Occupation.

وهذا الموقف الذي عبر عنه ديغول سياسيًا، وأوبنهايم قانونيًا، يجد صداه في الثقافة الأوربية[1] وكتابات النقاد الغربيين فيما تعلق بأثر الغزو الاستعماري على الشعوب المستعمرة. وفي هذا السياق؛ صدّر إدوارد سعيد كتابه «الثقافة والإمبريالية» بالفقرة التي استشهد بها في كل كتبه، وهي من رواية «في قلب العتمة» لجوزيف كونراد[2]، وتقول الفقرة:

«غزو المعمورة، الذي يعني في الغالب انتزاعها من فُطس الأنوف أو الذين تختلف بشرتهم عن لون بشرتنا، ليس شيئًا جميلاً إذا أمعنت النظر فيه. ما يبرره هو الفكرة فقط. فكرة تشكل عموده الفقري، ليس ادعاءً عاطفيًا و إنما فكرة؛ و إيمان غير أناني بالفكرة. شيء يمكنك أن تنصبه، وتركع أمامه، وتقدم له أضحية».

«The conquest of the earth, which mostly means the taking it away from those who have a different complexion or slightly flatter noses than ourselves, is not a pretty thing when you look into it too much. What redeems it is the idea only. An idea at the back of it; not a sentimental pretense but an idea- something you can set up, and bow down before, and offer sacrifice to.»

تعبّر الفقرة عن الأزمة الأخلاقية للحضارة الاستعمارية! تلك الازمة المتمثلة في خليط من الرياء والمكر وطمس الحقائق، وتبرير العنف حد الإبادة الجماعية باسم «الحضارة»!

(1) E. Said, Culture and imperialism, New York, Vintage Books. 1993

(2) كونراد كاتب انجليزي من أصول بولندية (1857- 1924)

كيف يمكن أن يكون كل هذا ممكنًا؟

هذا مجرد مظهر واحد من مظاهر الإخفاق الأخلاقي للحضارة الأوربية-الغربية لمن أراد معرفته بدقة متناهية: السكان الذين ليسوا دولة هم والعدم سواء، ولذا يتم التعامل معهم مثل التعامل مع الفيلة وحمير الوحش والافاعي (محل استغلال) أو مثل القرود والفئران (محل تجارب).

وإذا أظهر الساكنة آدميتهم، في صورة من صور المقاومة، فيتم التعامل معهم مثل مصادر الإزعاج (البعوض والذباب). ولم تقتصر تلك المعاملة على مجاهل العالم الجديد حيث الهنود الحمر، وانما تم تطبيقها على شعوب تنتمي إلى الحضارة الإسلامية البائدة: الجزائر وليبيا وفلسطين. وفي هذا السياق؛ سياق إلغاء القيمة القانونية للشعوب المستعمرة، قال ديغول: «**منذ أن أصبح العالم عالمًا لم تكن الجزائر دولة**».

ديغول يقدم الجزائريين وحقوقهم قربانًا لفرنسا الآلهة، حتى أنه يقول إنها سر وجوده أو سبب وجوده Ma raison d'etre. فكرة الدولة عند الفرنسيين هي فكرة الحضارة متحولة صنمًا ينتصب (أو يتم نصبه حسب تعبير كونراد)، ليأذن لسدنته بإلغاء الشعوب المستعمَرة وكل قيمة أو إرادة لهذه الشعوب، حتى وهي في ارضها ولم تعتد على أحد!

وما يؤكد ما سلف هو قول أحد عديمي الضمير في بداية القرن العشرين «**فلسطين أرض بدون شعب لشعب بدون أرض**»! انعدام الضمير يمكن أن يكون صليبيًا ويمكن أن يكون صهيونيًا، ويمكن أن يكون من ملة أخرى، لكن عديمي الضمير كلهم في النهاية ملة واحدة، لأنهم يجعلون مع الله آلهة أخرى، تأذن لهم بما لم يأذن به الله!

هذه هي الأفكار التي تنصب أصنامًا يركع المستعمر أمامها ويقدم لها قرابين من أبناء الشعوب المستعمرة، حسب الوصف الذي ضمنه كونراد روايته «**في قلب العتمة**»! ومن المفارقات التي ترويها تلك الرواية ضياع أحد مبشر من الأوربيين في بعض غابات افريقيا، وعندما خرج الأوربيون في البحث عنه وجدوه عند قبيلة اتخذت منه إلهًا، ربما لأنه أول أبيض يروه في حياتهم. وقد قتل هذا الأبيض في المعركة بين الاوربيين الذين أرادوا إنقاذه والافارقة الذين اتخذوه إلهًا!

وتعكس قضية اللون (الأبيض) في هذه الرواية ما تعكس رواية الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال بخصوص اللون (الأسود) كذلك. حيث يستغرب البطل في رواية الطيب صالح كيف يكون اللون (الأسود هذه المرة) السبب في عبودية إنسان في افريقيا وتأليهه في اوربا!

الحضارة، والحرب العادلة، والدولة، والثورة، والشعب، والوطن، أفكار تبرر لأصحاب المصلحة ما يقومون به حتى إن كان مخالفًا لما أنزل الله، وتجعل ما هو غير مشروع في شريعة رب العالمين مشروع نسبة إلى الدولة أو إلى الشعب. وفيما تقدم رأينا كيف تحقق الدولة ذلك، وسنرى فيما يلي بقية الأفكار الأخرى.

الفصل الثاني
الثورة

تأخذ فكرة «الثورة» بين أصنام الحداثة موقع «العزى» بين أصنام الجاهلية الأولى، غير أن القرابين التي تقدم لـ«الثورة» ليست من الإبل والغنم، وإنما من البشر! ويسمى التبرير النظري لتقديم القرابين البشرية للثورة «الفقه الثوري»! والفقه الثوري لا يتعلق بثار.. يثور.. ثورة، وإنما بصنم جديد، وعبادة جديدة قرابينها البشر. وقد انتقل إلينا معظم الفقه الثوري من الثورة الفرنسية التي سأتوقف لبعض الوقت عند كونها ثورة في عالم تعدد الآلهة حيث اقتصر أثرها على استبدال إله بآخر.

المبحث الأول
الثورة الفرنسية ومعقباتها

جاءت الثورة الفرنسية بعد قرون طويلة من الطغيان الذي تميزت به الملكية في فرنسا، وكانت الكنيسة هي مصدر مشروعية هذا الطغيان، أو «الطاغوت» بمصطلح قرآني. فالطغيان أو الطاغوت إذن؛ هو ما كفر به الفرنسيون عندما قاموا بالثورة، لكنهم لم يؤمنوا بمحمد وما أنزل على محمد ﷺ، لذا لم ينتج عن كفرهم بالطاغوت القديم سوى طواغيت جديدة ملأت فضاء الحداثة!

أرجو أن يتذكر القارئ، إذا كان من المسلمين أن «الطاغوت» مصطلح يطلق على كل ما عُبد من دون الله؛ والعبادة التي تعنينا هنا هي تقديم قرابين بشرية، وليست أي شعيرة أخرى! في هذا السياق أمست «الثورة» مصدرًا لمشروعية جديدة تجعل هوى الثوار قانونًا ساريًا وحكمًا نافذًا، من لحظة إصداره بـ«اسم الثورة»، الذي يوازي «باسم الله» عند المسلمين. في هذا السياق الفرنسي وضع أحد المحامين[1] تعريفًا للقانون الثوري فقال:

«القانون الثوري هو قانون هدفه الحفاظ على هذه الثورة، والإسراع بها أو ضبط مسيرتها».[2]

(1). وهو كونديك دي كوندرسيه ((1794 –1743 محامي ومن قادة الثورة الفرنسية.
(2) أصل العبارة انجليزية وقد أوردتها حنة آرند في كتابها «في الثورة» كما في الهامش التالي.

«La loi révolutionnaire est une loi qui a pour objet de maintenir cette révolution, et d'en accélérer ou régler la marche.»[1]

كان صاحب فكرة «الشرعية الثورية» (كوندرسيه(من القرابين التي قدمت لاحقًا للثورة! إذ صُنف من ضمن أعداء الثورة وأودع السجن، حتى مات مع من مات من القرابين البشرية التي قدمت للمقصلة باعتبارها مذبح الصنم/الإله الجديد (الثورة) في تلك اللحظة!

ومن بعد سارت على النهج الدموي للثورة الفرنسية ثورات أخرى من بينها الثورة الشيوعية في روسيا، ولاسيما أيام ستالين، وفي كمبوديا أيام بول بوت والخمير الحمر. وهكذا؛ وسيرًا على سنة فرنسا، قُدمت قرابين بشرية بالملايين لصنم نحتته فرنسا وأهدته للعالم كمصدر لمشروعية تلغي كل مصادر المشروعية الأخرى، سماوية كانت أو أرضية!

هذه كلها معلومات عامة الآن؛ أما ما يظل غائبًا عن الدرس، والنقد، فهو أعداد ونوع القرابين التي قدمت لـ«الثورة» عندما انتقلت الفكرة إلى جنوب المتوسط، مبتدئة بمصر في منتصف القرن الماضي، حيث انقلب الجيش على الملك فاروق سنة 1952.

(1) H. Arendt, On Revolution, London, Penguin Books, 1990.

المبحث الثاني
الثورة جنوب المتوسط

في البداية أعطى الانقلاب صفة «حركة الجيش المباركة»، ومن بعد تدخل القانونيون، الذين تكونوا على المذهب الفرنسي، وأعطوا الحركة وصف «ثورة يوليو» كنوع من التدليس الذي يعطي الانقلاب طابعًا لاهوتيًا. وكان من الطبيعي، إن لم يكن من الحتمي في هذا السياق، أن تصطدم هذه الحركة، أو هذه الثورة، بالذين لا يجعلون مع الله إله آخر: جماعة الإخوان المسلمين!

ظاهر الصراع كان على السلطة، لكن حقيقته كانت على من هو أحق بالعبادة: الله أم الثورة؟! وعلى الجانب التشريعي يمكن ترجمة هذا السؤال إلى الصيغة التالية: أيهما أولى بالاتباع شريعة رب العالمين أم هوى ضباط الجيش (الثوار)؟ سنرى بعد قليل الأثر العملي لتحكيم هوى ضباط الجيش في مصر، لكن قبل ذلك لابد من عرض رأي مؤسس جماعة الإخوان المسلمين[1]، في موضوع الثورة.

رأي البنا في «الثورة» موّثق في رسالة المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين (سنة 1938) الذي قال فيه: «**وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولوا الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدي ذلك حتما إلى**

(1) الشيخ حسن البنا (1906-1949)

ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضي الأيام إلا نذيرًا من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال».

كانت هذه الكلمة نصيحة لنظام تجاوز فساده كل إمكانيات الإصلاح، وكان من الحتمي أن يتم اقتلاعه، وهو ما حصل بعد 14 سنة من ذاك التنبيه. وكانت هذه النصيحة درس من الدروس السياسية التي لا تُعطى لأبناء المسلمين الذين يتلقون تعليمهم في اوكسفورد أو السوربون. ذهب درس البنا (أو نصيحته) أدراج الرياح، وعاشت الأمة من هوجة إلى ثورة، ومن ثورة إلى نكبة، لأن الثورة لم تبنَ على منهج نقدي، ولم تكن مشروعًا ينفذ، وإنما كانت صنمًا ينصب ليعبد، بتقديم قرابين بشرية، وعلى النحو الذي وصفه الشيخ محمد الغزالي في كتابه «قذائف الحق»!

نشر الشيخ محمد الغزالي[1] (في الصفحة 83 من الكتاب) «**تقرير اللجنة المؤلفة برئاسة زكريا محي الدين [رئيس الوزراء في حينه -1965 1967]، بشأن القضاء على تفكير الإخوان بناء على أوامر السيد الرئيس..**»! وما يستحق التوقف عنده ليس ما فكرت فيه اللجنة بخصوص الإخوان، وإنما ما فكرت فيه بخصوص المتدينين من غير الإخوان، الذين يقول التقرير في شأنهم ما نصه: «**بعد دراسة عميقة لموضوع المتدينين من غير الإخوان، وهم الذين يمثلون الاحتياطي لهم، وجد أن هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين في المدى الطويل، ووجد من الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم**

(1) الشيخ محمد الغزالي، قذائف الحق، ص 85

بمعاملة الإخوان قبل أن يفاجئونا باتحادهم علينا. ومع افتراض احتمال كبيرلوجود أبرياء منهم إلا أن التضحية بهم خيرمن التضحية بالثورة...»![1]

بعد إبادة الإخوان لم يعد بالإمكان تقديم قرابين بشرية، فمن أين يأتي سدنة الثورة بالقرابين؟! لم يبق إلا المتدينين من غير الإخوان، فهم والإخوان ملة واحدة متوحدة على عبادة الله، ولذا يجب تقديمهم جميعًا قربانًا للثورة! وفي هذا الصدد يقول التقرير: «**ولاستحالة التمييز بين الإخوان والمتدينين بوجه عام فلابد من وضع الجميع ضمن فئة واحدة...**».

لم تكن لجنة زكريا محي الدين في شك من أن بين المتدينين من هو بريء من تهمة الانتماء للإخوان المسلمين، لكن البريء من كل عيب هو أفضل ما يتقرب به لـ«العزى» إذا كان من الإبل، ولـ«الثورة» إذا كان من البشر! فالثورة هي الصنم الذي لا يدنس مذبحه بدم المجرمين، لأنهم سدنته، أما شرفاء المسلمين من الإخوان وغير الإخوان فهم أفضل قربان يقدم له، فالمؤمنون أخوة بنص القرآن الكريم ولذا كانوا الفئة المناسبة لمذبح/سلخانة الثورة، بغض النظر عن انتمائهم لجماعة الإخوان من عدمه!

أعلم أن هناك من سينقل عن الفقه الغربي، والفرنسي تحديدًا، مقولة «النظام يدافع عن نفسه»...! وهل فعلت الجاهلية الأولى أكثر من ذلك...؟! قدم السيد الرئيس (عبد الناصر) إبان حكمه، الذي امتد 18 سنة، ستة قرابين من خيرة البشر (المجاهدين الذين قاتلوا في فلسطين وعلى القناة) وعلى رأسهم عبد القادر عودة سنة 1954، ثم قدم سيد قطب واثنين من خيرة الدعاة قرابين لطغيانه المتعاظم سنة 1966!

(1) راجع نص التقرير كاملاً في الملحق الأول في آخر هذا الكتاب (ص ...)

وبعدها كان الدور سيأتي على المتدينين من غير الإخوان لكن كانت الهزيمة أقرب (في 1967)، وكان قدر الله أغلب! وفي عماء مطلق عن دروس التاريخ، لازال الغافلون من أبناء المسلمين أداة العدو المفضلة لاستئصال الإخوان! ولازال المغفلون ينفذون مخططات العدو وهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعًا!

بين القرن العشرين والجاهلية الأولى سارت الأمور إلى الوراء بسرعة الضوء، فالوليد بن المغيرة قدم خيرة الإبل والغنم لـ«العزى»، أما السيد الرئيس (عبد الناصر) وتلاميذه من بعده (و أشهرهم القذافي) فقد قدموا خيرة البشر لصنم لا يُرى إلا في عالم الأفكار و اسمه «الثورة»! كان القذافي يحاكي منطق كوندرسيه (في 1/ 1985/9) عندما قال عن اللجان الثورية: «**هذه اللجان تتمتع بشرعية ثورية خاصة بها، فقانونها هو القانون الثوري الذي لا يقر إلا لغة الثورة**».

وعبادةً لهذا الصنم كوّن القذافي محاكم ثورية مهمتها تقديم قرابين بشرية من الليبيين لهذا الإله الذي ظل الطاغية وحزبه عاكفون عليه عكوف بني إسرائيل على عجل السامري قبل أن يرجع إليهم موسى.

وقد رأى القاصي والداني كيف قدم القذافي لهذا الصنم (عبر محاكم ثورية) قرابينه البشرية على مائدة الإفطار، في شهر رمضان، دون خجل أو وجل! وهكذا كانت قرابين القرن العشرين بشرية، بينما كانت قرابين الجاهلية الأولى من الأنعام: فأي الجاهليتين، بالله، أسوء؟!

الفصل الثالث
الوطن

أم الآلهة في الأساطير الإغريقية أسمها غايا Gaia))[1] أما أم آلهة الحداثة فاسمها الثورة الفرنسية! لنتذكر فقط أن وظيفة الصنم هي الإذن بما لم يأذن به الله (سفك الدماء، وسلب الأموال، وقطع الأرحام)، غير أن الصنم لا ينطق، ولا يأمر ولا ينهى، وإنما يرمز! الصنم رمز لهوى أصحابه (المشركين) الذين يحكمون ويتحكمون باسمه، فيحلون ويحرمون ويعطون ويمنعون، على هواهم، ودائمًا باسم الصنم أو دفاعًا عنه! في هذا السياق ولد للثورة الفرنسية صنم اسمه «الوطن»، وكان لويس السادس عشر (ملك فرنسا) أول قربان يقدم له!

ولما كان تقديم القرابين من العبادات، يستحق الأمر تفصيلا تاريخيًا موجزًا للظروف التي شُرعت فيها العبادة الجديدة، وكيف تم تقديم الملك قربانًا للصنم الجديد. عندما اندلعت الثورة الفرنسية لم يكن للثوار من هدف سوى تحويل الحكم الملكي المطلق إلى ملكية دستورية، لكن ثلاث سنوات من المحاولات لم تفضِ إلى شيء، بل سارت الأمور إلى الأسوء عندما تحالفت الملكيات الأوربية لإعادة النظام القديم. ولا شيء يجعل ذلك ممكنا مثل بقاء الملك حيًا كرمز لذاك النظام!

ومن ثمّ وقف عضو الجمعية الوطنية روبيسبيير (محامي) ليقول: «**الملك إما أن يحكم أو يموت**» بالرغم من أن دستور 1791 يقرر أن شخص الملك

(1). لوك فيري وكلود كبلاي، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود بن جماعة، بيروت، دار التنوير، 2015، ص 81.

مقدس ولا يُمس! وقد أسس روبيسبيير موقفه على موقف سان جوست الذي دعى لقتل الملك قائلاً: «**يجب أن يموت لويس ليحيا الوطن**»!

Louis doit mourir pour que la patrie vive!

بعد تنصيب الوطن صنمًا أصبح الدستور تحت أقدام الصنم الذي قُدم له قربان بدرجة ملك. وأصبح من الطبيعي أن تكون الوطنية هي دين هذا الصنم الجديد: تغيير الإله يقود إلى تغيير الدين. وهكذا دُشن الصنم الجديد بتقديم قربان بشري في شخص الملك الذي ذهب مُلكه أدراج الرياح، تاركًا وراءه صنم اسمه «الوطن»، ودين جديد اسمه «الوطنية»! في هذا الدين يلهج الجميع بذكر الوطن، ويموت المواطنون ليس في سبيل الله، بل في سبيل الوطن! ـ الوطن صنم آخر من «أصنام المسرح»!

كانت محاكمة لويس السادس عشر أول «محاكمة سياسية» جديرة بهذا الاسم، لأن روبيسبيير[1] صرح بأن مهمة المحاكمة ليست قضائية (غايتها العدل) وإنما سياسية (هدفها قتل الملك)! وهذه أوضح صورة للمكيافللية؛ فعندما يقرر سياسي إعدام غريمه يقدمه لمحكمة تأتمر بأمره، مع توصية بالحكم عليه بالإعدام. والتاريخ مليء بالغايات السياسية التي تم تغطيتها بوسائل قضائية تبرر تقديم الخصوم السياسيين إلى المقصلة، أو حبل المشنقة، باسم الدولة أو الثورة أو الوطن، أو أي صنم آخر يبرر حكم الطاغوت طبقًا لقاعدة «الغاية تبرر الوسيلة»!

(1) محامي فرنسي ومن قادة الثورة الراديكاليين (اليعاقبة).

لابد أن يكون الإنسان بمستوى عقل الإنجليزي صامويل جونسون -على الأقل- ليكتشف زيف المصطلحات الفرنسية. يقول جونسون: «**الوطنية هي آخر ملجأ للمحتال**»

Patriotism is the last refuge of the scoundrel.

كانت عبارة صامويل جونسون هذه متقدمة على الثورة الفرنسية بأربعة عشرة سنة (1775)! وربما لمثل هذا السبب (قوة التحصين النظري) لم تنتقل العدوى الفرنسية إلى الجارة البريطانية التي عرفت كيف تحافظ على هويتها، ولم تتحول إلى مسخ، بفعل الأفكار الفرنسية، شأن من تنازل عن هويته الأصيلة مستبدلاً الذي أدنى بالذي هو خير!

وقبل النظر إلى انتقال الصنم إلى الجنوب كمصدر للمشروعية، لنراه وهو يبرر العلاقة الوثيقة بين الثروة والثورة في فرنسا، حيث يقول أحد الثوريين: «**في النظام القديم أثرى الأرستقراطيون، وبالثورة يثري الوطنيون؛ عدالة.. وليس في الأمر شيء أكثر من ذلك**»! هذه ترجمة فرنسية عملية للوطنية كملجأ للمحتال. وكثيرًا ما تكون «الوطنية» و«عبادة الوطن» مجرد غطاء للجرائم ومنها نهب المال العام.

وعندما أصبح الوطن صنم القبيلة العربية تبارى شعراؤها في وصفه كمصدر لمأساة الجاهلية الثانية:

يقول نزار قباني: «**أتجول في الوطن العربي وليس معي إلا دفتر.. يرسلني المخفر للمخفر.. ويرسلني العسكر للعسكر**».

أما أحمد مطر فيقول: «**الإعدام أخف عقاب يلقاه الفرد العربي.. أهناك أقسى من هذا؟ ـ طبعًا فالأقسى أن يعيش في الوطن العربي**».

والكلمة الأخير بالخصوص لجلال عامر: «**الوطن هو المكان المقدس بالنصوص والمكدس باللصوص**».

صنم الجاهلية حجر وصنم الحداثة سجن، والمسلمون سجناء ثمانية وخمسين سجنًا ضيقًا، اسم كل منها «الوطن»! ولما كان الصنم لا وظيفة له سوى الإذن لأصحاب الأهواء بما لم يأذن به الله، لابد أن أمر على رأي المواطنة/الوطنية نوال السعداوي التي أعلنت عن موقفها من الحرية والتحرير على النحو التالي: «**أنا لا أفصل بين تحرير المرأة وتحرير الوطن**»!

وهل هناك ما هو أروع من تحرير الوطن والمرأة في مرة واحدة!... لكن كيف؟

الإجابة: «**بفتح بيوت الدعارة...**»!

أي ورب الكعبة؛ فتح بيوت الدعارة في مصر، لترفرف عليها الرايات الحمراء كما كانت ترفرف على مثيلاتها أيام الجاهلية الأولى! ولم يكن هذا الحديث سرًا في جلسة خاصة، وإنما علنًا وفي محاضرة عامة (منشورة على اليوتيوب). ولما كان الوطن والدولة وجهان لذات الصنم فقد رأت الدكتورة نوال أن تكون بيوت الدعارة تحت رعاية «الدولة».

هذا هو الوطن-الصنم، وهذه هي الوطنية كسبيل لتحرير المرأة: أن تصبح «الفاحشة» و«المقت» و«سوء السبيل» هي الحل! حل فاسد لا شك، لكن لما كانت الدولة هي راعية الفساد، إن لم تكن الفساد بعينه، فلا غرابة أن يطلب مفكروها (رموز الحداثة العربية) تقنين الدعارة، لتكتمل هيمنة الفساد!

عندما أسمع من يتحدث عن: «قضية وطن» أو «معركة وطن»، أقول في نفسي لو دخل هذا المخلوق عالم الأفكار بوعي لاستحى مما يقول، لأنه في الواقع يتحدث عن «قضية صنم»، أو «معركة صنم»! أما إذا قال: «فلان خان الوطن»، فالمعنى أن لديه رغبة حقيقية في تصفيته جسديًا!

هذا هو حال أجيال أقبلت على التعليم فلم يتحقق لها سوى التجهيل. التجهيل الممنهج هو الذي يجعل الجيل الحالي يرفع راية الوطن والوطنية والمواطنة بذات الغفلة التي حمل بها الجيل السابق لافتة «حرية اشتراكية وحدة»! وهذه الثلاثية هي النسخة العربية المعدلة من «حرية مساواة إخاء» الفرنسية.

وهذه الثلاثية الأخيرة هي الشعار العلماني الذي جاءت به الثورة الفرنسية بديلاً عن «الأب والابن والروح القدس». كلها تطورات في عالم تعدد الآلهة، عالم «ثالث ثلاثة»، المتناقض جذرياً مع «لا إله إلا الله»! لأن مقتضى «لا إله إلا الله» هو: لا فرعون، لا صنم، لا وثن، ولا مصدر للمشروعية إلا كتاب الله ـ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

كان أوائل المشركين يدركون خطورة لا إله إلا الله على أصنامهم – رمز مصالحهم- التي كانت مرئية وتملأ المكان، ولا فعالية لـ«لا إله إلا الله» إلا بعد زوالها، أما أصنام الحداثة فهي غير مرئية، ولذا تردد «لا إله إلا الله» دون أن تؤثر فيها، لأن من يقول لا إله إلا الله لا زال بعيدًا عن عالم الأفكار الأوربية، وما فيه من أصنام وأوثان تأذن لكل من اتبع هواه بما لا يأذن به الله:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]؟

الفصل الرابع
الشعب

«**يا أخي قد أصبح الشعب إلهًا**»! هذا هو الشطر الأخير في البيت الأخير من قصيدة ضمها ديوان محمد الفيتوري «أغاني أفريقيا». وشطر البيت هذا هو عنوان القصيدة (أو «بيت القصيد» كما يقال). وما سأقوم به الآن هو الربط بين هذه العبارة وبين الثورة الفرنسية، مبتدأ بشهادة حنة آرند في الموضوع.

تقول آرند: «**نظريًا كان تأليه الشعب في الثورة الفرنسية النتيجة التي لا يمكن تحاشيها بسبب الحرص على جعل السلطة والقانون يصدران عن مصدر واحد-وحيد**». (كتابها: "في الثورة").

«**Theoretically, the deification of the people in the French revolution was the inevitable consequence of the attempt to derive both law and power from the self-same source**».[1]

ولكي نفهم ما سبق في سياقه الأوربي لابد أن نكون بعمق حنة آرند التي ربطت بين الألوهية ومسألة التشريع. فالشعب الإله له إرادة نظرية اسمها «الإرادة العامة»؛ وفي تعبير حنة آرند «**الإرادة العامة عند روسو أو روبيسبيير تبقى دائمًا الإرادة الإلهية التي كل ما تحتاجه لأن تنتج قانونًا هو أن تريده**».

The «general will» of Rousseau or Robespierre is still this divine Will which needs only to will in order to produce a law.

(1). **H. Arendt, On Revolution, Penguin Books, 1990, p.183**

في السياق الأوربي إرادة الشعب هي الإرادة الإلهية، أو إرادة الشعب وإرادة الله شيء واحد. والإرادة العامة ليست إرادة الأغلبية، وإنما إرادة الشعب كله، وهي خرافة نظرية، يساوي فيها روسو بين «الإرادة العامة» و«الإرادة الإلهية»، بتنزيهه الإرادة العامة عن الخطأ infallible. أي لا فرق بينها وبين إرادة الله! وهكذا يجعل روسو لله ندًا اسمه «الشعب»! وقد صيغت هذه العقيدة في المادة السادسة، من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن التي تقول: «القانون تعبير الإرادة العامة»

La loi est l'expression de la volonté générale...

يكفي الشعب/الإله أن «يريد»، أي أن تنصرف إرادته لإحداث أثر معين، لتتحول هذه «الإرادة» إلى قانون! وهذا النوع من زخرف القول قائم على فرضية باطلة، وهي أن الشعب شخص واحد له إرادة واحدة.[1] وهذا لغو ظاهر بطلانه، لكن هكذا نظرت حنة أرند إلى الأمور في سياقها الأوربي. لكل ما سبق نحن في حاجة لتجاوز هذه اليهودية وما فكرت فيه كي نبقى مسلمين.

نحن في حاجة إلى سياق إسلامي ينفي الألوهية عن الشعب وغير الشعب ويثبتها لله وحده. والسياق الإسلامي الذي أتحدث عنه يبدأ من حيث انتهى ابن رشد، لأن الموضوع يتعلق في جزء منه بإسهامات الحضارة الإسلامية في إرساء أسس الحضارة الأوربية الحديثة، التي بقت فضاءً لتعدد الآلهة، لأنها رحبت بالإسهامات الإسلامية، ولم ترحب بالإسلام، لأن الإسلام يفضي حتمًا إلى نفي «ثالث ثلاثة»، وهو ما استطاعت الكنيسة تحاشيه حتى الآن![2]

(1). وحدة الشعب هذه أثر من آثار وحدة الوجود في الفكر الأوربي.
(2) . الكنيسة هي المؤسسة التي غربلت منجز الحضارة الإسلامية لتستبعد التوحيد.

مرة أخرى؛ لكي نفهم ما سلف كقضية فكرية/أيديولوجية لابد من: 1) أن تكون أداتنا نظرية «الأسباب الأربعة» لأرسطو، الذي كان ابن رشد أحد شراحه في الأندلس، لأن فكرة «سيادة الشعب» التي مضمونها «ألوهية الشعب»، على النحو الذي بينته آرند، قد ولدت على يد أحد الرشديين في جامعة بادوا سنة 1324، واسمه مارسيليوس دو بادوا، الذي اشتهر بكتابه «المدافع عن السلم». 2) لابد، على سبيل الاحتياط، من التأكيد على أن ابن رشد كان المدرسة التي علّمت أوربا العقلانية من جديد، إذ كان ابن رشد مسلماً موحدًا، لكن الكنيسة غربلت فلسفته لتستخلص منها «أرسطو» وتنبذ «التوحيد». وهذا هو دور الكنيسة التاريخي: «الصد عن سبيل الله»، لأن سبيل الله يبدأ بتوحيده، بينما تصر الكنيسة على أنه «ثالث ثلاثة»! 3) لابد، من جهة أخرى التذكير بقوله تعالى فيما يخص أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: 31]، وهو ما سأعود إليه بعد الفراغ من ارسطو وأسبابه الأربعة كأداة لشرح ألوهية الشعب: (الشعب كمصدر للسلطة والقانون معًا)!

يرى أرسطو أن ماهية الشيء تتحدد بأربعة عناصر، وفي الدوائر الفلسفية تسمى هذه العناصر الأربعة «الأسباب الأربعة» لأرسطو؛ وهي: المادة (أو السبب المادي) والشكل (ويسميه فلاسفة المسلمين «الصورة») والصانع (عند المسلمين السبب الفعال وعند الأوربيين - **The efficient cause**) والغاية (وهي الغرض الذي صنع لأجله الشيء). إذا طبقنا هذه الأسباب على فكرة الشعب كمصدر للسلطة والقانون (أو كمصدر للمشروعية) كما ولدت في نظرية مارسيليوس دو بادوا، في القرن الرابع عشر، وتحققت بالثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر فإن ماهية القانون ستظهر على النحو التالي:

- المادة: مفردات لغوية؛
- الصورة: تشريع/قانون،
- السبب الفعال: الشعب؛
- الغاية: تنظيم المدينة/الدولة/النشاط البشري.

◈ الفكرة المكونة لهذه التقسيمات، التي قد لا يعيرها الإنسان المعاصر أي اهتمام، أدخلت الرعب إلى الكنيسة التي اهتزت للفكرة بعنف، فقررت منع الكتاب من التداول، ليفر مؤلفه إلى ألمانيا طلبًا للحماية عند أمير بافاريا بصفته الإمبراطور الروماني (هنري الرابع)[1].

كان البابا في التصور الأوربي حينها في مركز الرب الأعلى على وجه الأرض لكن مقترح مارسيليوس هدد بقلب النظام الذي سارت عليه أوربا حتى ذلك الحين رأسًا على عقب. ولشرح هذه القضية لابد من الإشارة إلى أن النظام الأوربي نظام رأسي سواء على مستوى الأرباب/الآلهة أو على مستوى الطبقات، فقبل مارسيليوس كان البابا في مركز الرب الأعلى يليه الإمبراطور ثم الشعب المقسم هو الآخر إلى طبقات، لكن مقترح مارسيليوس يضع الشعب فوق الإمبراطور فيصبح الشعب هو الرب الأعلى، يليه الإمبراطور (الذي يتم اختياره في اجتماع جماهيري). وبذا ينقلب الوضع ويصبح البابا في المركز الثالث، بعد الشعب والإمبراطور. وتعدد الأرباب لدى أهل الكتاب يفضي بطبيعته إلى صراع نظري حول من يكون الرب الأعلى!

(1). جرت العادة أن يختار الأمراء الألمان من بينهم امبراطورًا رومانيًا يجري تنصيبه في اجتماع جماهيري، وهو منصب فخري تقريبًا.

مقترح مارسيليوس المبدئي يقول إن الشعب هو الرب الأعلى (أو «صاحب السيادة» بلغة اليوم)، لأنه هو من يختار الإمبراطور. ونحن الآن في القرن الرابع عشر، ولكي يصبح الشعب مصدر «السلطة» و«القانون» معاً لازال أمامنا أربعة قرون حتى تقوم الثورة الفرنسية، وتجعل الشعب فوق الملك، وتجعل «الإرادة العامة» مصدراً للقانون بدل «الإرادة الملكية» التي تعبر عنها عبارة «لأن هذه هي رغبتنا» التي تذيل بها التشريعات الصادرة عن الملك في العهد الملكي. ووضع «الإرادة العامة» حيث كانت «الإرادة الملكية» هو ما نظّر له جان جاك روسو في كتابه «العقد الاجتماعي».

وبذا يتحول الشعب من الرب الأعلى إلى الشعب الإله، ليس لأنه لا يخطئ وحسب، وإنما لأنه بهذا الوصف الخرافي يصبح جدير بالعبادة، أي أن يطاع طاعة مطلقة في باب السلطة والتشريع: بمعنى أن الشعب يُعطي السلطة لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء (= مالك الملك)، ويشرع ما يشاء (= يحكم لا معقب لحكمه)! وللشعب الإله مذبح/سلخانة اسمها «محكمة الشعب» تفتتح جلساتها وتعلن أحكامها «باسم الله وباسم الشعب»...! الله لا يأذن بسفك الدماء وسلب الأموال ظلما وعدوانًا لذا وُضعَ اسم الشعب جنب اسمه ليكون النفاذ لأهواء الظلمة، والمفسدين في الأرض باسم الشعب.

وبذا يكون الشعب إلهًا من آلهة الحداثة، ولأنه ليس إلهًا إلا بالباطل، فهو شبيه «هبل» في «الجاهلية الأولى»، أي مجرد صنم يتكئ عليه أصحاب السلطة في تبرير سلطتهم، أو بتعبير أكثر دقة، يعتمد عليه أهل الأهواء في تبرير أهوائهم، مثلما يفعل بشار الأسد عندما يقول إن أمر تنحيه عن السلطة بيد الشعب السوري! بشار لا يقصد الشعب السوري المشرد،

وإنما الشعب-الصنم الذي يجعل من الشعب الحقيقي مجرد قرابين لأهواء الأسد وآل الأسد، أو لأهواء «البعث» و«البعثيين»![1]

أخيراً؛ يقتضي الإنصاف قول الحق مرتين؛ مرة بخصوص المؤمنين بهذه النظرية (سيادة/ألوهية الشعب) إيماناً حقيقياً، وهؤلاء هم المشركون، ومرة بخصوص الرافضين لها لأسباب مشروعة ومقاصد غير مشروعة، وهؤلاء هم بعض علماء المسلمين!

بالنسبة للمشركين الغربيين؛ يحاول السياسيون تقريب النظرية للواقع من خلال الانتخابات والاستفتآت؛ ففي سويسرا يتم الاستفتاء على كل قانون جديد تقريبًا، ومشروع الدستور الأوربي أسقطته استفتاءات شعبية في أكثر من بلد أوربي، وقرار انسحاب بريطانيا من السوق الأوربية جاء بعد استفتاء نال فيه خيار الانسحاب أغلبية الأصوات!

ولا يتردد الغربيون، لأنهم مشركين، في استفتاء الشعب في مسائل حسم فيها الأمر عند المسلمين بنصوص قرآنية مثل الإجهاض وزواج المثليين...! وهذا يبرر عند بعض المسلمين رفض فكرة استفتاء الناس مطلقاً، وكما لو أن أول استفتاء يُجرى عندنا سيكون عن زواج المثليين. وهذا يوصلنا للحق الذي يراد به باطل! فالإجهاض وزواج المثليين في الشريعة باطل، وما يقود إليه مثله؛ أي أن استفتاء الناس على مثل هذه المسائل باطل في الشريعة، قبل أن يحصل وإذا حصل. ولكن هناك من يسخر فكرة الاستفتاء الباطل

(1) . أحد السوريين (واسمه مصطفى خليفة) ألقي عليه القبض في مطار دمشق وهو عائد الى وطنه من فرنسا بعد الانتهاء من دراسة الإخراج السينمائي. أمضي مصطفى ما يزيد على 13 عاما في سجن تدمر الجهنمي. صاغ مصطفى تجربته المؤلمة في رواية سماها «القوقعة» وفيها تساءل: «**هل هذا الشعب هو من يتغنى به السياسيون ويؤلهونه**؟»

لتحريم الاستفتاء المباح (اختيار الحكومة)! وهذا يوصلنا إلى موقف بعض علماء المسلمين!

يروج بعض العلماء من المسلمين لعدم جواز الاستفتاء مطلقاً انطلاقا من أن فيه احتكام/تأليه للشعب، أما القصد من هذا الموقف فليس حفظ الدين وإنما الاحتفاظ بالسلطة، لأن التفكير في الاستفتاء في بلاد هؤلاء العلماء لن يقود إلى الاستفتاء على زواج المثليين، وإنما على نوع الحكومة ونظام الحكم! ولو تم استفتاء الشعب على النظام القائم في ذاك البلد فلن يُبقي عليه الناس ساعة واحدة! ولذا يتكرر القول: نحن مسلمون، على منهج السلف، والانتخابات والاستفتاءات والمظاهرات منكر وحرام، وخروج عن الإسلام!

وهذه الصياغة لا تتفق لا مع صحيح الدين والتدين، ولا مع منهج السلف الذين كانوا مجتهدين ولم يكونوا سلفيين. أما الحقيقة المخفية عن الدهماء فهي أن هذه الصياغة/الفتوى لا تتفق سوى مع هوى المستبد الذي يهيمن على الدوائر الأمنية، ودائرة الفتوى من بينها! فمن المعلوم لدى المشايخ أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قد استطلع واستشار في خلافة عثمان رضى الله عنه، ليس الستة المعينين للشورى من قبل عمر رضى الله عنه وحسب، وإنما كافة المسلمين، بما في ذلك الركبان في قوافلهم، كما تقول بعض الروايات.

من جهة أخرى يشنع هؤلاء الفقهاء على الشيعة القائلون بوراثة الإمامة، وهم يدافعون عن وراثة الملك العضوض. ومصيبة الأمة ليست في هؤلاء (من السنة) وهؤلاء (من الشيعة) فقط، وإنما أيضًا في الفريق الثالث، الذي ذهب إلى فرنسا ليتعلم، فتعلم وعاد، ولكن ليس بأفكار تنفع، وإنما بأصنام تُعبد!

الفصل الخامس
الزعيم

الزعيم من أشد الأصنام فتكًا في مجال الاجتماع السياسي؛ فهو ما يحول جماهير الغافلين إلى مغفلين يشتغلون بعبادته كما اشتغل بنو إسرائيل بعبادة عجل السامري -في غياب موسى- وما كان لوجود هارون وموعظته أن يجديا فتيلاً مع بريق الذهب. عبادة العجل وعبادة الصنم تعبير عن عبادة الهوى، وهو الذهب متحولاً عجلاً عند بني إسرائيل، ومتحولًا زعيمًا على مسرح القابلية للاستعمار عند الشعوب المستعمَرة!

الزعيم كصنم من أصنام المسرح يمثل Le désire collectif personnifié أي «**الرغبة الجمعية متحولة شخصًا**»، بتعبير إدموند دوتى، في كتابه «السحر والدين في شمال افريقيا»[1]. وقد يكون هذا الكتاب مع كتاب «نفسية الجماهير» لغوستاف لوبون أكبر مصادر الإلهام للسياسة الاستعمارية (الأوربية) والإمبريالية (الأمريكية) في القرن العشرين. فالرغبة الجماعية لدى الجماهير الغافلة لم تعد الذهب الرنان، وإنما «حقوقنا»!

الزعيم في هذا السياق هو الإله الذي سيعفينا من كل الواجبات، ويجعلنا نستمتع بكل الحقوق -كاملة دون نقصان- ثم يحطم اعدائنا فرادى أو مجتمعين! هذه الرغبة الجمعية هي ما يجعل تضليلنا جمعيًا أمرًا هينًا لمن ملك أدوات الحرب النفسية.

(1) ظهر الكتاب سنة 1909، ولا أعرف له ترجمة.

الغفلة أو الاستعداد النفسي للجماهير هي الأرضية التي أقام عليها السامري المعاصر (الاستعمار) صنم هنا وصنم هناك باسم الزعيم المعبود! وخير من نستشهد به في هذا السياق هو لورنس العرب الذي لاحظ أن «**العرب يؤمنون بالأشخاص وليس المؤسسات**»

Arabs believed in persons, not in institutions[1]

وفي معرض بحثه عن شخص يقود الغافلين لخدمة المشروع البريطاني في الحرب العظمى وجد الأمير «فيصل» بين أبناء الشريف حسين مؤهلاً لذلك.[2] وصف لورنس فيصل بالنبي المسلح، لإعطاء القارئ فكرة عن روح مكيافيللي[3] التي هيمنت على الجهود البريطانية في جزيرة العرب اثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها.

وتقتضي الأمانة الإشارة إلى أن الشيخ البشير الإبراهيمي (1889-1965) كان ممن انتبه مبكرًا لقضية الأصنام البشرية كأداة لإدخال الشعوب المستعمَرة في التيه السياسي قصد إطالة عمر المشروع الاستعماري.

في ضوء ما سلف سأتحدث عن الزعيم-الصنم في التجربتين الجزائرية والمصرية، لوضوح صورة الدور السلبي للزعيم فيهما، ولتوفر المعلومات بخصوصهما أكثر من غيرهما من التجارب العربية.

(1) T. E. Lawrence, seven pillars of wisdom, the complete 1922 Oxford text, London, 2004. P.7

(2) الذي سيكون فيما بعد فيصل الأول (1921-1933) في مملكة العراق.

(3) في حديثه عن ضرورة السلاح يقول مكيافيللي حتى الرسل لم ينتصر منهم إلا من توفر لديه السلاح. ومن اللافت للنظر أن المثل الذي اختاره مكيافيللي في هذا السياق هو موسى، وليس محمد ﷺ، حتى يظل مخلصاً لثوابت اوربا التي وضعتها الكنيسة في منطقة اللاشعور عند الإنسان الأوربي، وهي الكفر بمحمد وما أنزل على محمد.

المبحث الأول
الزعيم-الصنم في التجربة الجزائرية

الشيخ البشير الإبراهيمي (1889-1965) كان ممن انتبه مبكرًا لقضية الأصنام البشرية كأداة لإدخال الشعوب المستعمَرة في التيه السياسي قصد إطالة عمر المشروع الاستعماري. في هذا السياق كتب الشيخ (سنة 1954) ما نصه:

«الغالب على الشعوب البدائية في السياسة أن تكون على بقية من وثنية أصنامها الشخصيات، فيكون إحساسها تابعًا لإحساسهم وحركاتها منوطة بتحريكهم ولو إلى الضياع والشر. وهذه هي الحالة السائدة في شرقنا، وقد تفطن الغربيون لهذه النقيصة فينا، بل إلى هذه الثغرة الواسعة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنا التماثيل من الرجال ويحكموننا بها».[1]

التوصيف النظري عند الشيخ الإبراهيمي عاشه الاستاذ مالك بن نبي تجربة حية دّونها (في كتابه «العفن» [2]عندما أتى على ذكر الزعيم الذي تم اختياره لقيادة فيدرالية نواب الشعب الجزائري سنة 1934. في تلك الحقبة اجرت فرنسا انتخابات لحرمان جمعية العلماء من قيادة الجزائريين. وقد انتجت الانتخابات زعيم على مقاس الرغبة الفرنسية.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
(2) الجزائر، دار الأمة، ترجمة نور الدين خندودي، الطبعة الأولى 2007.

يقول الأستاذ بن نبي في وصف ذاك الزعيم: «**عجبت لرجل ولد ليملأ الكلمات المتقاطعة في صحيفة وضيعة، وملء الفراغات في ألعاب الجرائد، كيف أصبح قائداً لبلد رهنت مستقبلي ومستقبل عائلتي في سبيل مستقبله**»![1]

كيف تمت صناعة هذا الزعيم-الصنم؟ كيف يتم تحويل شخص بإمكانيات محدودة، من بشر يسعى، إلى صنم يُعبد؟ وما دور الغفلة والهوى في كل هذا؟[2]

لميلاد الزعيم لابد من أزمة، وليتحول الزعيم إلى صنم لابد من حدث دراماتيكي يُظهر القدرات الاستثنائية للزعيم. الأزمة التي ولد فيه زعيم جزائر سنة 1934 خلقها تبول يهودي في مسجد قسنطينة. لم يبق إذن إلا الحدث الدراماتيكي الذي يظهر فيه الزعيم. وبالخصوص يروي بن نبي (في مذكراته)[3] وقائع الاجتماع الذي عقد بملعب قسنطينة وحضره «الشعب» لمناقشة صورة التعايش المستقبلي بين المسلمين واليهود الذين تمكنوا في ظل الحماية الاستعمارية من التطاول حتى تبول أحدهم في المسجد![4]

حضرت الحشود في الموعد، يقول بن نبي، وأثناء الاجتماع «**... إذا بخبر سيعزى فيما بعد للعنصر الأوربي يدس بين الصفوف:**

إن رئيس اتحادية النواب قد قتل...!

(1) المرجع السابق، ص 92

(2) . تحدثت عن دور هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) في اللعب على نفسية الزعيم والجماهير في كتابي «الثقب المعرفي»، ص 89.

(3) مذكرات شاهد القرن، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، دار الفكر، 1969-1970

(4) اعود في كل وقائع هذه الحادثة إلى المرجع السابق ص 317، وما بعدها.

فانطلقت صرخة:

قتله اليهود...!

لم يشعر أحد أن هذه الصرخات كانت الكلمات الأولى لأسطورة سيكتبها الاستعمار على حساب الشعب الجزائري، بدمائه الزكية أحياناً:

اليهود قتلوا الزعيم...!

إنما تعني هذه الكلمات في منطق الصراع الفكري ومكره:

اعبدوا الزعيم...! قدسوا الصنم ...!

انفض الاجتماع ولم يبقَ أحد يصغي لأحد، وسال الجمهور نحو المدينة، وتدفق سيله على حي اليهود...» ليحطم ابواب محلاتهم وينثر بضائعهم في الشارع.

وإذا كان مشهد دراماتيكي واحد لا يكفي لصنع صنم يعبد فقد حدث «**أثناء الأسبوع أن الزعيم رئيس اتحادية النواب [الذي لم يقتل] ناول رئيس الشرطة ضربة رأس... فكانت الضربة التي صعد بها نجم الزعيم في السماء، و انتشر صيته في الآفاق...**».

وبذا أصبح الشعب الجزائري يرى رغباته/حقوقه كلها متجسدة في شخص لا ينفع – في الحقيقة- إلا لملأ الكلمات المتقاطعة في صحيفة وضيعة، ولكن هذا الشخص تحول إلى صنم يعبد لأنه ناول رئيس الشرطة الفرنسي (رمز الاستعمار) ضربة رأس!

ويستمر بن نبي في وصف المأساة الجزائرية بالقول: «**وقلما تلد الأحداث الكبرى فأرًا، ولكنها ولدت فأرًا في تلك الظروف وبدأ يعبث على الفور. إذ**

عندما وصل من السيد أمين الحسيني مبلغ لمعاضدة منكوبي قسنطينة من المسلمين، لم يرَ الفأر بدًا من إرجاع ذلك المبلغ كي لا يظهر للسلطات الاستعمارية تواطؤ مع ما يشتم منه رائحة الحركة الاسلامية».

تمزيق الأمة والحفاظ عليها ممزقة من مهام الزعيم-الصنم! فهذه الشخصية الوضيعة (أو الفأر بتعبير بن نبي) تتحول بفعل مسرحية متقنة الإخراج إلى زعيم يوجه الجماهير التي خرجت من تيه الحضرة والبندير (في زوايا المرابطية) إلى التيه السياسي (في الحملات الانتخابية) التي تعد بكل الحقوق وتنسي كل الواجبات، فـ «**الأمم النائمة ليس لها تاريخ وما تشاهده ليس سوى أحلام أوكو ابيس**». هكذا يوجز بن نبي أحداث تاريخنا المعاصر.

وبعد عشرين سنة من تجربة الزعيم في الجزائر، سنجد التاريخ يعيد نفسه في مصر (سنة 1954)، حيث ينتصب الصنم من جديد على مسرح الفراغ العربي حيث بالإمكان صناعة بطل على مقاس الحاجات الاستعمارية، ذلك أنه بحسب توماس كارلايل ليس لكل شعب حر بطله فقط، وإنما للخدم (valets) بطلهم كذلك، لكنه بطل يليق بالخدم: بطل مزيف (Sham Hero)[1]. عندما لاح مشروع الاستقلال في الأفق لم يكن بالإمكان إجهاضه إلا «ببطل» يوجه سير الخدم (الشعوب المستعمَرة) إلى الوراء، وفي التجربة المصرية خير دليل على وجود «**بطل الخدم**»- Sham Hero.

(1) المصطلحات الواردة بهذه الفقرة لتوماس كارلايل، في كتابه عن البطولة وعبادة الأبطال في التاريخ.

المبحث الثاني
الزعيم-الصنم في التجربة المصرية

كان الامريكان يبنون في صناعة زعيم-صنم على مقاس المصريين على الخبرة الإنجليزية في الجزيرة العربية وعلى النحو الذي أظهره لورنس العرب في «أعمدة الحكمة السبعة». أما أكثر من كتب في موضوع الزعيم-الصنم المناسب للمصريين ومن ورائهم العرب، فهو مايلز كوبلاند صاحب كتاب «لعبة الأمم». وفي معرض شرحه للمعيار الذي سيتم اختيار الزعيم على أساسه قال كوبلاند: «**نجاح مخططاتنا رهين بزعيم يتخذ منها اهداف ومبادئ**».[1]

في مسرحية أسمها «حادث المنشية»، تم تمرير خرافة الإخوان حاولوا قتل الزعيم (اليهود براءة هذه المرة)! لقد كانت مسرحية المنشية سيئة الإخراج، لكن البطل على المنصة أدى دوره بشكل شكسبيري، لا سيما وهو يصرخ لحظة إطلاق النار: ليبقى كل رجل في مكانه... ليبقى كل في مكانه، دمي فداء لكم... دمي فداء لكم ... كلكم جمال عبد الناصر...!

وقبل أن تُعرف هوية من أطلق النار، أو يُقبض عليه، كانت النيران تلتهم مقر جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة فهم، وليس غيرهم، المقصود بالمسرحية، لأن القابلية للاستعمار انعدمت لديهم فأصبحوا خوارج النظام العالمي الذي تقاسمته الشيوعية والرأسمالية في عز الحرب الباردة! وبمسرحية المنشية بلغت شعبية عبد الناصر عنان السماء، بعد أن كانت في الحضيض؛ لقد ظهر الصنم، ظهر الزعيم الذي لا يتزحزح أمام شبح الموت،

(1) كوبلاند، لعبة الأمم، ص94.

ويفدي شعبه بدمه، ويرفع كل فرد من أفراده إلى منزلة الفرعون! ألم يقل: كلكم جمال عبد الناصر؟

ولم يكن للمسرحية من هدف سوى: اعبدوا الزعيم.. قدسوا فرعون!

وسريعاً قُدم عبد القادر عودة وخمسة من اخوانه الذين قاتلوا على القناة، وفي فلسطين، قربانًا للزعيم الذي حل في مصر المعاصرة محل فرعون العصور الغابرة. على مسرح المنشية تم تحويل فأر من فئران المختبر إلى زعيم يضلل جيلاً كاملاً ويقوده إلى التيه القومي-الاشتراكي أولاً، ثم إلى الهزيمة العسكرية كتحصيل حاصل (سنة 1967). لقد حقق الصنم الهدف من تنصيبه على المسرح؛ لقد أُنجزت السياسة الاستعمارية بأيدي محلية، وفق تطور دراماتيكي مختلق في كل تفصيل من تفاصيله. هذه هي قيادة الجماهير نحو الضياع والشر كما وصفها الشيخ البشير الإبراهيمي قبل ربع قرن من هزيمة 1967.

في عبد الناصر تشخصت الرغبات الجماعية لإمة تعيش أعمق نقطة في تاريخ انحطاطها، حتى أنها تشبثت ببقايا الصنم المتحطم في الهزيمة، لأنه في قصر نظرها صنم لا يعوض! وكي لا يفقده المصريون إلى الأبد بعد موته اقترح توفيق الحكيم تخليده بتمثال[1]. وبهذه المناسبة جاءته رسالة يقول صاحبها: «**أنه مو افق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس في القاهرة بل في تل أبيب، لأن إسرائيل لم تكن يومًا تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضاري، إلا بفضل سياسة عبد الناصر**»![2]

(1) توفيق الحكيم، عودة الوعي، القاهرة، دار الشروق. واعيد نشره في سلسلة جدران المعرفة، 2006

(2) المرجع السابق، ص 76.

وفي «**عودة الوعي**» وصف توفيق الحكيم بإخلاص «**فقدان الوعي الجمعي**» في مصر قائلاً: «**هناك خسارة لا شك فيها، ولا يعدلها عندي مكسب، ذلك هو ضياع وعي مصر**»! وكان «**فقدان الوعي الجمعي**» مقصودًا ومطلوبًا، وينفذ وفق سيناريو كانت أحداثه تقع تحت سمع وبصر الحكيم طوال عشرين سنة، دون أن ينتبه لمضامين شيء من ذلك! لقد تحول الحكيم/المثقف إلى مغفل: «**كنت أظن – يقول الحكيم- أن الشعبية تنبع فقط من القلوب، أو حتى من صور الأماني والوعود والأوهام والأكاذيب، ولكني ما كنت أظن حتى تلك اللحظة أنها يمكن أن تصنع وتؤلف تأليفًا وتوزع لها أوراق هتاف كأنها نوتة موسيقية...**».[1]

وبذا «**ختم على العقل المصري بسبعة أختام ولم يعد يجرؤ على رأي يخالف رأي الزعيم المعبود...**»![2] هذه هي خلاصة ما حصل أيام عبد الناصر من وجهة نظر الحكيم. وكان على الذين لا يجعلون مع الله إله آخر أن يدفعوا ثمن بقاء الزعيم/الصنم المعبود! والأخطر هو أن تبقى، حتى اليوم، الأختام التي وُضعت على العقل المصري حيث تركها عبد الناصر!

كان مالك بن نبي من القلائل الذين رأوا في عبد الناصر الصنم الذي يتحرك على مسرح القابلية للاستعمار، فعندما فرضت مصر تأشيرة الدخول على العراقيين والسوريين والأردنيين والسعوديين سنة 1963 كتب بن نبي في يومياته بتاريخ 29 يوليو من تلك السنة، وتحت عنوان «ناصر يقلب الصفحة» ما نصه:

(1). المرجع السابق، ص 49
(2) المرجع السابق، ص43

«إن الرئيس عبد الناصر يعتبر رجل الدولة العربية الوحيد الذي يكتب بيده التاريخ العربي ظاهرًا وتبقى اليد الخفية التي تكتب التاريخ، إنها يد الاستعمار، وهنا في هذا الموقف يحقق الاستعمار موضوعه [هدفه] الأول في قرار مصر أما موضوعه [هدفه] الثاني فهو الذي تقابله الدول العربية المعنية بقرار مماثل. وهكذا، فإن دولاب التاريخ يدور في الفراغ في سائر هذه البلاد منذ سنين عدة، وهو يبدو لي سِمة المرحلة المقبلة ... لسائر البلاد العربية الغارقة في الفراغ بسبب شخصانية حكامها أو خيانتهم، وهكذا يبحثون دائماً عن خطة جديدة للخروج من هذا الفراغ يثيرون فيها بواعث مرحلة جديدة، ولكن أين هي الفكرة؟ هل هي الشيوعية ثورة تفرض من الخارج؟ أم هي فكرة أخرى سوف تفرض ثورة من الداخل؟ أعتقد أنني أرى كل أهمية لهذا السؤال الأخير، ولكنني أترك للزمن أن يجيب عنه»!

ولم يجب الزمن بعد عن سؤال بن نبي؛ إذ بعد خمسين سنة من فرض عبد الناصر التأشيرة على العرب يعود السيسي إلى فرضها عليهم مرة أخرى (سنة 2013)، فليس للأصنام، على اختلاف أنواعها، من وظيفة إلا تحويل دار الإسلام إلى معتقلات يتم الانتقال بينها بتأشيرات يصدرها الطاغوت!

لا جديد في حكم العسكر إلا أن السيسي قد حل حيث كان عبد الناصر قبل خمسين سنة، وفرض التأشيرة على العرب كما فرضها عبد الناصر قبل خمسين، وقتل وعذب مثل عبد الناصر قبل خمسين سنة!

مهمة الزعيم/الصنم، كما حددها الشيخ البشير الابراهيمي، هي «**قيادة الجماهير إلى الضياع والشر**». ووظيفة الصنم هي خدمة الطاغوت الذي يحقق أهدافه عن بعد ويتلذذ برؤية أبناء المسلمين يمزقون بعضهم بعضاً نيابة عنه، وباستخدام آخر فكرة من أفكاره: (الحرب على الإرهاب)!

خاتمة
الباب الأول

لما كان المسلم المعاصر من المعتمدين -في الغالب الأعم- على ما أنتجه العقل الأوربي من نظريات، وقد اعتاد هذا المسلم محاكاة الغربيين في طرائق التفكير، دون قدرة على التمييز بين الأفكار والأصنام، فمن المحتمل أن يشعر -عند الفراغ من هذا الكتاب- بما شعرت به قريش يوم الفتح: (الفراغ)!

الكعبة ليس حولها أصنام...!

الصفا والمروة بدون إيساف ونائلة...!

ولا يُذكر في البيت إلا رب البيت...!

أيعقل هذا؟!

قريش لا تعبد إلا إله واحد؟!

إله واحد؟!

إن هذا لشيءٌ عُجاب...!

وبعد اربعة عشرَ قرنًا تظهر الأصنام من جديد، ولكنها أصنام نظرية، ومستقرها ليس البيت الحرام الذي ببكة، وإنما في رؤوس البشر ومنها رؤوس أبناء المسلمين!

وعلى هذه الأصنام أنبنت جاهلية ثانية أسمها: الحداثة...!

المثقف الحداثي سيشعر بذات الفراغ الذي شعرت به قريش عند زوال الجاهلية الأولى.

وسيصيح: ما هذه العدمية؟!

هذه ليست عدمية! هذا شروع في تحطيم أصنام الحداثة.

تحطيم الأصنام جريمة ولا شك، ولكن في الأنظمة الجاهلية فقط!

وستدافع الجاهلية عن أصنامها دون أدنى شك، لأن وجود النظام الجاهلي متوقف على وجودها، فلا جاهلية بدون أصنام!

وفي معرض الدفاع عن أصنامها -كما يقع في مستقر العادة- لابد أن تطرح الجاهلية الثانية ذات الأسئلة التي طرحتها الجاهلية الأولى؛

بدون الدولة أو الثورة من نعبد؟ ومن يكون مصدر المشروعية، وعمن يصدر القانون؟

وبدون «الشعب» بمن نطوف؟ ولمن نسعى ونكدح؟!

وبدون «الوطن» لمن نقدم القرابين؟

وهبل المتحرك... «الزعيم»... ما مصيره؟

في وجود هذه الأصنام غير المادية تظهر من جديد دعوة لنبذ الأصنام، دعوة جديدة إلى توحيد الله!

وتوحيد الله في معناها التشريعي: لا مصدر للمشروعية إلا الله.

لا دولة ولا ثورة ولا شعب ولا وطن ولا زعيم!

توحيد الله...؟!

مرة أخرى؟!

إله واحد؟!

إن هذا لشيءٌ عجاب...!

إنّ هذا لشيٌ يُراد...!

إن هذا إلا اختلاق...!

إن هذا إلا أساطير الأولين...!

هذا هو المنطق الذي أتوقع أن تقابل به الجاهلية الثانية هذا الطرح!

أما المسلم فلن يشعر بالفراغ أو الفزع، بل ربما شعر بالوحدة. ربما شعر المسلم بتكالب كل القوى (في الداخل والخارج) عليه. ربما شعر بالحصار، ربما شعر بالعزلة التي تفرض على الذين لا يجعلون مع الله إله آخر، وكما يقع في مستقر العادة!

وإذا كان هذا شعورك فعلاً فلا أملك إلا أن أقول لك:

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: 40]!

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

الباب الثاني

التاريخ كله تاريخ معاصر

(أصنام، وفراعنة، وقرابين)

تمهيد

كتاب الله ليس كتاب تاريخ، لكن فيه ذكر لتاريخ ما قبل التاريخ، وتاريخ ما بعد التاريخ. وليس هذا كل ما في الأمر؛ إذ يلتقي في القرآن تاريخ ما قبل التاريخ وتاريخ ما بعد التاريخ، حتى يختفي الزمن أو يكاد. وهذا ما لا يمكن استيعابه إلا بعد فهم مسألة نسبية الزمن. ولما كان القرآن هو المصدر الأول للعلم والمعرفة عند المسلم الحقيقي،[1] فسأبين نسبية الزمن من خلال آيتين من كتاب الله:

1) يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (السجدة).

2) تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (المعارج).

إذا اعتمدنا على الآية الأولى في حساب الزمن، فأن المسافة الزمنية بيننا وبين الفراعنة ستكون خمسة أيام، على افتراض أن الفراعنة قد عاشوا قبل خمسة ألاف سنة. وإذا اعتمدنا على الآية الثانية في حساب الزمن، فعندها سيكون كل تاريخ الإنسانية المعروف قد تم في يوم واحد أو أقل! وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون التاريخ كله تاريخ معاصر.

وبذا تصبح فرضية «التاريخ كله تاريخ معاصر» فرضية علمية اعتمادًا على ما قرره القرآن في نسبية الزمن. مرة أخرى؛ اليوم قد يقصر حتى يكون أربعة وعشرين ساعة، وقد يمتد ليصبح ألف سنة أو خمسين ألف سنة.

(1) وهو ليس كذلك عند المسلم الافتراضي.

ثم يختفي الزمن في البرزخ حتى إذا بُعث الموتى ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها. هذه القراءة القرآنية لنسبية الزمن تصادف في عالم الأفكار، ولدى غير المسلمين من يؤيدها، أو يعتمدها، بطريقة أو أخرى.

الفيلسوف الإنجليزي ألفرد نورث وايتهد (1861-1947) يقول إن الفلسفة الاوربية كلها ليست أكثر من هوامش على افلاطون. وافلاطون عاش في القرن الرابع قبل الميلاد (427-347 ق م). وهذا معناه أن الفلسفة الاوربية عاشت تدور حول نفسها ألفان وثلاثمائة سنة. وهذا التقرير يجعل قول الإيطالي بنيديتو كروتشه (1866-1952) «التاريخ كله تاريخ معاصر» قولاً مما يؤيده النقل (المعتمد على الوحي) والعقل (المعتمد على التجربة التاريخية).

وما سلف من حديث له صدى حتى في الفانتازيا السياسية؛ فهذا أنور السادات مثلاً يقول «إنه وعبد الناصر آخر فراعنة مصر»! والحقيقة إن طغيان عبد الناصر وطغيان السادات لا شبيه له إلا طغيان فرعون، فهو من نفس النوع، وإن ابتعدت المسافة الزمنية بين فرعون مصر القديمة وفراعين مصر المعاصرة. فالفرعنة زمن ممتد وممارسة مستمرة، حتى وإن ظهر فرعون في صور غير مصرية: (امبراطور روماني أو ياباني، وملك فرنسي أو انجليزي، وزعيم إيطالي أو ألماني)!

وفقًا لهذا التصور للتاريخ؛ لا جديد على مستوى الشرك والمشركين سوى تحول الأصنام إلى منحوتات فكرية بعد أن كانت حجرية، والعودة إلى القرابين البشرية بعد أن اختفت لزمن طويل نسبيًا بحساب البشر، غير أن غالب البشر لا يعي ذلك لضحالة الفكر وسطحية الإدراك.

الجوهري في الموضوع هو الاعتبارات التي لا يغيرها الزمن مثل مبحث التوحيد وتعدد الآلهة، ومثل تقديم المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين وما شابهها من حركات إسلامية قرابين لإلهة من نوع «الدولة» و«الثورة»، دون أن يكون أبناء المسلمين قادرين على كشف البعد الطاغوتي في الفكرتين، ودون إدراك لحقيقة أن الكفر بالطاغوت هو السبيل الى حرية منضبطة على المنهج الإسلامي. وباختصار شديد؛ الآية التي تربط بين الحرية والكفر بالطاغوت هي الآتية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

الحرية في الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والضياع في التمسك بأحدهما وإهمال الآخر، إذ كان أبو جهل يؤمن بالله ولا يكفر بالطاغوت، وكان نيتشه يكفر بالطاغوت ولا يؤمن بالله، فظل الاثنان، لأن الهدى في الكفر بالطاغوت والايمان بالله. الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله هو الكفر المنشود لإعادة الفاعلية للإسلام المحطم تحت وطأة أصنام الجاهلية وطغيان الفراعنة.

الفصل الأول
الأصنام (قديمها وحديثها)

عندما يعتقد مفكر أن من واجبه، أو من مهامه، التفلسف بالمطرقة لأن «**الأصنام أكثر مما يظهر في و اقع العالم**»، فلابد من التوقف عند هذا المتفلسف وبحث مدى إمكانية الاستفادة من فلسفته أو مطرقته. المفكر الذي اتحدث عنه هو الألماني فريدريش نيتشه **(1844-1900)**. وسيكون الحديث هنا في مبحثين الأول يهتم بالتفلسف بالمطرقة، والثاني ميثولوجيا الحداثة حيث تقف الأصنام على قدمين من صلصال، ولا قوة لها في مواجهة مطرقة الفلسفة.

المبحث الأول
التفلسف بالمطرقة

اتخذ نيتشه من التفلسف بالمطرقة حرفةً له دون وجل، وله تصريح بالخصوص يقول فيه: «**تحطيم الأصنام (وهذه كلمتي المفضلة للتعبير عن «المُثل») هي حرفتي**».[1] وفي وصف منجزه بالمطرقة يقول إنه: «**العمل التدميري الذي أجهزت به على ألفي سنة من مناقضة الطبيعة**».[2] الداعي لهذه الحرفة هو عالم المُثل الذي اخترعه افلاطون!

اختراع افلاطون هذا جرد الواقع «**من قيمته ومن معناه**» فأثر عالم المثل في تشويه الفطرة السليمة لا يختلف، في نظر نيتشه، عن أثر الأصنام المادية. ولذا يركز نيتشه هجومه على هذه البدعة لأن: «**أكذوبة المُثل ظلت إلى حد الآن اللعنة الحائمة فوق الو اقع، وعبرها غدت الإنسانية نفسها مشوهة ومزيفة...**»![3]

كان نيتشه في الواقع غير المنظور يمهد الأرض لانتشار الإسلام في أوربا والعالم. الإسلام الذي صدته طواغيت أوربا إلى حد الآن لن يصده شيء عندما تُحطم أصنام الفكر عن آخرها. في السياق الإسلامي؛ ما تمثله المُثل وما تمثله الأصنام شيء واحد، وهو مناقضة الطبيعة، أو مناقضة الفطرة في لغة إنسان مسلم، ونيتشه ليس كذلك.

(1) فريدريش نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الثانية 2006، ص 84
(2) المرجع السابق، ص 8
(3) ذات المرجع السابق.

وبالرغم من أنه غير مسلم؛ شرع نيتشه في تحطيم الأصنام واحدًا بعد الآخر، ابتداءً من مُثل افلاطون وصولاً إلى آخر الأصنام ظهورًا في عصره وهو «الدولة»، التي أعطاها وصف «الصنم الجديد»[1]، كما وصفها بأنها الوحش الأشد برودة بين الوحوش الباردة!

وعلى لسان هذا الوحش تجري كذبة: «**أنا.. الدولة.. أنا الشعب**»!

ويفضح نيتشه هذه الكذبة على لسان زرادشت، بالسخرية من الذين يعبدون الدولة، فينادي عليهم بما يليق بهم من وصف: «**أصحاب الآذان الطويلة**»، قائلاً على سبيل الوعد الزائف: «**سيعطيكم كل ما سألتموه، إذا عبدتموه، الصنم الجديد**»! وما زال أصحاب الأذان الطويلة وخفاف العقول، في كل مكان، يعيشون على ذكر الدولة ويلهجون باسمها، لاعتقادهم أنها تملك خزائن الأرض وأقدار البشر.

كانت نظرية الدولة في اوربا تعكس الرغبة في تجاوز شرعية ممزقة بين الملك والبابا، بجعلها للدولة فقط. من هنا رأى بعض مؤرخي الأيديولوجيا أن «**أيديولوجيا الدولة هي أيديولوجيا الواحد**»

L'idéologie de l'Etat c'est l'idéologie de l'Un [2]

ويعود أصل أيديولوجيا «الواحد» إلى افلاطون، أما في العصر الحديث فقد أسس لها مكيافيللي، ونظر لها هوبس لتكون «الصنم الجديد»، الذي لا يُرى[3]. أراد مكيافيللي تحرير الأمير من التراث اليهودي المسيحي فكان «الأمير»

(1) كل الفقرات المستشهد بها هنا لنيتشه من كتابه «هكذا تحدث زرادشت»، الفصل المعنون الصنم الجديد.

(2) Gerard Mairet, Genese de l'Etat laique .., in Histoire des Idiology, op cit. p. 290

(3) بالرغم من أن هوبس حاول تقريبه لتصور الإنسان من خلال صورة ليفايثان.

أساس القطيعة. وأراد هوبس انهاء ثنائية السلطة (البابا والأمير) بجعل الملك على رأس المؤسستين (الكنيسة والدولة)، فجاءت الثورة لتقطع رأس الملك نفسه وتعزل الكنيسة عن المجال العام (السياسة).

وبذا أصبحت الدولة مصدر المشروعية الوحيد الذي يختفي في عالم الأفكار. ولم ينتبه لهذه الحقيقة إلا القليل، ومنهم جورج بوردو[1] الذي أعلن أن الدولة من عالم الغيب، حيث كتب (سنة 1970) يقول: «**الدولة لم يرها أحد قط، ومع ذلك من بإمكانه أن ينفي وجودها في الو اقع**»!

Personne n'a jamais vu l'Etat. Qui pourrait nier cependant qu'il soit une réalité ?[2]

المشرك يؤمن بالدولة غيبًا، مثلما يؤمن المسلم بالله غيبًا. والذين يؤمنون بالدولة غيبًا يؤمنون بها إلهًا يمّكنهم من أن يحلوا ويحرموا على هواهم، ويعطوا ويمنعوا على هواهم، ويمنحوا ويصادروا على هواهم، ودون اعتبار لما أنزل الله من شرع وما بعث من رسل.

في هذا السياق؛ الدولة هي الطاغوت الذي يصدر تراخيص لبيوت الدعارة ونوادي القمار وبنوك الربا! والدولة هي الطاغوت الذي يأذن بأكل السحت وشرب الخمر، وإبادة الإسلاميين. هذا الطاغوت يقول سرًا وجهرًا «ليس علينا في الأميين سبيل»! وإذا كان نيتشه قد اعتبر الدولة صنم جديد فإن ريمون هارون قد تحدث عن الثورة باعتبارها «أفيون المثقفين».[3]

(1) جورج بوردو (1905-1988) من أكبر أساتذة القانون العام في فرنسا القرن العشرين.
(2) George Burdeau, L'Etat, Paris, Sueil, 1970, P. 13
(3) Raymond Aron, L'opium des intellectuels, Paris, Fayard/Pluriel, 2010

في الميثولوجيا الأوربية؛ الثورة نقض للعقد الاجتماعي الذي تأسست عليه الدولة، وعودة إلى «حالة الطبيعة» حيث يتقاتل كل فرد مع بقية الأفراد. ولفهم العلاقة بين الدولة والثورة لا بد من فهم ميثولوجيا الحداثة بعمقها وتعقيداتها، لأن هذه الميثولوجيا غزت الفضاء الإسلامي بعد انهيار الحضارة الإسلامية دون أن تجد أمامها أي عائق حقيقي.

وكان ممن لاحظ غفلة العرب عن هذه الحقائق لورنس العرب الذي دوّن بلغة مشفرة في كتابه أعمدة الحكمة السبعة[1] ما نحن عنه غافلون. في هذا السياق سيكون بعضًا مما جاء مشفرًا في ذاك الكتاب مدخلنا إلى ميثولوجيا الحداثة التي مازالت خارج ادراكنا لعالم الأفكار الشاسع وما فيه من أصنام.

(1) ظهر الكتاب سنة 1922

المبحث الثاني
ميثولوجيا الحداثة

في تشخيصه للحالة العربية يقول لورنس العرب[1]: « **العرب لم ينشئوا أنظمة فلسفية، ولا ميثولوجيات معقدة. إنهم يشقون طريقهم بين أصنام القبيلة وأصنام الكهف؛ أما أصنام المسرح وأصنام السوق فلم تكن في مدى نظرهم**».

The Arabs invented no systems of philosophy, no complex mythologies. They steered their course between the idols of the tribe and cave: those of the theater and market-place were not within their sight.[2]

ولما كانت الأصنام آلهة، والآلهة من مشمولات الميثولوجيا (علوم الأساطير) في أوربا، فمن الطبيعي ألا تكون في مدى نظر العربي، لأنه مازال يطفو على سطح الأفكار وتغلب عليه الأمية في زمن حلت فيه أصنام الفكر محل أصنام الحجر. بعبارة أخرى؛ من لا علم له بميثولوجيا الحداثة لن يرى جوانب الألوهية في نظريتي الدولة والثورة باعتبارهما من أصنام المسرح (السياسي)، التي لا قدرة للعربي على التفريق بينها وبين الحكومة. لا بد إذن؛ من الكشف عن حقيقة الدولة والثورة والعلاقة بينهما في ميثولوجيا الحداثة.

(1). من ضباط المخابرات البريطانية (1888-1935) ومن قادة الثورة العربية الكبرى اثناء الحرب العالمية الأولى.

(2) T. E. Lawrence, seven pillars of wisdom, the complete 1922 Oxford text, London, 2004. P. 18

أولاً ـ ميثولوجيا الدولة:

الأساس الذي أقام عليه هوبس نظرية الدولة من عالم الأساطير المعقدة complex mythologies الذي تحدث عنها لورنس كما تقدم. لقد صرح هوبس من أول سطر في نظرية الدولة (ليفايثان) إن نظريته عمل فني وليست منجز علمي. وينطلق هوبس لأسطرة الدولة على النحو الآتي:

الطبيعة (حيث يتجلى إبداع الإله في خلق وتدبير العالم...) هي ما يحاكيه ابداع الإنسان عندما يخترع حيو انًا اصطناعيًا...! ويذهب الابداع أبعد من ذلك في تقليد ذلك العمل العظيم والعقلاني للطبيعة، الإنسان. **فبالإبداع خُلق ليفايثان العظيم الذي يدعى كومنولث، أو دولة (مدينة في اللاتينية)، وهو ليس شيئًا سوى إنسان اصطناعي... أما السيادة فهي روح اصطناعية تعطي كامل الجسد الحياة والحركة.**

NATURE (the art whereby God hath made and governs the world) is by the art of man, as in many other things, so in this also imitated, that it can make an artificial animal...! Art goes yet further, imitating that rational and most excellent work of Nature, man. For by art is created that great Leviathan called a COMMONWEALTH, or a STATE (in Latin CIVITAS), which is but an artificial man... Sovereignty is an artificial soul, as giving life and motion to the whole body. (P. 47)

نظرية الدولة عمل إبداعي، وما يقوم به المبدع أو الفنان (المنّظر) هو نحت لصنم على مثال الإنسان، غير أنه ينحته في عالم الأفكار المجردة وليس

عالم المادة الملموس. بكلمات أخرى؛ الإنسان في الفكر الأوربي، منذ الفلسفة الإغريقية إلى يومنا هذا، هو المقياس لجميع الأشياء بما في ذلك الآلهة. وفي هذا السياق يتبنى فيلسوف القرن السابع عشر فكرة فيلسوف القرن الخامس قبل الميل (بروتاغوراس[1]). ولا يتبناها كما هي، بل يعيد صياغتها على النحو الآتي:

«البشر لا يجعلون من أنفسهم مقياسًا لبقية البشر فقط، بل لكل الأشياء الأخرى».

Men measure, not only other men, but all other things, by themselves.

ليفايثان/الدولة إله على صورة إنسان يتوحد فيه كل الشعب ليصبح الجسد السياسي Body Politic!

متى يظهر هذا الإله؟

يظهر هذا الإله عندما يقول كل فرد من افراد المجتمع للآخر: « **أنا أتنازل عن حقي في حكم نفسي لهذا الرجل، أو لهذه المجموعة من الرجال، على الشرط الآتي؛ أن تتنازل أنت عن حقك له، وتأذن له في جميع تصرفاته بنفس الطريقة».**

I authorize and give up my right of governing myself to this man, or this assembly of men, on this condition; that thou give up thy right to him, and authorize all his actions in like manner.

(1) بروتاغوراس من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد (481-411 ق م).

هذا هو العقد الاجتماعي الذي يولد ليفايثان لحظة ابرامه، فالعقد الاجتماعي في الميثولوجيا الأوربية يوازي قوله تعالى ﴿كُن﴾ في عالم الخلق الأول. وهذا ليس اجتهاد مني في فهم ما كتبه هوبس، بل هذا هو ما كتبه هوبس نفسه: «**المواثيق والعهود التي صنعت وركبت وجمعت أجزاء هذا الجسد السياسي تشبه كلمة كن، أو لنصنع إنسانًا التي قالها الله لحظة الخلق**»!

The pacts and covenants, by which the parts of this body politic were at first made, set together, and united, resemble that fiat, or the let us make man pronounced by God in the Creation.

في الأسطورة الأوربية؛ الدولة إله يظهر نتيجة للعقد الاجتماعي ويموت بالحرب الأهلية، فالدولة مجرد إله في عالم تعدد الآلهة الذي يجدد نفسه باستمرار، على اعتبار أن الإله واجب الوجود، بمعنى أن كل بحث نظري لا بد أن يمر بموضوع الألوهية أو ينتهي إلى بحثه.[1] بكلمات أخرى؛ موضوع الإله لا خيار فيه، الخيار بين الإله الحق (الذي لا إله غيره) وإله الباطل (الهوى)! الدولة صنم زينه الهوى، ولا يحطمه في عالم تعدد الآلهة إلا إله من هوى آخر: الثورة!

(1) ما يميز الإسلام عن غيره قيامه على حسم موضوع الألوهية قبل كل شيء: دخول الإسلام يبدأ بشهادة أن لا إله إلا الله.

ثانيًا: ميثولوجيا الثورة:

ومن الدلائل القاطعة على صدق ما سلف بخصوص واجب الوجود، محاولة هانس كلسن وضع نظرية للقانون بعيدًا عن اعتبارات الدين والأخلاق، حيث لا أساس للقانون غير القانون (ولهذا سماها النظرية الخالصة للقانون). غير أن كلسن انتهى حيث لا يريد أن يصل، وهو مبحث «واجب الوجود» وكما سنرى الآن.

اخترع كلسن فكرة التدرج الهرمي للقانون؛ بحيث يكون الدستور هو أعلى القوانين، تليه القوانين العادية، ثم اللوائح أو القرارات الإدارية. الدستور يصدر عن هيئة تمثل مجمل الشعب. والقانون تصدره السلطة التشريعية، واللائحة أو القرار يصدر عن السلطة التنفيذية. نفاذ كل إجراء من الإجراءات أو قانون من القوانين يعتمد على احترامه والتزامه بالقانون الذي يعلوه. فالقرار الإداري يكون نافذًا بقدر التزامه وانسجامه مع القانون الذي يعلوه وهو القانون الإداري. والقانون الإداري أو أي قانون آخر يكون نافذا ملزمًا بقدر توافقه مع الدستور.

وعند هذا المستوى يثور التساؤل عن مصدر إلزامية الدستور على اعتبار أن النظرية الخالصة للقانون لا ترى ما هو أعلى من الدستور، فمن أين يستمد الدستور قوة إلزامه إذا لم يعلوه مصدر آخر يجعله ملزمًا؟

لإنقاذ النظرية يقول كلسن إن هناك «قاعد مفترضة» تعلو الدستور، ومنها يستمد قوته الملزمة وأسباب نفاذه في حق واضعيه، وفي البلد التي وضع فيها. ومفهوم القاعدة المفترضة يصب في مبحث واجب الوجود، وهو الله الذي يعلو كل شيء. غير أن كلسن رفض إدخال الألوهية في نظريته للقانون لأنها لن تكون خالصة عند ذلك! وتشبث كلسن بأن «القاعدة المفترضة» مجرد

فرض لشرح نظرية تدرج القانون، إلا أن النقاد تشبثوا بأن الله والقاعدة المفترضة شيء واحد لحيازتهما مركز العلو.

وفي هذا السياق يُفهم القول بأن تغيير القاعدة المفترضة وتغيير الإله هو الثورة، على اعتبار أن الإله ومقتضى القاعدة المفترضة شيء واحد (العلو فوق الدستور). ولما كانت الدولة إله في الميثولوجيا الأوربية فمقتضى الثورة هو إزاحة الإله القائم لنصب إله جديد.

وسواء قلنا الدولة تموت بالحرب الأهلية في نظرية هوبس، أو عرفنا الثورة على أنها تغيير للقاعدة المفترضة عند كلسن فالمعنى واحد. بعبارة أخرى؛ موت الدولة بالحرب الأهلية، وتغيير القاعدة المفترضة بالثورة، صيرورة واحدة في الميثولوجيا الأوربية- الثورة قتل لإله هوبس وهيجل، ونقض لعقد هوبس وروسو الاجتماعي.[1]

تأليه الثورة لتأذن لأصحابها بما لا يأذن به الله أخذ مظهرًا صريحًا في خطاب أحد مفسدي جنوب المتوسط الذي تساءل: «**من الذي يفكر في محاسبة الثورة... هل هناك من يستطيع محاسبة الله؟**»! هذه كلمات معمر القذافي الذي لم يذهب إلى فرنسا ليتعلم الثورة هناك، بل غزت أفكار فرنسا رأسه الفارغ وهو في ليبيا. مبادئ الشرك والمشركين وصلت ليبيا قادمة من فرنسا عن طريق مصر والشام.

وعبادةً لهذا الصنم كوّن القذافي محاكم ثورية مهمتها تقديم قرابين بشرية من الليبيين لهذا الإله الذي ظل الطاغية وحزبه عاكفون عليه طيلة أربعة عقود، عكوف بني إسرائيل على عجل السامري قبل أن يرجع إليهم موسى.

(1) الثورة عودة إلى ما قبل الدولة حيث الهرج والمرج، أو ما يسميه هوبس «حالة الطبيعة»!

لقد أراد نيتشه تحطيم كل الأصنام وإلغاء ميثولوجيا الحداثة، لتنصيب إله جديد لما بعد الحداثة وهو «الإنسان الأعلى» لكن نيتشه فقد عقله قبل أن يتحقق شيء من ذلك، فكانت كل فضيلته هي الكفر بالطاغوت، ربما تمهيدًا لأن يأتي من بعده من يجمع بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، الذي نزلت به الكتب (وآخرها القرآن الكريم) ودعت إليه الرسل (وآخرهم محمد ﷺ).

الفصل الثاني
الفراعنة
(في العصر الحديث والحداثة)

إذا كان نيتشه قد عرى نظرية الدولة بوصفها صنم فكري، فأن ميشيل فوكو قد كشف عن البعد الفرعوني في «نظرية السيادة»[1]. وبذا تكون نظرية الدولة ونظرية السيادة من المباحث النظرية التي ينبغي للمرء أن يحيط بها علمًا إذا أراد أن يعرف آليات تحكم طاغوت الحداثة والحكم باسمه، أو إذا أراد أن يعرف كيف يكون الحكم باسم الطاغوت من مهام القاضي، الذي ينتظم في الطغيان حتى يصير هو نفسه طاغوتًا. والقضية ليست نظرية صرفة لأن جانبها العملي يتعلق بالحياة والموت ومن يملكهما: الله أم فرعون؟!

(1) ولدت نظرية السيادة شمال المتوسط في القرن السادس عشر، وانتقلت جنوبه في القرن العشرين.

المبحث الأول
فراعنة شمال المتوسط

لن اعيد الحديث عن الامبراطور الروماني أو الإمبراطور الياباني اللذين شابها فرعون مصر القديمة في ادعاء الألوهية، بل سأقف على بحث ميشيل فوكو لنظرية السيادة في الحقبة التي كانت فيها فرنسا وانجلترا دول ملكية، وكان الملك فيهما ذو خصائص فرعونية، منها التصرف في حياة الناس وموتهم.

في محاضراته في الكولج دو فرانس لسنة 1975-1976 قال فوكو للحضور: **«في النظرية الكلاسيكية للسيادة، تعلمون أن من مشمولاتها الأساسية الحق في الحياة والموت»!**[1]

Dans la théorie classique de la souveraineté, vous savez que le droit de vie et de mort était un de ses attributs fondamentaux.

ثم تساءل فوكو عن معنى ملكية الحق في الحياة والموت، ثم أجاب: **«بمعنى من المعاني، القول بأن صاحب السيادة يملك حق الحياة والموت معناه أنه يستطيع قتل الناس أو تركهم ليعيشوا.»**

En un sens, dire que le Souverain a droit de vie et de mort signifie... qu'il peut faire mourir ou laisser vivre.

كانت ممارسات فرعون مع بني إسرائيل على ذاك النحو، فهو القائل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127]!

(1) محاضرة 17 مارس 1976.

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ معناها نحن «أصحاب السيادة»، نحن أصحاب «القوة المطلقة» و«السلطة الأبدية» في مصر. وبهذه الصفة (الألوهية) نقتل من نقتل لهلك ونترك من نترك ليحي! وبهذا الشكل تكون الحياة والموت من مشمولات الألوهية التي ادعاها فرعون!

وبهذا النوع من الفهم تقرر لدى فوكو إن: «**سلطة صاحب السيادة على الحياة لا تتقرر إلا من اللحظة التي يستطيع فيها القتل**».

L'effet du pouvoir souverain sur la vie ne s'exerce qu'à partir du moment où le souverain peut tuer.

دون قتل من يعترض سبيله لا يستطيع الملك أن يكون الرب الأعلى، لا يستطيع أن يكون فرعونًا. ولذا قتل ملك الانجليز الراهب توماس مور الذي قال: «**أطيع الملك ولكن الله أولاً**»! فرعون لا يطيق من يطيع الله أولاً، لأن ذلك يجعل طاعة فرعون ثانوية، ولذا قتل هنري الثامن توماس مور حتى يتحقق النفاذ للتشريع الذي يجعل من الملك رأسًا للدولة والكنيسة معًا، وفي نفس الوقت.[1]

ولما كانت أوربا فضاءً لتعدد الآلهة لا يُستغرب أن يكون في فكرها إله للدنيا وآخر للآخرة، وبالموت ينتقل الإنسان من سلطان إله الدنيا إلى سلطان إله الآخرة. وفي هذا يقول فوكو: «**يمثل الموت لحظة الانتقال من حكم إله الدنيا، إلى حكم إله الآخرة**.»

(1) Act of supremacy مرسوم السمو، وقد صدر في عهد هنري الثامن، سنة 1534.

La mort, c'était le moment où l'on passait d'un pouvoir, qui était celui de souverain d'ici-bas, a cet autre pouvoir, qui était celui du souverain de l'au-delà.

لقد ظل الملك صاحب السيادة، أو الربوبية العليا، في أوربا حتى جاءت الثورة لتنقلها إلى الشعب في السياق الداخلي، وإلى الدولة في السياق العالمي. وبتحول الحضارة الأوربية (حضارة تعدد الآلهة) إلى نظام عالمي انتقلت أفكار أوربا المشركة وممارساتها الخاطئة إلى جنوب المتوسط، لينقلب التوحيد شركًا وليظهر فراعنة الحداثة جنوب المتوسط.

المبحث الثاني
فراعنة جنوب المتوسط

من الثابت أن السادات قد قال عن نفسه وعبد الناصر «نحن آخر فراعنة مصر»! وأنا لا أبدأ بهذا التأكيد لأني في شك من أن عبد الناصر ومن جاء بعده فراعين وإن بدرجات متفاوتة، وإنما لأبين أن هناك من يعتقد أن الفرعنة شيء مشرّف، وقد مات الذي عاش هذا التصور مثلما مات فرعون، مذمومًا مدحورًا.

كيف تفرعن فرعون مصر المعاصرة؟

بالإمكان اختصار مسيرة الفرعنة المعاصرة في مصر على النحو التالي:

- 23 يوليو 1952 قيام «حركة الجيش» التي ستسمى فيما بعد «ثورة يوليو».
- 26 يوليو 1952 تنازل الملك فاروق الأول عن العرش.
- 17 يناير 1953 إنشاء هيئة التحرير كمقدمة لإلغاء التعددية الحزبية.
- 18 يناير 1953، حل الأحزاب واعتقال فريق من قياداتها.
- 19 يناير 1953، قانون بمرسوم نص على اعتبار التدابير التي اتخذها «رئيس حركة الجيش» لحماية الحركة ونظامها خلال المرحلة السابقة لإصدار المرسوم من أعمال **السيادة العليا**.
- 10 فبراير 1953، إعلان الدستور المؤقت للفترة الانتقالية (ثلاث سنوات). جعل الإعلان **السيادة العليا** بيد «قائد الثورة» لا سيما فيما يتعلق بحماية الثورة والنظام القائم عليها، ومنحه حق تعيين الوزراء وعزلهم.

◈ 18 يونيو 1953 إلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية وتولي قائد الثورة منصب رئيس الجمهورية مع الاحتفاظ بسلطاته في ظل الدستور المؤقت.

◈ 14 يناير 1954 حل جماعة الإخوان المسلمين.

◈ 19 مارس 1954 مظاهرة، منظمة طاغوتيًا، تهجم على مجلس الدولة وتضرب رئيسه د/ السنهوري.

◈ 17 ابريل 1954 تولى عبد الناصر رئاسة الوزراء.

◈ 26 أكتوبر 1954 مسرحية المنشية (وعنوانها: محاولة اغتيال عبد الناصر).

◈ 14 نوفمبر 1954 اعتقال محمد نجيب (أول رئيس جمهورية في مصر).

◈ وباعتقال محمد نجيب تكون السلطات قد تركزت في يد عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة.

◈ 7 ديسمبر 1954 إعدام عبد القادر عودة والشيخ محمد فرغلي وأربعة من شباب الإخوان.

◈ 16 يناير 1956 انتهاء الفترة الانتقالية وإعلان عبد الناصر مبادئ الدستور الجديد الذي سيطرح على الاستفتاء في وقت لاحق.

◈ يونيو1956 الاستفتاء على الدستور ورئاسة الجمهورية. وفي مهزلة قل نظيرها فاز عبد الناصر (المرشح الوحيد) بنسبة 99.9% من الأصوات.

الحدث المفصلي الأول في سلسلة تلك الاحداث السالف بيانها هو إعلان الدستور المؤقت في 10 فبراير1953، الذي جعل «**السيادة العليا**» لـ «**قائد الثورة**»! والمعنى السياسي لهذا الإعلان هو جعل قائد الثورة الرب الأعلى

(فرعون) في مصر المعاصرة. أما الحدث المفصلي الثاني فكان مظاهرة يوم 29 مارس 1954.

في ذاك اليوم المشئوم خرجت مظاهرة من مبنى «هيئة التحرير» وجهتها «مجلس الدولة» الذي مثل استقلال السلطة القضائية حتى ذاك اليوم. واستقلال هذه السلطة هو العقبة التي بقت تسد طريق فرعون إلى الفرعنة.

وصل المتظاهرون إلى مجلس الدولة وسط هتافات «تحيا الثورة» و«الموت للخونة». وانتهت المظاهرة بالاعتداء على رئيس المجلس. وكان الاعتداءُ عنيفًا إلى درجة أدخلت رئيس المجلس (عبد الرازق السنهوري) المستشفى.

كان مجلس الدولة أول الضحايا وبداية زوال سلطان القضاء في مصر، التي تحولت إلى معتقل كبير، ثم إلى سلخانة بشرية! هذه السلخانة بدأت أعمالها بإعدام اثنين من العمال (بقري وخميس) اللذين حُكم عليهما بالإعدام لممارسة حقهما النقابي، ثم جاء الدور على الإخوان المسلمين. ومازالت «الدولة» في مصر مجرد سلخانة لمن يعتقد أنه من بني آدم، وله رأي يخالف رأي فرعون مصر المعاصرة.

في حينها كان النظام في مصر «**يتصرف مثل الاحداث من المجرمين**»! وقد جاء هذا الوصف على لسان دبلوماسي أمريكي يحتج أمام عبد الناصر على المعاملة الوحشية التي تلقاها الملحق العمالي الأمريكي على يد الأمن المصري.[1] كان الغربيون على علم تام بكل خطوات عبد الناصر «**عندما كان يبني وسائل القمع وأجهزته متجاهلين عمدًا كل تصرفاته في هذا المجال**». كان الغربيون يتجاهلون تصرفات أجهزة عبد الناصر الوحشية

(1) مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، تعريب مروان خير، دار الصادق، بدون تاريخ.

ضد المصريين، وحتى تكتمل وسائل القمع وأساليبه عند عبد الناصر، أعانه الامريكان بجملة من ضباط النازية بصفة مستشارين.[1]

لإطالة عمر المشروع الاستعماري لا بد من البحث عن بطل يقود الغافلين لخدمة ذاك المشروع. وإذا لم يكن ذاك البطل موجودًا فيجب البحث عنه، مثلما فعل لورنس في بحثه عن قائد للثورة العربية بين أبناء الشريف حسين فوجد «فيصل» الذي كان يقول عن نفسه عندما أصبح ملكًا على العراق أنه موظف لدى الانجليز بدرجة ملك.

وبعد الانجليز جاء الامريكان لإدارة المنطقة، وكانت لهم تجربة سلبية في سوريا عندما دفعوا بحسني الزعيم إلى الواجهة، ولكنه لم يكن متعطش للسلطة ولم يحقق اهداف الإدارة الامريكية التي عثرت على عبد الناصر في مصر.

كانت وثائق الخارجية الأمريكية تشير إلى عبد الناصر بـ«موضة المستقبل»، وكان متعطشًا للسلطة عطشًا جعله يحوّل مصر إلى معتقل كبير وسلخانة لمن له رأي ويجهر به من المصريين. وقد سرت الموضة إلى معظم الدول العربية التي تحولت إلى معتقلات للتعذيب والقتل وكافة صنوف الاضطهاد.

(1) المرجع السابق، ص 122.

الفصل الثالث
القرابين
(عبد الرازق السنهوري وعبد القادر عودة)

كان عبد الرازق السنهوري وعبد القادر عودة من أعلام القانونيين في مصر، في النصف الأول من القرن العشرين[1]. وقد شرع الاثنان في توثيق الصلة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي. السنهوري كتب مصادر الحق في الشريعة الإسلامية[2]، وعودة كتب التشريع الجنائي في الإسلام.

الإسلام والشريعة والقانون مما لا يناسب فرعون وملأه (عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة). ولذا في ظرف سنة واحدة قضى فرعون وملأه على السنهوري وعودة وحطم ما بقي من المشروع الإسلامي في مصر (جماعة الإخوان المسلمين). لقد كان السنهوري من أول الضحايا، وقد اكتفى فرعون بإقصائه عن الحياة العامة، أما عبد القادر عودة فقد كان من القرابين التي علقت على اعواد المشانق «باسم الشعب».

(1) كانت مصر في مقدمة الأمة في حينها؛ ليبيا لم تعرف الجامعة حتى سنة 1956، بينما لم تعرف عُمان الجامعة إلا في ثمانينات القرن العشرين.

(2) كان السنهوري يفكر في قانون مدني عربي موحد ومستمد من الشريعة الإسلامية. وقد نشر الفكرة في بحث منشور ببعض منشورات الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، سنة 1953.

أولاً ـ اقصاء عبد الرازق السنهوري:

كانت مظاهرة 29 مارس 1954 شروع في ممارسة الإرهاب على السلطة القضائية بشكل جدي، وجديد في مصر. وبخصوص أسباب المظاهرة قال أحمد زكي وكان رئيس سابق لجامعة القاهرة[1]، في حديث لجريدة الأخبار 08/ 09/ 1975 «**إن الاعتداء على السنهوري وقع بعد لقاءه بالإخوان المسلمين**».

وذكر الأستاذ أحمد فوزي في كتاب نشره عام 1985 بعنوان «**ستة رجال فكر وقانون**»... إنه في يوم 26 مارس جرى اللقاء بين الدكتور السنهوري وعبد الحكيم عابدين [من الإخوان] في منزل الدكتور أحمد زكي حيث عرض السنهوري على الاخوان الاشتراك في الحكم.

بالنسبة لفرعون وملأه؛ ليس هناك ما هو أسوأ من مجلس الدولة في القضاء إلا الاخوان في الشارع. وقد اشيع في حينها أن مجلس الدولة يتأهب لإصدار فتوى تحد من سلطات فرعون وملأه. فماذا فعل فرعون تعبيرًا عن طغيانه؟

روى أحمد حمروش في كتابه «شهود ثورة يوليو» **إن البكباشي حسين عرفة قال إن أحمد أنوررئيس البوليس الحربي أمره بمنع اجتماع مجلس الدولة بالعنف أو بالحسنى، و أنه أعد خطة المظاهرة بالتعاون مع إبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة... وتدفقت المظاهرة التي شارك فيها جنود المباحث الجنائية في ملابس مدنية ... وتقدموا نحو المجلس وهم يهتفون «الموت للخونة»**... وعندما حاول السنهوري مخاطبتهم ضربوه، ووصلت الأمور حد إطلاق النار للحد من هياج المتظاهرين الذين كانوا يهتفون «**تحيا الثورة**» و«**تسقط الرجعية**»!

(1) ترأس أحمد زكي تحرير مجلة العربي الكويتية، وكان مديرًا سابقًا لجامعة القاهرة.

دخل السنهوري المستشفى إثر الاعتداء، ولما أراد عبد الناصر زيارته رفض السنهوري استقباله لمعرفته أن عبد الناصر كان وراء المظاهرة وما حدث فيها. وفي أقواله أمام النيابة اتهم السنهوري عبد الناصر بتدبير الحادث. وقد اكدت زوجة السنهوري ذلك لأنها هي التي أبلغت عبد الناصر رفض السنهوري استقباله...!

الذي سقط ذاك اليوم ليس الرجعية، بل مجلس الدولة، ودولة القانون، وهيبة القضاء. والذين زحفوا على مجلس الدولة استخفهم فرعون مصر المعاصرة، مثلما استخف فرعون مصر القديمة قدماء المصريين. فرعون مصر القديمة غرق وجنده في البحر، أما فرعون مصر المعاصرة فقد هلك وجيشه في هزيمة 67، وإن تأخرت جنازته حتى سنة 1970.

عهد عبد الناصر من العهود التي تبين كيف يأخذ الباطل مكان الحق عندما يجعل الناس مع الله إله آخر. في ذاك العهد كانت الثورة هي الطاغوت الذي تمت باسمه الكثير من الاعتداءات على مصر والمصريين، أما الخونة فكانوا كل الذين لم يتماهوا مع الرغبات الفرعونية. ولما كان الإخوان المسلمين ممن لا يجعل مع الله إله آخر، ويسعون إلى أن تكون كلمة الله هي العليا فقد قر قرار فرعون وملأه أن يجعلوا منهم قرابين تقدم على مذبح «الثورة» و«الدولة».

ثانياً ـ اعدام عبد القادر عودة:

يقول أحمد حسين[1] (رئيس حزب مصر الفتاة) أنه قرر الفرار من مصر بعدما رأى استشراء القمع في مصر. وتمهيدًا للفرار من مصر ذهب لوداع عبد الناصر والاستئذان منه للذهاب للعمرة. وكانت فكرة العمرة مجرد غطاء لفكرة الفرار من مصر.

ويروي أحمد حسين أن عبد الناصر سأله عما حصل فعاتبه على قتل عبد القادر عودة عن جريمة لم يشهدها أو يشارك فيها، ذلك أن عبد القادر عوده كان مسجونًا أو في الإقامة الجبرية وقت الحادثة، فما كان من عبد الناصر إلا أن رد عليه قائلاً: «... **نحن لم ننظر للأمر من الناحية القانونية؛ بل نظرنا إليه من الناحية السياسية.**»

وكان هذا آخر عهد أحمد حسين بمصر عبد الناصر فقد نفذ بجلده. وفي وصف الموقف قال: **غادرتُ مصر و أنا لا أكاد أصدق أنني هربت من الجحيم الذي أصبح الأبرياء فيه يعدمون لأسباب سياسية.**

وكان على رأس الابرياء عبد القادر عودة الذي حوكم في محكمة كان الطاغوت فيها الخصم والحكم والجلاد. وكانت المحاكمة من المحاكمات التي اتخذ فيها الظلم صورة العدل (الحكم القضائي) . هذا هو معنى المحاكمات السياسية، وهذا هو المقصود بالأسباب السياسية في حديث فرعون.

في تلك المحاكمة؛ كان مجلس قيادة الثورة (فرعون وملأه) المجني عليه والقاضي في نفس الوقت! وهذا الوضع مناف لأبسط قواعد العدالة التي

(1) في مذكراته التي نشرها بجريدة الشعب المصرية سنة 1982.

لا تعطي المجني عليه الحق في أن يكون القاضي الذي يحكم على المتهم. ولم يخفق عبد القادر عودة في تنبيه المحكمة إلى ذلك قائلاً: «**أنا متهم بتهم لو صحت لكنت أنا الجاني و أنتم المجني عليكم، ولم أعرف حقًا للمجني عليه في محاكمة الذي جنى عليه. إنني لا أجد في الدنيا قانونًا يبيح مثل هذه المحاكمة، فكيف يعقل أن يكون القاضي هو الخصم والحكم؟!**»

في هذه المحاكمة كان سيد قطب أحد المتهمين وقد حكم عليه فيها بالسجن المؤبد ثم حكم عليه بالإعدام بعد عقد من الزمان. جدير بالذكر أن المحكمة التي أصدرت الحكم بإعدام عودة سنة 1954 اسمها «محكمة الشعب»، والمحكمة التي أصدرت الحكم بإعدام سيد قطب سنة 1965 اسمها «محكمة أمن الدولة»!

كان سيد مدركًا لعمق المأساة التي يمكن أن يعيشها مسلم مثله، فكتب وهو قاب قوسين أو أدنى من الشهادة: «**آن أن يقدم إنسان مسلم رأسه ثمنًا لإعلان وجود حركة إسلامية وتنظيم غير مصرح به قام أصلاً على أساس أنه قاعدة لإقامة النظام الإسلامي، أيًا كانت الوسيلة التي سيستخدمها لذلك. وهذا في عرف القوانين الأرضية جريمة تستحق الإعدام**».

هناك أجهزة طاغوتية مهمتها ملاحقة الإخوان المسلمين وتجريم نشاطهم، وتشريع إبادتهم بأبشع الطرق في محاكم هي محاكم الطاغوت وباسمه تحكم، غير ان الغافل يتصور أن الصراع بين الاخوان والنظام. والأمر لا يتعلق في حقيقته بالصراع بين الاخوان والسلطة أو الثورة كما كانت تسمى في حينها. لقد كان الصراع بين النظام الفرعوني وبين الإنسان الذي يعتقد أن له رأي وكرامة.

لقد أدرك سيد قطب أن روح الجاهلية تهيمن على مشهد الصراع الدائر بين الإخوان المسلمين والعسكر المتترس خلف أصنام الحداثة. ولم يرَ سيد في الظلم الذي يأخذ مظهر العدل في التعامل مع الإخوان سوى حكم الجاهلية «**[ف]الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض... فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده... وما مهانة الإنسان عامة... إلا أثرًا من آثار الاعتداء على سلطان الله، و إنكار الكرامة التي قررها الله للإنسان**»!

في مثل هذا النظام الذي يجعل مع الله آلهة أخرى، والسيادة فيه لعبد الناصر (فرعون) وملأه (مجلس قيادة الثورة) تتضاءل قيمة الإنسان نفسه، وبغض النظر عن موقفه السياسي، وحتى إن لم يكن له موقف سياسي. وهذا ما شهدت به واقعة أخرى من وقائع مصر المعاصرة، حيث خسر الضحية المعركة القانونية أمام كلب أم كلثوم!

لقد نهش كلب أم كلثوم أحد الغلابة (المصريين)، وبعد التحقيق انتهى وكيل النيابة الذي حقق في الواقعة إلى قرار بحفظ الملف. وقد جاء تصرفه على ذاك النحو في صيغة القرار الآتي: «**حيث أن الخدمات التي أدتها أم كلثوم للدولة كفيلة بأن تعفيها وكلبها من المسؤولية الجنائية أمرنا بحفظ الملف**»!

الدولة هنا هي الإله الذي يغفر الخطايا، وقد غفر هذا الإله لكلب أم كلثوم نهش جسد إنسان مصري يعيش في «أم الدنيا»! كان وكيل النيابة من سدنة الدولة، التي يخدمها وكيل النيابة وأم كلثوم وكلبها (كلب الست)! لم يكن للضحية أية موقف من النظام، لا سياسي ولا غير سياسي، ومع ذلك ضاعت آدميته في مواجهة كلب.

لقد خلد الشاعر أحمد فؤاد نجم الحادثة بقصيدة شهيرة بعنوان «كلب الست»، وقد ختمها ببيتين من العامية المصرية، يقول فيهما:

هيص يا كلب الست هيص　　لك مقامك في البوليس
بكرة تتولف وزارة　　للكلاب يأخذوك رئيس![1]

إذا أردنا إعادة الفاعلية للإسلام في هذا العصر فلابد من الكفر بالدولة والثورة كلما كان التشريع الصادر باسمهما مخالف أو ناقض لشريعة رب العالمين. في حالة صدور قانون ناقض للشريعة يكون مُصدر التشريع ومطبقه باسم الدولة أو الثورة أو الشعب طاغوت، وإن تعددت الأسماء والعناوين، فالطاغوت كله طاغوت: فردًا كان، أو مجموعة، أو فكرة مجردة. وربما كان الإسلاميون الأكثر تعرضًا للاضطهاد من غيرهم لأنهم المشروع الذي يعتمد في فعاليته على الكفر بالطاغوت.

الإسلاميون دمائهم حرام وأموالهم حرام وأعراضهم حرام، في شريعة رب العالمين. ومن أراد سفك دمائهم أو مصادرة أموالهم أو حرياتهم يلزمه إله يأذن له بما لم يأذن به الله! هذا الإله هو «الدولة»! وفي محاكم «أمن الدولة» يحكم بالإعدام، ومصادرة الأموال، على الذين يكفرون بالطاغوت. وتحل في هذا السياق محاكم «أمن الثورة» محل محاكم «أمن الدولة» من حين إلى آخر.

الطاغوت مكون من أفراد وأجهزة تبرر التضحية بالإسلاميين في سبيل حماية «الثورة» و«أمن الثورة» أو «الدولة» و«أمن الدولة». لقد كون عبد الناصر لجنة لإبادة فكر الاخوان المسلمين باسم حماية «الثورة»،

(1) لا غرابة في تولي الكلاب الوزارة عندما تتعدد الآلهة، لأن جوهر المهمة حراسة الطاغوت. وإذا فهمت هذه فستفهم لماذا يلهج سعادة الوزير بذكر الدولة وهو يلهث، بمناسبة وبدون مناسبة!

وقدم بورقيبة سبعين من حركة الاتجاه الإسلامي إلى محكمة «أمن الدولة» مع توصية بالحكم بالإعدام على الشيخ راشد الغنوشي.

وفي سوريا أصدر حزب الطاغوت (المسمى «البعث») ما عُرف بقانون 49 لسنة 1980، ويقضي نص المادة الأولى منه على التالي: «**يعتبر مجرمًا ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين**». وجرت طبقًا لهذا القانون محاكمات عسكرية دون تحقيق أو أدلة، ودون سماع شهود أو دفاع. كانت المحكمة تحكم في مائة وخمسين قضية في جلسة مدتها ساعة ونصف، ثم يوقع عليها للتنفيذ وزير الدفاع حينها (مصطفى طلاس)، الذي قال في حديث صحفي إنه كان يوقع على نحو 150 حكما بالإعدام أسبوعيا.

أحد المشتركين في قتل الاخوان طبقًا لرغبة الطاغوت وأوامره اعترف بقتله هو شخصيًا خمسة عشر، من الذين قدّرَ عددهم بحوالي خمسمائة وخمسين إلى ستمائة من «عصابة الإخوان المسلمين» حسب وصفه![1]

عبد الطاغوت يعلمون أن سلطانهم سيزول إذا زالت طواغيتهم، ولذا يقتلون من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله حقًا وصدقًا. والإسلام قائم على نفي تعدد الآلهة، والدولة والثورة هي آلهة الحداثة، هي الطواغيت التي لن تقوم للإسلام المعاصر قائمة في وجودها بهذه الصفة.

(1) فيما عُرف بمذبحة سجن تدمر، وقد أقر الفاعل بذلك بعد القبض عليه في محاولة اغتيال ملك الأردن (1984).

الملاحق

الملاحق شهود وشواهد على مصير الإنسان (مسلم وغير مسلم) في ظل آلهة الحداثة.

◈ **الملحق الأول.** وصف نيتشه الدولة بأنها «**الوحش الأشد برودة بين الوحوش البارد**»، وأضاف أن هذا الوحش يكذب بكل برود كذلك، ولاسيما عندما يقول: «**أنا.. الدولة.. أنا الشعب**»! محتوى الملحق الأول يبين كيف يمضغ هذا الوحش (الدولة) إنسان تونسي في تونس، حتى أن هذا الإنسان لم يجد مخرجًا من الجحيم الذي عاش فيه سوى التقدم إلى المحكمة بطلب لإسقاط الجنسية التونسية عنه!

◈ **الملحق الثاني.** قبل تقديم الطلب المذكور فيما تقدم، بأربعة عقود، توجه أحد رفاق بورقيبة برسالة مفتوحة إلى الزعيم الذي أصبح فرعونًا. الرسالة قطعة أدبية باللغة الفرنسية، وهي هنا مترجمة، وتعبر عن مدى ثقافة مصدرها ومدى رقي الحس الذي تمتع به.

الرسالة تبين بوضوح كيف تحولت تونس إلى معتقل للتونسيين، وكيف تحولت الإدارة (الدولة) في تونس إلى أداة تعذيب لا رحمة فيها لكل من يعبر عن آدميته في مواجهة «الدولة»، التي لم تكن شيئًا غير بورقيبة وادارته البوليسية. ولم تقتصر ملاحقة البوليس التونسي للتونسيين في تونس فقط، بل امتد نطاق ملاحقته إلى ليبيا والجزائر وفرنسا. ومن يقرأ الرسالة سيرى أن برميل الغضب الذي انفجر بانتحار البوعزيزي كان يمتلئ تدريجيًا منذ نصف قرن!

المثال التونسي ينطبق على كل «الدول العربية»، وله اشباه ونظائر في كل البلاد العربية.

الملحق 1

سيد الرئيس الأول للمحكمة الابتدائية بتونس

تونس في 21 /07/ 2008

الموضوع: مطلب في الإعراض عن الجنسية التونسية.

العارض: حسين بن محمد الجلاصي، رقم بطاقة الهوية 00566857

العنوان: الشوارع والأزقة التونسية.

سبق وأن تقدمت بدعوى ضد وزير الداخلية والتنمية المحلية إلى المحكمة الإدارية في مادة تجاوز السلطة وذلك برفض تمكيني من جواز سفر حتى أمارس حقي الطبيعي كمواطن وكإنسان يحق له السفر والتنقل إلى حيث يطيب له العيش على كوكب الأرض، وقد أصدرت الدائرة الابتدائية الثانية بالمحكمة الإدارية بتاريخ 3 ماي 2006 في القضية عدد 1/14487 حكما لفائدتي يقضي برفض القرار الجائر المطعون فيه لوزير الداخلية وقد أيدت الدائرة الاستئنافية الأولى بالمحكمة الإدارية الحكم الابتدائي بتاريخ 11 /12/ 2007 عدد 25859. ورغم إعلام الوزير بالحكم ألاستئنافي المذكور عن طريق عدل منفذ بنسخة تنفيذية بتاريخ 03/12/ 2008 فقد استمر الوزير في تجاهل صدور الحكم رغم إعلامه به.

وحيث أن هذا الامتناع أجبرني على التفكير بالقبول بالأمر الواقع والاستقرار في تونس إلى حين وهذا ما دفعني للبحث عن عمل قار. و حيث أنني حصلت على وعد بالعمل كسائق شاحنة سعيت جاهدا للحصول على

رخصة سياقة من الصنف المطلوب على الرغم من أن العمل كسائق لا يشكل طموحا عندي فشهاداتي العلمية أكبر من ذلك و لكن الضرورة التي اقتضتها ظروفي الاجتماعية والقانونية حتمت عليّ القبول بهذا الوضع البئيس ومن جديد حال تجاوز حد السلطة بيني وبين مواصلة السعي للوصول إلى بغيتي وهي الحصول على رخصة سياقه من الصنف المطلوب وهذه المرة ليس وزير الداخلية و إنما مدير المكتب الجهوي للوكالة الفنية للنقل البري بزغوان والرئيس المدير العام للوكالة الفنية للنقل البري، فالأول منعني من إعادة إجراء الامتحان في ولاية زغوان و الثاني أقره على ذلك و السبب هو تجنيبي مشقة السفر من تونس إلى زغوان كما جاء في التبرير الكتابي للموظفيْن المذكورين، فأخلاقهما العالية جدا هي التي دفعتهما لتجاوز حد السلطة ورفضهما تقديم خدمة عمومية من مرفق حكومي لمواطن تونسي.

وقد رفعت دعوى جزائية لدى وكيل الجمهورية بسبب هذا التعدي على حق من حقوقي الذي أقرته المواثيق الدولية فتم حفظ القضية لعدم وجود قوانين تجرم الموظف العمومي إذا رفض تقديم خدمة عامة حسبما أفادني به مساعد وكيل الجمهورية وأن كل ما أستطيع فعله هو تقديم دعوى مدنية إلى المحكمة الإدارية.

و حيث أنني أعرضت عن تقديم دعوى لدى المحكمة الإدارية و التي أعلم سلفا بأن حكمها سيكون برفض القرار الجائر موضوع الطعن وسيكون هذا بعد مضي سنوات من الانتظار وللمحكمة عذرها في ذلك إذ أن المظالم التي تحيط بالمواطن من كل حدب و صوب أكبر من أن تحيط بها المحكمة الإدارية و آليات عملها وإمكانياتها المحدودة على الرغم من أن الذين يلجئون للمحكمة

الإدارية لطلب العدل والإنصاف هم أقل القليل، وحيث أن الممارسات التي تطالني باستمرار المعلن منها والمخفي تجردني من انتمائي الوطني ومن حقوقي المدنية والسياسية كمواطن وآخرها عدم قبولي في قائمة الناجحين في امتحان الحصول على شهادة الكفاءة المهنية لسياقه تاكسي أجرة في ولاية تونس وأنا على يقين تام بأن هذا قد تم لحسابات سياسية خاصة إذا علمنا بأن جميع الذين أجروا الامتحان والذين بلغ عددهم نحو أربعة آلاف قد نجحوا جميعا ما عدا مجموعة قليلة جدا وأعيد و أكرر بأن رغبتي في العمل كسائق شاحنة أو تاكسي ليس طموحا و إنما هو ضرورة.

وحيث لا توجد عقوبات رادعة للذين يتجاوزون حد السلطة بتعديهم على أبسط الحقوق المدنية للمواطن لحسابات سياسية أو لهوى في النفس. وحيث أن الدعاوى المدنية للتعويض عن الضرر تستوجب بالإضافة إلى إنابة محام الانتظار لعدة سنوات وأن طلب الإعانة العدلية يستوجب القيام بإجراءات وتقديم مستندات ليس من السهل الحصول عليها. وحيث أن أجرة المحاماة ليست متاحة للفقراء والمعوزين وهم الفئة الأكثر عرضة للظلم والطغيان. وحيث أنني أنتمي إلى هذه الفئة المستضعفة. وحيث أن المحامين يستبعدون تنفيذ الأحكام الصادرة ضد الدولة وخاصة منها قضايا التعويض للصعوبات التي يجدونها في ذلك حتى يحصلوا على أجرتهم إذا حصل المتقاضي على حكم لفائدته.

ولذا وبناء على ما جاء في فحوى هذه العريضة وتفكري في أسباب المعاناة وجدت أن سببا رئيسيا يجعلني هدفا لهذه التعديات هو محافظتي على الجنسية التونسية لذا أطالب بإسقاطها قانونيا ورسميا بعد أن اكتشفت

بأن مفاعيل الجنسية سحبت مني واقعيا وفعليا فأنا مواطن مجرد من حقوق المواطنة ولعلي أحصل بعد ذلك على جواز سفر من المفوضية العليا للاجئين وأكون حرا طليقا ولاجئا عبر العالم على أمل أن أعود يوما ما إلى جنسيتي عندما ينزاح الظلم والطغيان وتتوفر لي أسباب العزة والكرامة. ولكم سديد النظر في هذا الطلب وجميل الاستجابة.

والسلام

الإمضاء حسين بن محمد الجلاصي

الملحق 2

رسالة أحمد التليلي إلى الحبيب بورقيبة

26 جانفي 1966

في الوقت الذي تطل علينا السنة العاشرة للاستقلال، وفي الظرف الذي يمر فيه الشعب التونسي بفترة من أخطر فترات تاريخه يفرض على الواجب أن ألح لديكم مرة أخرى على مراجعة السياسة أو على الأصح - وبدون انفعال - مراجعة طرق الحكم التي أردت بالبلاد اليوم في حالة من الخطورة تهدد يجعلها في المستقبل القريب في أفق مسدودة.

إن هذه الرسالة التي فكرت فيها وكتبتها في راحة بال لا تعني أكثر من كونها تمكنني من مواصلة إسهامي في حدود إمكانياتي المتواضعة في إنقاذ الشعب الذي من أجله تحملنا المشاق معا وتمكن في نفس الوقت من العمل على تجنيب رسالتكم النبيلة والطويلة فشلا لن يتردد التاريخ في ربطه باسمكم.

أما تفسير هذه الرغبة المضاعفة فإنّه يعود إلى العزم على مواصلة العمل لفائدة شعبنا الذي تتولون الآن شؤون مصيره وإلى الصداقة القديمة التي تربطنا والتي تدفعني الآن إلى تذكيركم بتلك العبارة التاريخية التي قلتموها أمام الديوان السياسي وعيناكم مغرورقتان دمعا يوم تحملتم مسؤوليات الحكم: «إن العمل المعهود إليّ خطير جدا لا أستطيع تحمل أعبائه بدون مساعدتكم فإذا حدث أن أخطأت فإنّ واجبكم هو أن تردوني إلى الصواب.

إن نفس التأثر الذي أحسسته حين كنت أستمع بانتباه إلى هذه الكلمات هو الذي يتملكني الآن وأنا أكتب هذه الأسطر لأقنعكم بحقيقة الأوضاع

التونسية الحالية، وبالأخطار التي تنذر بها، وبالحلول الممكنة التي يمكن توخيها بسهولة في الحال لصد تلك الأخطار.

فالحياة العمومية التونسية الحالية تبدو للملاحظ السطحي، وحتى لبعض القادة، صورة تتميز بالعناصر الرئيسية الأربعة التالية:

- حكم قوي يباشره رئيس الدولة بمفرده.
- تصرف سليم وناجع في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- رضى عام عنوانه التأييد الجماعي لكل طبقات الشعب.
- وأخيرا، الاستقرار الحقيقي والثقة الكاملة في المستقبل وهو ما يعد تتويجا للعناصر السابقة.

غير أن كل هذا ليس إلا مظاهر تخفي حقائق مغايرة لها إن لم تكن مناقضة لها، حقائق تتطلب تحليلا دقيقا وموضوعيا للحالة إذا أردنا ألا تتجاوزنا الأحداث يوما من الأيام.

وأحسن طريقة للبلوغ إلى نتيجة إيجابية هي القيام بتقييم موجز لماضينا القريب، وذلك لاستنتاج العبر التي من شأنها أن تعينكم على إيجاد الحل للمشكل.

إن نجاحنا في فترة الكفاح من أجل التحرير الوطني يعود في نسبة كبيرة منه إلى عاملين ثابتين لم نهملهما قط وسرنا دوما على هديهما في عملنا، وهما:

1. إن نظاما يفرض نفسه على شعب بالقوة ويرفض تشريكه في التصرف في شؤونه هو نظام محكوم عليه حتما بالفشل. وقد كان ارتقاؤنا إلى الاستقلال أحسن حجة على ذلك فالشعب التونسي - الذي هو من أصغر

الشعوب في العالم - استطاع أن يزحزح عن نفسه وصاية أمة من أعظم أمم الدنيا لأن نظام الحماية الذي فرض عليه بالقوة عاند في اعتبار الشعب التونسي قاصرا وحرمه حقه الطبيعي في حكم نفسه بنفسه. وكنا في ذلك الوقت نسعى إلى إقامة الدليل على عكس ذلك لأننا كنا متيقنين من نضج شعبنا ومن قدرته على تحمل كامل مسؤولياته العمومية وكان انتصاره على نظام الحماية برهانا على ذلك في مرحلة أولى.

2. لا يمكن تحقيق أي تقدّم يستحق الذكر في المجال الاقتصادي في نطاق نظام سياسي لا يكون فيه للشعب - وهو المعني الأول بالأمر - حق المراقبة، أي لا يساهم في أخذ القرارات. إن هذه النقطة بالذات هي جوهر الخلاف الذي كان قائما بيننا وبين فئات من التونسيين المخلصين الذي كان يغذّيهم سراب الأمل في تحقيق المطامح الشعبية بصورة غير مباشرة بواسطة مشاريع اقتصادية واجتماعية تتم مباشرتها وإدارة البلاد ومراقبتها ليست بأيديهم.

ولهذا السبب فشلت كل المحاولات، الواحدة تلو الأخرى، مؤكدة صحة آرائنا التي تعطي الأولوية لاسترجاع السلطة للشعب، ولتمكينه من تحقيق تقدمه بنفسه في الميادين التي كان فيها متخلفا.

وانطلاقا من هذين المبدأين الأساسيين ظهرت الحركة الوطنية في أوائل هذا القرن، ومنها استمد الحزب اسمه ومدلوله. وكانا هما أيضا منطلق إحداث الحزب الدستوري الجديد وسبب قوته وقوة ونشاطه وإقرار هياكله الديمقراطية، وأيضا سبب التفاف كل القوى السليمة في الأمة حوله في وقت كان عدد أعضائه الحقيقيين يمثلون عدديا أقل من واحد في المائة.

وهكذا استطاع أن يحقق المعجزة رغم وجود وتنوع الخصوم الذين كان التجمع الاستعماري الدهم.

لكن قيمة هذين المبدأين أخذت تتضاءل بداية من سنة 1958 من سوء الحظ لتجد اليوم نفسها مهملة تماما. ونتج عن هذا التطوّر أولا انخفاض الحماس الشعبي لدى المواطنين وحتى في صلب الحزب، ثمّ اللامبالاة فالاستسلام، فالغضب، وأخيرا العداوة المقنعة شبه العامة وبالتالي القطيعة الحقيقية والفعلية بين الشعب ونظامه.

وفي هذه المرحلة تتأكد مقارعة الظواهر المغلطة مع الواقع الحقيقي كضرورة آجلة وملحة إذا أردنا عدم الوقوع في حالة لا ينفع فيها دواء.

إن التونسيين يكادون فعلا يصفقون معا في انتخابات كل يوم بينما تردد الصحافة والإذاعة كامل النهار محاسن النظام.

لكن، إذا أخذناهم فرادى، فإنّ كلّ واحد منهم يبدي الانتقاد. وهذه الانتقادات التي كثيرا ما تجد ما يبررها، تنتهي إلى التبلور في محاور تتصل بالسياسة والاقتصاد والاجتماع لتحدث من حين إلى آخر ردود غير منظمة هنا وهناك كالمظاهرات التلقائية التي حدثت بجلاص والقيروان ومساكن وبرج علي الرايس والتي تنتهي بالقمع الدامي في أكثر الأحيان والأخطر من هذا هو العمل السري غير المراقب وغير القابل للمراقبة والمتمثل في توزيع المناشير والكتابات المناهضة على الجدران، ذلك العمل الذي قد يندرج نحو التآمر الخفي كما حدث في مؤامرة 1962 التي كادت تأتي على النظام برمته.

إلى جانب ذلك، تتطوّر خارج الحدود معارضة أخرى، لا تقل خطورة، مردها العدد المتضاعف أبدا من اللاجئين السياسيين الفارين من البلاد والذين يضاف إليهم المهاجرون الذين لم يتمكنوا من الحصول على عمل والذين يمثلون، مع اللاجئين السياسيين، هنا وهناك نواة المعارضة منظمة همها الوحيد القضاء على النظام بالعنف، وهي دائما على استعداد لتوظيف كل الوسائل التي بإمكانها استعمالها، بما في ذلك الاستعانة بالخارج.

وهذه المعارضة الموجودة بالخارج تجد نفسها فوق ذلك تتدعّم بانضمام مهاجرين إليها بصورة دائمة، مدفوعين برفضهم لظروف حياتهم التعيسة والذي زاد في حدته موقف اللامبالاة الذي تتخذه الهيئات الدبلوماسية لبلادهم. كذلك تزداد هذه المعارضة متانة ووعيا بالاتصال وبالمشاركة فيها لبعض العناصر الطالبية الذين جعلتهم السياسة الوطنية لبلدهم يشعرون بخيبة أمل ويقررون البقاء في الخارج إثر انتهاء دراستهم.

إنّ جملة هذه المعارضات التي سببها الغضب، تمثل رغم تشتتها الظاهر عامل تهديد جدي فهي تستطيع بذاتها أن تقلب النظام إذا تهيأت لها ظروف مناسبة. وهي تستطيع أن تثير، بوعي أو عفويا، تدخل قوى أخرى داخلية أو خارجية يمكن أن يكون عملها - انفراديا كان أو متضافرا مع عمل المعارضات الأولى - حاسما ليؤول إلى انقلاب يقحم البلاد في عهد تتوالى فيها الديكتاتوريات بلا انقطاع، فتصبح نهضة الشعب معرضة للخطر لعدة أجيال على الأقل.

إزاء هذه الأخطار، ما هي ركائز النظام حاليا؟ القوى الحية للأمة التي كانت مجمعة في صلب منظمات شعبية أصيلة ومنظمة وقع إبعادها أو تحويلها إلى مجرد أدوات تنفيذ، بحيث لا يمكن التفكير في رد فعل شعبي لغاية الدفاع عن النظام الحالي. وحتى إذا ما وقعت إثارة ردّ الفعل وتنظيمه للدفاع عن النظام، فإنه يكون بلا مفعول لأن الهياكل الديمقراطية التي كانت تعطيه الحركية والنشاط والحيوية وقع تحطيمها كلها وحلت محلها أجهزة إدارية حقيقية لا يهم الموظفين المعينين فيها إلا القيام بعمل روتيني يومي لأنهم لا يدفعهم في ذلك إلا واعز المصلحة الشخصية كما سنرى ذلك بعد حين. فهم سيردون الفعل بالضبط كما فعل موظفو النظام الاستعماري أمام زحف الحركة الوطنية.

إذن، بات واضحا أن النظام أصبح يعوّل أكثر فأكثر على وسائل أخرى للمحافظة على بقائه.

من ذلك أنّ المنضوين في الجيش تضاعف عددهم وزيادة بالنسبة لعدد الجنود في عهد الاستعمار. وبينما تضاعف عدد أعوان البوليس أكثر من 3 مرات فإن عدد الحرس الوطني تضاعف، بالمقارنة مع ما كانت عليه الجندرمة الفرنسية سابقا خمس مرات أو يكاد.

ويضاف إلى هذه الأعداد المساهمة الهامة للميزانية السرية للرئاسة ووزارتي الخارجية والداخلية وبعض المصادر الأخرى التي من ضمنها جزء من الأموال المخصصة لمقاومة التخلف والمستعملة من طرف الولاة لأغراض الاستعلامات البوليسية.

إن هذا الجهاز وما يسببه من نفقات لعبء ثقيل على كاهل هذا البلد الصغير الذي هو بلدنا. وهو بعمله يزيد في تعميق الشعور بالضيق عند شعب أقام الدليل بعد على قدرته على التمرد ضد مثل هذا النظام وعلى تحطيمه. فكل مواطن اليوم، مهما كانت منزلته في المجتمع ومهما كانت وظائفه السياسية هو مراقب مراقبة شديدة من طرف أنواع عديدة من البوليس تتواجه في مزايدة تفرض عليها «ابتكار» المعلومات والرقابات وتمارس بحماقة ما بعدها حماقة. وهي تمارس في الوزارات وعلى رجل السياسة والفنيين، وفي المنظمات القومية وحتى في الحزب وفي الجامعة حيث الأعوان لا يمكن حصرهم، فإنّ «الاجتهاد» بلغ إلى حد تكليف الطلبة الأبرياء بمراقبة بعضهم البعض، في نسبة 1 على 10، وبالتثبت من كل حركة يقوم بها أساتذتهم. وهكذا فتحت آفاق مظلمة أمام شبابنا الصاعد.

وفي الأرياف، فإن الولاة أصحاب السلطة المطلقة يحتكرون لوحدهم النفوذ على إدارة الجهة. فهم يملون أوامرهم التي لا تُناقش على رؤساء المصالح المحلية وحتى على الفنيين، وقد يحلون محلّهم إن لزم الأمر. ومن

الولاة من يجد لذة في تنشيط هذه الحرب بين السكان باستعمال شبكتهم الخاصة للاستعلامات، وبذلك يتدربون على تنمية مهاراتهم السياسية.

واستعمال هذه الطرق البوليسية، التي لا علاقة لها بالدفاع عن الأمن الوطني، تمارس ضد المواطنين حتى في الخارج وخاصة في فرنسا والجزائر وليبيا. وأهم سلاح في هذا النوع من النشاط هو جواز السفر الذي تضاف إليه المبالغة في استعمال الأموال السرية. إن جواز السفر حق دستوري يتمتع به مبدئيا كل مواطن. لكنه كثيرا ما يسحب من أصحابه أو يرفض منحه على حسب مشيئة السلطة الإدارية التي تتكيف بإرشادات خاطئة يقدمها مخبرون غير نزهاء.

من ذلك أن طلابا - ومن بينهم من يتنبأ لهم بمستقبل زاهر قد تستفيد منهم البلاد - يجدون أنفسهم محرومين من جواز السفر وبالتالي من إتمام دراساتهم التي شرعوا فيها في الخارج. وهكذا يقع تحطيمهم لمجرد افتراض. ويمكن أن يكون الضحايا عمالا، فيفقدون مورد رزق عائلاتهم بسبب سحب جواز السفر منهم بمناسبة قضاء عطلة بتونس، بعد أن ذكر أحد الأعوان ممن لا أخلاق لهم أنهم غير مستقيمين.

وفي البلدان الثلاثة المذكورة، توجد كتائب حقيقية من البوليس التونسي تعمل في واضحة النهار أو تكاد، ناصبة حصارا كاملا على العمال والتجار والطلبة. وهؤلاء الطلبة هم الذين يتألمون أكثر من غيرهم لأنهم إلى جانب كونهم يتعرضون للمراقبة، فإنّهم يتعرضون إلى التدخل المتواصل لهذه الأجهزة من البوليس في شؤونهم الداخلية. وتبرز تلك التدخلات بالخصوص أثناء الانتخابات بفروع الاتحاد العام لطلبة تونس قصد تزوير الانتخابات أو ترهيب الناخبين الشبان، خالقة بذلك جوا يجعل الطلبة مرغمين على الارتماء الأعمى في أحضان مختلف حركات المعارضة الأكثر تطرّفا.

وهكذا تبذر مبالغ مالية ضخمة كلّ سنة من موارد وزارتي الداخلية والخارجية بينما كان من الأجدر أن تسخّر لوزارتي التربية القومية والشؤون الاجتماعية في تحسين ظروف سكن العمال والطلبة وفي أجور أكثر عدد ممكن من الملحقين الثقافيين والاجتماعيين والسهر على مصير هؤلاء المواطنين في الخارج وأخيرا في خلق مشاريع اجتماعية لفائدتهم.

إن هذا النظام البوليسي، مهما كان نشيطا في الداخل وفي الخارج، ليس له إلا مظاهر سلبية. فهو بتعدد اعتداءاته على الحريات، يقوي الغضب عوض أن يزيله.

فليس هناك أي مواطن اليوم في مأمن من إجراء ظالم، إذ بمجرد قرار من وال في حالة قلق، يبعد الإنسان من مقر سكناه أو يوجه إلى حظيرة الهوارب بدون أي اعتبار لحالته العائلية أو المادية وبدون أن يقع النظر حتى في النواحي الإنسانية لنتائج مثل هذا القرار. وكذلك الأمر بالنسبة للموظفين - وإن كان أخف وطأة لكن حالاته أكثر - الذين يتم نقلهم من مكان إلى آخر لا على أساس قواعد مهنية وإنما حسب مشيئة السلطات الإدارية.

والداء لا ينحصر في هذه الحدود وحدها. ذلك أنّ إيقافات كثيرا ما تحدث بدون إذن من العدالة، وتبقى أكثر الأوقات مجهولة من العموم، بما أن الصحافة لا تستطيع ذكرها. وهذا يذكرنا شيئا ما بالإجراءات التعسفية الفردية في فترة شهيرة من تاريخ فرنسا. ويبقى الضحايا الموقوفون، سواء حوكموا أم لا رهن السرية وفي كثير من الحالات تبقى عائلاتهم تجهل محل إيقافهم. فمن هذه الناحية تشبه سجوننا وزنزاناتنا زنزانات القرون الوسطى الشهيرة.

كل هذا يحدث بتونس حيث التنظيم القضائي من أقدم ما يوجد في الدنيا. هذه الاعتداءات الصارخة على حقوق الإنسان تقترف بدون أي

اعتبار لهذه العدالة التي هي، مع ذلك، لا تقل مستوى عما هي عليه في أرقى البلدان مدنية.

إذن، كيف نفسر وجود هذه العدالة وهي في حالة عجز، أو على الأصح في حالة عدم تمكن من القيام بدورها في بلد يدعي أنه جمهوري ودستوره يمنحها كل صلاحيات السلطة الثالثة؟

لتفسير هذه الظاهرة وتبرير موقف العدالة في هذا المضمار، يجب الرجوع إلى مفهوم السلطة التنفيذية التي تعتبر حاليا، أنّ التفريق بين السلط الذي أقره دستور سنة 1959، أمر لا معنى له وخطأ تاريخي لتونس. فمن هنا جاءت التجاوزات العديدة للسلطة التنفيذية لمشمولات السلطة القضائية والتدخلات العمومية في حالات مضبوطة معلومة لدى الجميع. وهنالك أيضا شيء آخر وهو أن ترقيات وقعت في سلك القضاة، في بداية الاستقلال، بدون احترام القواعد الترقية وللترتيب التفاضلي، فحدثت بذلك مظالم عادت بالفائدة على قضاة اعتبروا باطلا وطنيين، وبالتالي مخلصين للنظام وأنهت عملية إهانة القضاء بالتطهير أو بإيقاف بعض أعضائه بالاعتماد على أحداث بقيت غامضة لحد الآن.

أما فيما يخص حقوق الدفاع في المجال القضائي، فإنّه يمكن القول بأنها في تونس نظرية عندما يتعلق الأمر بقضايا تكون فيها الإدارة طرفا من قريب أو من بعيد. لقد تلقى سلك المحامين ضربات قوية كانت له بمثابة الدرس، إذ ألقي القبض على عميده، وتم حل هيئة عمادته وتعويضها بلجنة تسيير معينة تعيينا، ثم ألقي القبض على عضو بارز من أعضاء هذه اللجنة نفسها وهو نائب بمجلس الأمة ومسؤول بارز في الحزب ومن أقدم المناضلين)، وأخيرا الزج به في السجن بصورة كانت تكون مغايرة لو كانت الصفة الديمقراطية للبلاد محترمة شيئا ما.

وفي نفس السياق لا يمكن للمرء أن يذكر الاعتداءات العنيفة التي تعرضت لها بقية هيئات النخبة التونسية المفكرة: أطباء، أساتذة، مهندسون، صيادلة، إلخ... إنهم إزاء الهجومات العلنية التي تعرضوا لها جميعا، لم تعط لهم الفرصة قط للرد عليها لأن الصحافة ليست حرّة. ولذلك فهم يتشبثون بموقف الاحتراز بدل أن يسموا إلى مستوى كفاءاتهم التي تحتاج البلاد إليها أشدّ الاحتياج. كذلك يختار بعضهم مغادرة البلاد إلى جهات أخرى تتلاءم أكثر مع نشاطهم. فقد ذهبت سنة 1964 بباريس إلى أحد الأساتذة البارزين في الطب للعلاج، وتمت عملية الفحص بمحضر حوالي 20 طبيبا من مساعديه وبمحضر أحد زملائه العاملين بإحدى كليات شمال إفريقيا، وأثناء الفحص تعرض الأستاذ المباشر لعلاجي إلى موضوع كلية الطب الجديدة بتونس وصرح بأنها يمكن أن تصلح وبكفاية لبلدان شمال إفريقيا الأربعة، مضيفا بأنّ إمكانياتها تسمح لها مبدئيا بذلك. وطلبت مزيدا من الإرشادات وكانت مشاغلي تحوم حول الميزانية. فالتفت إلي الأستاذ المباشر وهو من الذين يعرفون تونس والتونسيين جيدا - وقال في تعجب، وكان من حين لآخر يلتفت إلى زميله: «أما تعلمون أن لهم عددا كبيرا من الاختصاصيين يُدرّسون بكليات فرنسا في حين تستنجد كليتهم بأساتذة أجانب!» وحالما انتهى الفحص، خرجت للاسترشاد لدى الطلبة حول العدد التقريبي للأطباء الذين تحدث عنهم الأستاذ الذي عالجني وحول قيمتهم. وكان الجواب بصورة عامة هو أن عدد العاملين بالكليات يساوي الثلاثين، وأنّ أقلهم طبيب اختصاصي، وأنّ أكثر من 400 طالب في الطب، توجد نسبة مرتفعة من بينهم ممن لا يعتزمون العودة إلى أرض الوطن ومكنني اتصالي بالطلبة الآخرين من أن ألمس نفس السلوك لدى المتعاطين للنشاط في الاختصاصات الأخرى لكني لم ألق السلاح وطلبت مقابلة أحد الأساتذة التونسيين للتحدث إليه، فرتب لي موعدا مع

اختصاصي في المستشفى الذي يباشر فيه عمله بعدما تخرّج في الكلية. وأحطت علما مسبقا بأفكاره السياسية.

وجدت نفسي في محضر أستاذ عظيم يحظى بتقدير كبير في كامل المستشفى. وجوابا عن أسئلتي، قال: «لا تظنّ يا سيدي أنني باق بباريس لأنني لست موافقا على السياسة الرسمية أولا لأنني هنا أكسب مالا وفيرا كما يحلو قوله بتونس في شأن الأطباء فأنا تجاوزت في هذه المرحلة، أنا باحث. ولست مولعا إلا بمهنتي التي أريد ممارستها بحرية. وفي تونس، يمنع الإنسان من العمل حسب ذوقه. ذلك أن أي جاهل تكون له أية صفة سياسية له الحق في التدخل في الأنشطة الفنية».

وحاولت مناقشته في هذه النقطة بالتدقيق. لكنه أنهى المحادثة بقوله:

«إذا كنتم غير مقتنعين بما أقول، فما عليكم إلا أن تواصلوا بحثكم لدى الذين يفضلون مثلي عدم الرجوع إلى الوطن، وعددهم كثير جدا، منتظرين أياما أسعد». ودفعني هذا الجواب إلى مواصلة البحث. وكانت النتيجة أن وقفت بصورة واضحة على مأساة شبابنا التي تمثل مشكلا من عديد المشاكل المطروحة على بلادنا.

ولكي تتضح كلّ هذه المشاكل بصورة كاملة، يبدو من الأجدى أن نرتب المواضيع. ولنبدأ أولا بموضوع الحزب.

يجب أن نقر في هذا الصدد بأننا رغم روح الدستور ونصه وصلنا عمليا إلى نظام حكم الحزب الواحد، من غير أن نضيف عبارة المركزية الديمقراطية لتصحيح وصفه، كما فعل صانعو هذا النظام.

فالحزب الدستوري (أي الحزب القديم) والحزب الشيوعي اللذان لم يؤثرا بالمرة على الدستور الجديد لا قبل الاستقلال ولا بعده، وقع حذفهما

بجرة قلم في الوقت الذي كان تأثيرهما يميل إلى الزوال، بينما كان بقاؤهما يمكن أن يمثل مقياسا للدستور الجديد في تطوره ومرآة له في عمله لو بقي هذان الحزبان، وبفضل ما كان يمكن لهما من إبداء انتقاد، لأسهما في تجنب الأخطاء الممكنة للحزب الذي تعتمد عليه الحكومة، بدون أن يلحق ذلك أي ضرر بالحكومة، بما أنهما لا يمثلان معا نسبة 5 بالمائة من الأصوات وما يؤكّد هذه الحقيقة هو أنّ إزالتهما حصلت بعد تدعيم الاستقلال وخاصة بعد زوال كل عمل فوضوي.

نتيجة لإزالة هذين الحزبين، اندس أنشط أعضائهما، وهذا صحيح خاصة بالنسبة للشيوعيين، في هياكل الحكومة والحزب حيث يتحملون مسؤوليات هامة.

وفي هذا الصدد، يمكن لقائل أن يقول أن تحولا حصل في موقفهم. لكن سؤالا يطرح آنذاك نفسه: ما هو مدى الإخلاص الذي تمت على نحوه عملية التحول هذه؟ ما هو مدى إخلاص متحزب حمل طول حياته أفكارا مخالفة، وربما مناقضة، ثم ينضم إلى خصمه المباشر في الوقت الذي تم فيه انتصار ذلك الخصم بصورة كاملة؟ وهذا السؤال يجر إلى سؤال آخر: أي مفارقة هذه التي تجعل حزبا منحلا يؤيد سياسة نفس الحكومة التي اتخذت قرار حله، وينشر مواقفه التأييديّة؟ أو أية صدفة هذه التي تجعل حكومة، لتبرير جزء من سياستها لدى الرأي العام، تحاجج علنيا بمواقف الحزب اللا قانوني إزاء بعض القضايا، بعدما أزالت هي ذلك الحزب؟ إنه لواضح تمام الوضوح أن الجواب عن هذه الأسئلة يكمن فيما سبق عرضه.

وهذا ما يقودنا بصورة طبيعية، إلى معالجة وضع حزبنا الحزب الدستوري الجديد.

فمنذ 1958 أخذ الحزب الدستوري الجديد يتغير التغير السيئ مع الأسف. من ذلك أنّ إلغاء طريقة الانتخابات في اختيار المسؤولين الجهويين شكل الضربة الخطيرة الأولى التي تلقاها والتي بدأت تهدد صحته. وفعلا، فقد تم إدخال هذا الإصلاح وتطبيقه قبل انعقاد مؤتمر 1959 ببضعة أشهر، وتمثل ذلك في حل الجامعات وتعويضها في كل جهة بمندوبية جهوية تعينها القمة ولها كامل السلطات.

كانت هذه العملية درسا خطيرا وفظيعا للنظام الداخلي للحزب الذي لا تقبل هياكله التحوير إلا من طرف مؤتمر قانوني. وكانت أيضا ضربة خطيرة جدا للديمقراطية في صلب الحزب.

وهكذا وضع مؤتمر سوسة أمام الأمر المقضي ولم يقدر على مواجهته لأنه أعد من طرف هؤلاء المندوبين، أي أنهم هم الذين تولوا اختيار المؤتمرين أو وافقوا على تعيينهم.

ثم تواترت مدة طويلة تهاطلت خلالها العقوبات الكثيرة على المناضلين باسم الديوان السياسي الذي لم يخبر أعضاءه بتلك العقوبات إلا في اليوم الموالي بواسطة الصحف. ولم يكن لهؤلاء المناضلين أي ملجأ بما أنّ مجلس التأديب المنصوص عليه بالنظام الداخلي لم يجتمع قط وإنّ المعنيين لم يقدروا حتى على الإدلاء برأيهم.

وفي 1964، كانت الضربة القاضية للحزب. فقبل انعقاد المؤتمر (بنزرت) ولوضعه أمام الأمر المقضي مرة أخرى، تقرّر تعويض المندوبين بالولاة، ورؤساء الجهات، وعهد إليهم بالإشراف على الحزب في جهاتهم. إنّ هذا الأمر لم يحدث أبدا في ما يمكن أن نسميه حزبا بنزاهة.

وأكثر من ذلك، انتهى المؤتمر بانتخابات لم تفض إلى تعيين أعضاء الديوان السياسي إنما تم تعيينهم بعد بضعة أيام، لا على قاعدة نتائج الانتخابات ولكن على قواعد أخرى. وأصبح الديوان السياسي الموسع، الذي أطلق عليه فيما بعد اسم اللجنة المركزية يضم الوزراء والولاة ومديري الإدارة وحتى رؤساء البوليس والحرس الوطني.

وهكذا أصبح الحزب يتركب في كل مستوياته، من مواطنين بسطاء يمكن وصفهم بالمدنيين، ومن الموظفين ذوي السلطة، الذين يمتلكون كل الوسائل، ويستطيعون على الأقل إخضاع الأولين.

كيف بعد هذا نعجب من اختفاء روح الصراحة في صلب هذا الحزب الذي انكشف عجزه بكل وضوح بمناسبة اكتشاف مؤامرة 1962 في هذه المناسبة بهت الجميع، وفي مقدمتهم الحزب. والاستنتاج الواجب استخلاصه، والذي كان يجب استخلاصه في الإبان ولم يقع ذلك للأسف، على إثر المؤامرة، هو أن الحزب كحزب لم يعد موجودا.

يمكن أن نسميه جهاز تنفيذ، أو إدارة دعاية، أو أي شيء آخر، لكن لا يجوز تسميته حزبا بالمعنى الصحيح للكلمة، إذ كيف نطلق على جسم لا يتحرك، إذ لا روح فيه تحركه اسم حزب؟ ولأنه فقد حرية الحركة، فقد بالتالي محركه الذي يسمى الإيمان. إنه لا يتحرك إلا إذا وقع تحريكه من فوق. فجدوى وجوده بالذات أصبحت في الظرف الراهن، محل إنكار لأنه يقوم بنفس العمل الذي تقوم به بعض المصالح الإدارية الحكومية.

ونتيجة لتركيبته، أصبح النقاش مستحيلا إطلاقا داخل هياكله وفي هياكل المنظمات الوسيطة والقاعدية.

وهل يعقل أن توجد الصراحة وحرية التعبير في اجتماع يضم إلى جانب المواطن البسيط، الموظف القوي الذي يخضعه لإرادته والذي يستطيع إبعاده وحتى سجنه متى أراد؟

إن كل ما قيل ينطبق أيضا على الديوان السياسي الذي يستحق أن نتوقف عنده قليلا لأنه يبدو أنه يتحمل مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع.

عليّ أن أبدأ بالإعراب عن إكباري لقيمة ونزاهة كل الإخوان الذين عملت معهم بالديوان السياسي سنة 1955. لقد كانت هيئة في منتهى التفاني في خدمة الحزب والمصلحة العامة للبلاد، وكان أعضاؤها في تكاملهم يكونون تشكيلة منسجمة وكفأة لا يقل مستواها عن آية تشكيلة مماثلة في الأحزاب العصرية.

فلو بقي هذا الديوان السياسي مواصلا لاجتماعاته بانتظام ولمناقشته للمشاكل الكبرى للحزب والبلاد، لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم لكن اجتماعاته مع الأسف بدأت منذ تسلم السلطة تتناقص شيئا فشيئا إلى أن كادت تنقطع تماما.

إن كلامي هذا يعني الديوان السياسي ككل، بحضور الأمين العام وبالخصوص الرئيس، إذ في مثل هذه الاجتماعات، وفيها فقط تؤخذ القرارات. لكن مثل هذه الاجتماعات تعد على الأصابع، وكانت تعقد بصورة تكاد تكون مطلقة للمصادقة على قرار حكومي ذي خطورة كبرى أخذ خارج الحزب، أو لرفت أحد الإخوان من أعضاء الديوان السياسي بمقتضى الفصل 16 الشهير الذي يسمح لأعضاء الديوان السياسي برفت بعضهم البعض، أو على الأصح، يسمح للديوان السياسي برفتهم الواحد تلو الآخر حتى آخرهم.

وإلى جانب قلتها، كانت هذه الاجتماعات لا تدوّن في محاضر جلسات ولا تشتمل حتى على جدول أعمال مسبق، لدرجة أننا كنا في جل الحالات، عدة إخوان نتساءل عند تناول النقطة أو النقاط التي سنتناقش فيها، بما أننا كنا نحضر بدون ملفات معدة مسبقا، لنجد أنفسنا في وضع غير مرض حيث يرغم كل أحد على ارتجال مساهمته في النقاش بأفكار جديدة قد تخطئ وقد تصيب.

هذه الأسباب جعلت الديوان السياسي لا يقدر على القيام بدوره المعهود له بصورة طبيعية.

إنه لمن المحزن بل ومن المؤلم جدا أن تكتب مثل هذه الحقائق، لكنه من اللازم أن نراجع نقط الضعف إذا توفرت لدينا إرادة التحسين والرغبة فيه.

على أنه يجب الاعتراف، والأمر يتعلق بالديوان السياسي دائما، بأن الرئيس يقوم باستشارات فردية، لكن هذا النظام فاسد من الأساس، ربما أن الاستشارة لا تمس كافة أعضاء الديوان السياسي، وبما أنها خاصة تنفي مقارعة الآراء. ومن هنا جاءت الأخطاء والمسائل الشخصية والانقسام في صلب تشكيلة مكونة من البداية من إخوان ينتمون إلى جيل واحد، عاشوا معا، وكافحوا معا، وتألموا معا وتبادلوا نفس الإحساس مدة طويلة. وهذا الانقطاع في انسجام التشكيلة حدث بدون أن يشعر به أحد لكنّه كان فعليا. وهناك عنصر آخر كان له الدور الحاسم في تعقيد الأمور والذي يمكن أن نصفه بكونه أمرا غير عادي على الأقل، وهو الجمع بين المسؤوليات: مسؤوليات عضوية الديوان السياسي مع المسؤوليات الوزارية في نظام رئاسي، إذ كيف يعقل أن يتولى وزير - وهو المسؤول دستوريا أمام الرئيس فقط الذي يستطيع أن يعزل متى شاء - تسطير السياسة التي يجب على ذلك الرئيس إتباعها في

الحكومة كيف يمكن أن يكون الإنسان مشرعا ومنفذا في الوقت نفسه أمام نفس الشخص؟ هذه هي إحدى المظاهر الشاذّة للأنظمة الرئاسية المعتمدة على نظام الحزب الواحد، الحزب الذي يجب مبدئيا أن يكون هو مصدر السياسة الحكوميّة.

هذه العوامل كلها، التاريخية والشخصية والدستورية، تفسر اضمحلال الديوان السياسي - وهو أمر يؤسف له - كهيئة وكأشخاص.

وبدون اتهام أي كان يمكن التأكيد دون الوقوع في الخطأ، بأن هذه الطاعة الفظيعة هي التي كانت سببا في كل الضرر الذي تشكو منه البلاد اليوم، وهو ضرر ناجم عن فقدان قوة سياسية - هي الحزب - قادرة على تسطير سياسة متناسقة وعلى متابعتها في التطبيق.

ذلك أن الفراغ السياسي الناجم عن الركود في الحزب لم يقع عمليا سده لا بالمنظمات القومية التي يغلب عليها الطابع المهني ولا بوجود مؤسسات صالحة وناجعة.

إن المنظمات القومية الهامة أربع هي: الاتحاد العام التونسي للشغل، والاتحاد العام لطلبة تونس والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والاتحاد القومي للفلاحين التونسيين.

إن المنظمة الفلاحية هذه -التي أسست لتحل محل الاتحاد العام للفلاحين التونسيين الذي خرج عن الصف- كانت انطلاقتها سيئة فلم تستطع أن تعطي الدفع اللازم للفلاحين لأسباب عدة عطلت عمل الإطارات، ومن بينهم من هم على غاية من الكفاءة.

أما الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة، وقد عُهد إليه بتعبئة المبادرات الخاصة للإسهام في التنمية الاقتصادية بصفة ناجعة في عهد الاستقلال، فقد وجد نفسه هو أيضا، منذ البداية، معاقا بحكم حرمان الغرف الاقتصادية من أهم الصلاحيات الموكولة إليها. وترجع المصاعب التي عرفتها هذه المنظمة أيضا إلى الطابع التسييري والمضطرب الذي ميز سياسة البلاد الاقتصادية في السنوات الأخيرة والذي لم يقدر أحد على إصلاحه بسبب انعدام حرية التعبير. وأخيرا، أذكر التدخلات المتتالية في الشؤون الداخلية لهذه المنظمة، والتي تجسّمت بالخصوص في تعيين مديرين غرباء عن المهنة على رأسها، فكانت العملية التي أو هنت عزيمة قادتها وجعلتهم يقبلون بأن تقوم المنظمة بدور صوري.

وفيما يخص الطلبة، فإنّ الأزمة المتواصلة التي عرفها الاتحاد العام لطلبة تونس منذ بضع سنوات لهي أعمق ما تبدو عليه إذا عالجناها من أصلها فقد استقرت منذ الاستقلال عادة تقضي بمنح قادتها المتتالين مناصب هامة بدون اعتبار لكفاءتهم ومقارنتها مع كفاءات رفاقهم. فكانت نتيجة هذه السياسة تأكيدا لقولة شهيرة لرجل دولة: «إذا كان هناك منصب شاغر ومائة مترشح له، نخلق عائقا و99 غاضبا».

وهذا المعطى، بالإضافة إلى التحديد المتزايد للحريات غرس في طلابنا شعورا بالحيرة يكبر يوما بعد يوم. وقد تفطن نظام الحكم إلى هذا الشعور لكن الوسائل التي استعملها في سعيه للعلاج فاقت مضرتها المرض نفسه، وكانت النتيجة أن خلق من لا شيء هو مشكل الشباب في مجموعه.

وفعلا فقد رأى نظام الحكم أنه من الأنسب أن يخترق اتحاد الطلبة ويهيمن عليه بإحداث فرق خاصة في صلبه تابعة مباشرة للحزب. وتوج هذه

العملية بإدماج مختلف منظمات الشباب بما فيها الكشافة، في تشكيلة قومية واحدة تتلقى أوامرها من فوق. إن هذا الضم المفروض، إذا اعتبرناه حتى من وجهة النظر التكتيكية الصرف، يؤدي حتما إلى توسيع دائرة الغضب وإلى إفساد عقلية الشباب عموما، وحتى المنضوين منهم تحت لواء الشبيبة الدستورية التي أعربت بعد عن غضبها من هياكل الحزب.

ذلك أنّ التبصر في أبسط مفهومه يملي علينا أن نترك للشباب أكبر قد ممكن من الحرية، إذ بدون ذلك لا يستطيع أن يتفتح وينمي كل ملكاته الطبيعية. إن الحكمة كل الحكمة تكمن في حسن التقدير ولابد في هذا المجال من التمييز بين التوجيه الرصين والاستبدادية التي تولد الثورة.

فنحن نكتشف ميولا مختلفة في صلب العائلة الواحدة المتركبة من عدة إخوان شبان رغم كونهم من نفس الأبوين ويعيشون في نفس الوسط. فهذا تستهويه السياسة وذاك تستهويه الفنون والثالث يفضل الرياضة والرابع مولع بالعلوم والخامس يميل إلى العزلة، إلخ... فالأمر يتعلق باحترام شخصية كل فرد مع اعتبار طبعه ومؤهلاته الطبيعية إذا أردنا أن نتحصل من كل واحد منهم على كفاءات أوسع لأنها نمت وترعرعت بحرية، بدل العمل على صوغهم في قالب واحد. إن هذا التنوع المقام على التكامل قد يكون العنصر الأهم في تحقيق الانسجام لمجتمعنا في المستقبل لأن الشباب الذي يتربى بالاعتماد على احترام شخصيته بفضل الحرية التي تمتع بها في سن المراهقة يحترم أكثر حرية الآخرين في طور الكهولة، أما إذا تربى على عكس ذلك، فإن نزعة مبكرة للاستبداد والفاشية تتكون لديه كرد فعل عكسي أو بحكم العدوى.

هذه هي الأسباب التي تجعل الإنسان - بدون أن يكون من كبار المربين - يؤمن بضرورة حرية الشباب قصد تجنيب مستقبل البلاد مخاطر تكوين أساسه الاستبداد المطلق.

كذلك في مجال آخر نرى أن البوادر التي نستكشفها عند الشبان الذين بدأوا يواجهون الحياة منذ بضع سنوات ليست مشجعة. فموقف الشباب العامل إزاء المصلحة العامة غير مرض في جملته وهو يتميز بالخاصيات الثلاث الآتية: الوصولية، اللامبالاة أو العداء إزاء النظام. وبين الخاصيات الثلاث، لا نجد موقفا آخر كالمثالية الصادقة التي تولّد التفاني في خدمة المصلحة العمومية مع نكران الذات. لماذا؟ لأن قيم المساواة والعدالة لم يقع احترامها عند انتداب هؤلاء الشبان أو بمناسبة ترقيتهم، أي عند دخولهم معترك الحياة. وبدل أن تطبق عليهم جميعا مقاييس مستمدة من قيم العدالة والمساواة، كالامتحانات والمناظرات، اعتمدت اعتبارات شخصية أو عائلية، بل وحتى الإخلاص المزعوم. وبلغ هذا الأمر حدا جعل كل واحد يعلم أن الموظفين الجدد العاملين بالإدارات والمؤسسات العمومية أو شبه العمومية يكادون يكونون كلّهم منتسبين إلى نفس المدينة أو نفس الجهة أو نفس العائلة الفكرية. أي بعبارة أخرى نجد في كل مكان «زبائن» هذا الرجل السياسي صاحب النفوذ أو ذلك ما عدا بعض الاستثناءات.

إن هذه المظالم التي تحدث في بلد يمثل فيه العمل في الوظيفة العمومية امتيازا، يتم التعليق عليها في كل الأوساط، لكن الأهم من التعليق هو التأثيرات الخطيرة التي تتركها على معنويات الشبّان، سواء كانوا عاملين أو مزاولين لدراساتهم: فبعضهم يبدي الارتياح ولم يشبع نهمه، والآخرون يبدون الغضب ويتحصنون باللامبالاة التي سريعا ما تؤول إلى معارضة.

وهناك ظاهرة مماثلة وإن كانت في معانيها أكثر عمقا وهي التي تتعلق بالبلوغ إلى المسؤوليات السياسية: فجل الشبان الذين عرضوا حياتهم المهنية وبعض الأحيان أرواحهم للخطر بنضالهم في صفوف الحزب أثناء دراستهم الثانوية أو العالية والذين تربوا في الحزب وتحملوا فيه جسيم المسؤوليات

طيلة سنوات، ابتعدوا عنه اليوم، أو على الأكثر لم يبقوا مشدودين إليه إلا بانخراط صوري في إحدى الشعب بدون أن يبذلوا جهدهم المعهود. فبعضهم يسخّر كل طاقاته لعمله الحر بينما البعض الآخر يقبل بعمل عادي في إدارة أو مؤسسة. وهكذا خسرهم الحزب.

والحقيقة هي أن هذا الصنف من الشبان الذين كسبوا، مع شهاداتهم الجامعية، تكوينا سياسيا متينا صقلته سنون النضال الطويلة، فضل عليهم في - الحزب - شبّان آخرون من جيلهم أو حتى يفوتونهم سنا، جاؤوا من خارج الحزب وينتمون إلى آفاق مختلفة. وتفسير هذه الظاهرة هو الآتي:

بما أن الحزب تحوّل إلى جهاز تعين القيادة العليا موظفيه، لم يعد به مكان للمثقفين المناضلين الراغبين في العمل فيه والناشدين البروز لأن الآفاق سدت بإحكام. وترك المجال مفتوحا للآخرين ومن ضمنهم بعض الآتين من أحزاب أخرى وحتى بعض العملاء للعهد السابق. هؤلاء - هم يعتقدون أنفسهم أكثر فطنة من الأولين - يعتبرون أنه من الدهاء أن ينسجموا مع الواقع الجديد بالدخول في هياكل النظام كما هي، لإرضاء مطامحهم المادية والأدبية، وذلك بدون أن يؤمنوا بالنظام أو برجاله بل يفكرون في إزاحتهم في أول فرصة مناسبة. هذا في الوقت الذي مازال الشبان من الصنف الأول يحتفظون - رغم ابتعادهم عن الحزب - بشيء من التعلق والحنين إلى ما كان عليه حزبهم وإلى قادته القدامى.

باختصار فإن كل المعطيات اليوم بالنسبة لمشكل الشباب تغيرت ولا بد من مراجعة الأمر بسرعة مراجعة كاملة وعميقة بدون إهمال أي عنصر من العناصر التي تنتمي إليه من قريب أو بعيد. على أن هذا المشكل العويص لا يمكن فضّه ما لم يتوفر العزم على منح كل الشبان حظوظا متساوية في

تنافس صريح ونزيه، مع اتخاذ الحكم لموقف عادل وغير منحاز، موقف من الأكيد أن يوفر للشبّان أكثر ما يمكن من الحرية.

إن هذه القواعد يفترض تطبيقها في كل مجالات الحياة العمومية بما فيها المجال النقابي العمّالي.

لقد عرفت الحركة النقابية العمالية التونسية ثلاث أزمات عطلت سير انطلاقتها في أقل من 9 سنوات من الاستقلال. وتعود الأزمة الأولى إلى سنة 1956. وقد تسبب فيها بصورة علنية الحكم الذي لم يمض طويل وقت على ميلاده إذ تدخل هذا الحكم في خلاف داخلي ليحدث الانشقاق ويشجعه علانية مدفوعا في ذلك بعوامل لا يمكن تبريرها، بما أن هذا الخلاف كان يمكن فضه داخل المنظمة النقابية بالذات ومن طرف النقابيين أنفسهم. وحدثت الأزمة الثانية في سنة 1963، حيث تدخل الحكم مرة أخرى ليغير تركيبة الهيئة المديرة للمنظمة بطرق ادعى أنها ديمقراطية. وأخيرا في جويلية 1965، فقد الاتحاد العام التونسي للشغل حرية عمله ومظهره.

إن التفسير المفصل لهذه الأزمات ومواجعها وأسبابها العميقة، وكيفية جريانها ومسؤولية كل فرد طيلة الأعوام التسعة يعني كتابة تاريخ الحركة النقابية التونسية في جزئه الأثري أحداثا. لذلك يكون من الأجدى الاقتصار على التأكيد مرة أخرى بأنّ المصائب التي عرفتها الحركة النقابية التونسية ترجع إلى الوضع العام المتميز بانعدام النقاش حتى في أعلى مستوى بين القادة السياسيين الوطنيين، وترجع هذه الأزمات الثلاث في الأصل إلى تواجد جماعات تحركها مصالح، جماعات تتغير كثيرا لكن لها صفة مشتركة: تقديم المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العليا للأمة.

إن أي تبرير آخر لا يمكن أخذه مأخذ الجد. ومن السهل تبيين ذلك إذا أردنا التوسع في هذا الموضوع فكل المؤاخذات العلنية التي وجهت للحركة النقابية بتونس لا يمكن أن تصمد. بل إنّ كل ديمقراطي أصيل، وكل سياسي متبصر، يعتبر، عكس ذلك، أن احترام المنظمة النقابية التونسية أمر لابد منه، ذلك لأنها تضرب بجذورها في الحركة النقابية الألمانية في الفترة البطولية للحركة الاشتراكية الديمقراطية التي ظهرت في بداية القرن. وإنها أخذت عن المنظمات النقابية الأولى في العالم الثالث أسلم طريقة لتحرير الإنسان من كل المكبلات السياسية والاقتصادية ولضمان تقدمه الاجتماعي. وقد قامت بعملها دائما بدون حقد ولا مركبات. وكل الأحكام الأخرى الملصقة بها لا تتماشى والواقع المعيش.

وهذا الواقع هو مساهمة الاتحاد العام التونسي للشغل في التحرير الوطني، وهو سعيه إلى العمل لإكساب تونس المستقلة إدارة عصرية، وهو مساهمته الفعلية الإيجابية في بناء اقتصاد وطني ديمقراطي أكثر ما يمكن، وهو عمله المتواصل في تحقيق السعادة والسلم والحرية لكل الناس بدون أي ميز بينهم. والواقع أيضا بالنسبة لتونس الحديثة هو السلم الاجتماعية المستقرة بفضل الحركة النقابية، رغم انعدام التفاوض مع الأعراف ورغم الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة في الميدان الاقتصادي.

فتشبيه الاتحاد بالنقابات المسماة بالثورية التي تريد فرض دكتاتورية البروليتاريا، حجة لا يمكن أخذها بعين الاعتبار لأنها لا علاقة لها بفلسفة الاتحاد بالمرة. بل لا يمكن أخذها بعين الاعتبار إلا من طرف الذين يريدون تحويل الاتحاد إلى جهاز تبليغ فقط. كما هو الشأن في البلد الذي تسود فيه هذه الدكتاتورية المزعومة للطبقة العاملة. إن الاتحاد العام التونسي للشغل الذي كان القوة الثانية في الأمة بعد الحزب، عرف نفس المصير الذي تردّت

فيه بقية المنظمات القومية الأخرى. إن النتائج ستكون خطيرة جدا لأن المال الذي آلت إليه هاتان القوتان خلف فراغا كبيرا. والطبيعة تمقت الفراغ الذي يمكن أن يسد من حين لآخر...

فإذا آثرنا موضوع التمثيل الوطني، فإنّه يكون من السهل التأكيد بأن مجلس الأمة ليس إلا صورة مشوهة لما أقره الدستور. إنّ تمثيل المواطنين يعكسه شعور الخيبة والحزن بعد الآمال التي غذّاها الاستقلال.

لقد كان المجلس التأسيسي يتمتع بثقة أكثر من طرف الشعب رغم كونه انتخب في ظروف صعبة بالنسبة للبلاد. فقد تمت عملية انتخابه سنة 1956 في نطاق تعدد الأحزاب وفي جو من الحرية الواسعة. فقوائم الجبهة الشعبية أعدت بطريقة جماعية وبعد استشارة ديمقراطية للقاعدة في كل منظمة قومية. وإلى جانب ذلك، قدمت قائمات منافسة في كثير من الدوائر، ثم كانت الانتخابات التشريعية الأولى التي تمت في ظروف أسوأ من انتخابات المجلس التأسيسي على إثر التقسيم الإداري وتغيير القانون الانتخابي في اتجاه الصرامة. فالقائمات تم إعدادها من طرف الحزب، لكن الديوان السياسي ناقشها وإن لم تقع استشارة المنظمات القومية أو القاعدة بصورة جدية. أما الانتخابات التشريعية الثانية التي جرت في نوفمبر 1964، فإنها كانت نهاية الديمقراطية. ولم تتقدم أية قائمة منافسة بعد حل الأحزاب. وحتى الديوان السياسي لم يستطع درس القائمات المرشحة باسم الحزب. فكان يجعل أين أعدت هذه القائمات وكيف أعدت ومن أعدها. ولم تقع استشارة المرشحين رؤساء القائمات في تشكيلها. وهكذا أصبحنا ننظم أغرب انتخابات في الدنيا بعد 9 أعوام من الاستقلال، كان أولى أن تسجل أثناءها الديمقراطيّة أشواطا في طريق التقدم بعد تدرب الشعب على ممارستها.

كان بعض الحزبيين، ومن ضمنهم مرشحون، يتساءلون فيما بينهم لماذا تنظم الحكومة انتخابات لماذا كل هذه المصاريف وكل هذه المشاق للإتيان بالناخبين ودعوتهم إلى وضع الورقة الوحيدة التي على ذمتهم في صندوق الاقتراع بدون آية إمكانية في الاختيار؟ فاعتبارا إلى أن اختيار النواب يتم مسبقا، فإنه من الأجدى تعيينهم بأمر وبربح الوقت والمال والجهد لما فيه خير الشعب بأسره. وذهب بعضهم أثناء هذه الأحاديث إلى وصف أحد الأنظمة العسكرية بالتعقل لأنه يترك لأعضاء حزبه الواحد حرية التنافس في الانتخابات النيابية قصد التعرف على الأكثر تمثيلا من بينهم. وهم بالطبع يبرزون هكذا الفارق بين النظامين لفائدة النظام الآخر لا لفائدة النظام التونسي.

وقد رأيت شخصيا مشهدا يدل بوضوح كامل على الكيفية التي يحكم الشعب بها على انتخاباتنا. حدث ذلك في مكتب اقتراع نسائي بإحدى قرى دائرتي: دخلت امرأة مكتب الاقتراع وبعد التحية والانتظار جاء دورها فوضعت على المكتب بطاقات لخمس ناخبين «جئت لأصوت لنفسي ولأربع جارات لي. فقد اضطررن للبقاء بالمنزل لإعداد الطعام قبل عودة أزواجهن من الحقل، بالإضافة إلى أن لهنّ أطفالا».

- فأجابتها رئيسة المكتب: «التصويت فردي، ولا يجب أن يصوّت إنسان إلا لنفسه».
- فقالت المرأة: «ليس هناك أي فرق».
- أجابت الرئيسة: «لا الأمر ليس نفس الشيء، فالانتخاب واجب وطني على كل تونسي أن يقوم به شخصيًا، فيجب على جاراتك أن يتعلمن التصويت فقولي لهن بأن يأتين مثلك».

➢ قالت المرأة: «لكنهنّ صوّتن قبل يا سيدتي مثلما نصوت اليوم: إنهن يعرفن وضع ورقة في الصندوق، وأنا سأفعل ذلك نيابة عنهن».

➢ قالت الرئيسة: «لا يا سيدتي، القانون يمنع ذلك ويجب على جاراتك أن يؤدين واجبهن الوطني».

➢ قالت المرأة: «واجبنا الوطني، نحن نعرفه ومنذ زمان أما تذكرين، لما قام الجيش الفرنسي باختراق حينّا، فأحرقت منازلنا واستنطقنا من قبل أعوان الجندرمة أنا وجاراتي بينما كان أبناؤنا يبكون؟

➢ قالت الرئيسة: «نعم يا سيدتي، هذا واجب آخر يجب القيام به».

➢ قالت المرأة: «أي واجب؟ ينادوننا ويحملوننا مشاق لا فائدة منها. فأنا نفسي لن آتي في المستقبل مثل ما فعلت الأخريات».

➢ ثم نظرت إلي وأضافت قائلة: «إنّي أرفض أن أقوم بهذا العمل حتى هذه المرة».

وأخذت البطاقات الخمس وانصرفت.

وخرجت بدوري من المكتب مضطربا وقررت إنهاء جولتي. والتقيت بصديق في طريقي فقصصت عليه المشهد الذي عشته.

➢ فضحك وقال: «هذه المرأة مجنونة. إنّها تعلم أنّ هناك من يصوت في مكانها إذا لم تتول هي التصويت بنفسها».

➢ فقلت له: «كيف ذلك؟»

➢ قال: «الأمر على غاية من البساطة، إذا كان عدد المقترعين ضعيفا. تملأ الصناديق لتظهر النسبة طيبة».

وتوجهت في الحين إلى الوالي وطلبت منه أن تعطى التعليمات لئلا تقع مثل هذه الأعمال. فطمأنني وقال إن الأمر حدث فعلا في نطاق ضيق وإنه نبه كل مكاتب الاقتراع بوجوب عدم تكرار أخطاء الانتخابات السابقة وأنه لا يعتقد أن العملية ستتجدد.

وفي المساء رويت كل ما حدث في النهار لرفاقي المسؤولين بالشعب وكان ذلك في نادي الحزب.

- فقالوا: «إنك حقا تجهل كل شيء».
- قلت: «ما الأمر إذن؟»
- قالوا: حشو الصناديق عملية كثيرا ما تحدث بما أن النواب المترشحين لا يريدون حضور عملية عد الأصوات. ولماذا هم يضيعون وقتهم بما أنه لا وجود لقائمة منافسة؟ أتذكر لما قدمت قائمة شيوعية في جهتنا، رابط أصدقاؤنا بالمكتب ولم يبارحوه بالمرة. كنا وخصومنا ننظر إلى بعضنا البعض نظرة المتنازعين. أما الآن فقد زال النزاع بزوال المتنازعين.

وأراد مخاطبي - والذي يتحدث بلهجة لا هي جدية ولا هي هزلية - أن يزيد في مضايقتي، فقال: «هناك أيضا تكييف نتائج الانتخابات وهو يتمثل في جعل السيد الرئيس يتحصل في مستوى الولاية، على أغلبية الأصوات وفي جعلك أنت مثلا تتحصل، لأنك على رأس القائمة على أكثر من رفاقك في القائمة.

كان لهذا الكلام أسوأ الوقع عليّ. وبينما واصل رفاقي حديثهم وكنت لا أفقه ما يقولون رجعت بي الذاكرة إلى ذات يومٍ كنا أنا وبعض الأخوة من الديوان السياسي مجتمعين حولكم بقصر الرئاسة، وقد أثرنا موضوع الثورة الجزائرية التي كانت في بداياتها. لقد لاحظتم وقتها بعد فترة من الصمت

قائلين: «ولنذكر أنّ هذه الحرب اندلعت لأن الجزائريين خدعوا دائما، وخاصة بتزييف الانتخابات».

إن هذه العبارة مازال صداها يتردد في ذهني.

ومنذ أسبوعين تقريبا، وعلى إثر محاضرة ألقيتها بجامعة كاليفورنيا الجنوبية حول الأحزاب الواحدة في العالم الثالث، تهاطلت عليّ الأسئلة وكنت أجيب عنها بكل سهولة. ولما اقتربنا من النهاية، قام أحد الحاضرين - وقد لازم الصمت مدة النقاش . وألقى عليّ سؤالا وعلامة الانتصار بادية على وجهه، انتصار الذي يلقي سؤالا تعجيزيا. قال: «أخبرت وكالات الأنباء هذا الصباح عن حدوث مؤامرة تبعها انقلاب في نيجيريا أكثر البلدان ديمقراطية في إفريقيا وربما في العالم الثالث. كيف تفسرون هذا الحدث والحال أن نظام الحكم بنيجيريا ليس نظام الحزب الواحد».

➢ أجبته: «لست على علم بهذه الأحداث التي ذكرتها لي، لكن الجواب عن سؤالك سهل. لقد وقع تزوير الانتخابات منذ عام ونصف تقريبا في نيجيريا وتواصلت أعمال التزوير منذ ذلك الوقت. إن خداع الشعب لا يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية له».

ولنرجع الآن إلى مجلس الأمة التونسي ولنقر أنه لا يملك شيئا من السلطة التشريعية الحقيقية. فهو مورد ارتزاق بالنسبة للبعض ومكافأة بالنسبة للبعض الآخر لكنه يمثل بالنسبة لبعض النواب الأمل في إحلال الديمقراطية وهو أمل يتلاشى من يوم إلى يوم وللأسف الشديد.

فالمجلس النيابي لم يناقش لحد الآن نصا واحدا قدمه ببادرة منه، والحال أن له أن يفعل ذلك تماما مثل الحكومة. ومع ذلك هو قدم في البداية ثلاثة مشاريع، لكن السلطة التنفيذية لم تتابعها. ولاحظ النواب الذين تلقوا

نسخة من تلك المشاريع لاحظوا سكوت الحكومة وفهموا جيدا وأدركوا غاية الإدراك خاصة وأن أخطر القوانين وأهمها حيوية بالنسبة للبلاد اتخذت بكل عجلة في المجلس التأسيسي الذي لم تكن صلاحياته تشتمل على التشريع. وفهموا أيضا لما لاحظوا أن جل القوانين تسن أثناء عطلة المجلس في صيغة الأوامر - قوانين، وتتم المصادقة عليها فيما بعد. لقد رفض نص حكومي واحد منذ أن وجدت الحياة النيابية. ورغم ذلك، كان هذا الموقف فرصة للوم والعتاب.

الواقع هو أن مجلسا صغيرا يتركب من 90 نائبا لا يستطيع أن يشرع بصورة مجدية خاصة وأنّ ما يقرب من خمسه ينتمون إلى السلطات التنفيذية (وزراء، سفراء، رؤساء دواوين، شيخ مدينة تونس المعين إلخ...).

فوجود أعضاء السلطة التنفيذيّة بصفتهم مسؤولين أمام الرئيس فقط، أمر يفسد نزاهة التصويت وليس هنالك إذن ما يدعو إلى الاستغراب من كون المجلس لم يأخذ أي قرار جريء واقتصر دائما على التسجيل وعلى المصادقة على القرارات الحكومية. خاصة في المسائل الهامة.

ويمكن تفسير هذه السلبية كذلك بالجو العام السائد في البلاد حيث انعدام السلطة الثالثة يجعل النائب تحت رحمة السلطة التنفيذية، شأنه في ذلك شأن أي مواطن. وما يزيد هذه الحقيقة تأكيدا هو أنّ الفضل في ارتقاء النائب إلى هذه المسؤولية يعود إلى السلطة التنفيذية.

وقد كانت الجلسة الأخيرة التي عقدها المجلس بمناسبة رفع الحصانة البرلمانية والتي حضرتها كانت نموذجا مثاليا لعمل المجلس. فكل الإجراءات الأصيلة المعروفة والمعمول بها في مثل هذا الأمر وقع إهمالها بإمعان. ولم يقع حتى احترام النظام الداخلي للمجلس لجعل الحملة المنظمة تبرز بوضوح.

لكن هذا ليس إلا جزئية لا قيمة لها بالمقارنة مع هذا المشكل الأساسي في كليته. وتلخيصا لما يهم المؤسسات، يمكن التأكيد بأنه عمليا لا توجد حاليا إلا السلطة التنفيذية لتسيير البلاد، ومن حولها الفراغ الكامل. وهي تتصرف حسب مشيئتها. وما يزيد في جعل هذه الحالة محزنة هو أن الشعب أخذ في الانفصال عنها في حين أنّ الحالة تزداد سوءا من يوم إلى يوم في كل المجالات.

إنه ليس من الفائدة في شيء أن نصف هذه المظاهر في الميدان الاقتصادي، فالمأزق جلي واضح لا يستوجب شرحا قد يأخذ حيزا واسعا هنا إن وقع تناوله. ولهذا المأزق أسباب معلومة جيدا (التسييرية الصارمة المصحوبة بالارتجال، وبيروقراطية لا مسؤولة لأنها ليست مُراقبة من طرف الرأي العام، علاقات لا تعرف الاستقرار مع الدول الأجنبية التي تتعامل معها فتتأثر بها مبادلاتنا، إلخ...)

ويضاف إلى هذه الأسباب فتور العمال ورجال الأعمال بعدما تبين أن جهودهم ذهبت سدى.

فلولا الإعانة الأجنبية لعرفت البلاد المجاعة بالإضافة إلى البطالة التي تنتشر باستمرار.

وفي نفس الوقت تتكون طبقة جديدة تثرى على حساب الشعب الذي يغرق في الفقر والبؤس والرشوة، وقد عادت إلى السطح بعدما اضمحلت في السنوات الست الأولى من الاستقلال، إنه السباق نحو تجميع الثروات ببناء القصور الحقيقية وامتلاك الضيعات، وبالنسبة للحذرين تهريب الأموال إلى الخارج. وبدون أن نعمم، نلاحظ أن هذا الوباء أصاب موظفين ومسؤولين سامين في الدولة. وبذلك هم يعطون المثال للشعب الذي يراقبهم. هل بهذا يعبرون عن ثقتهم في النظام الذي هم في خدمته؟ إنه سلوك يدلّ على انعدام الثقة في مستقبله، وعند الإشارة الأولى لخطر يهددهم، سيكونون في حالة

هلع، وستكون أول حركة يقومون بها هي الركض نحو شركات الطيران أو إلى الحدود كما حدث ذلك ذات مرة.

كل هذا ورئيس الجمهورية هو الوحيد أو أحد القليلين الذين يعتقدون أنّ كلّ شيء يسير على أحسن ما يرام في البلاد، وأن تسيير الأمور سليم وأن البلاد تتقدم في كل المجالات. إنه لا يمكن أن ننكر أن قلة من الناس يسخرون كل قواهم لخدمة الصالح العام. ويمكن أن نذكر من بينهم بعض المناضلين وقدماء القادة الذين ما انفكوا يعملون منذ بداية الكفاح التحريري إلى اليوم، بما في ذلك القضاء على مشاكل عودة الثوار ومقاومة الفوضى وإرساء الإدارة على أسس صحيحة، إدارة معركة أو معارك الجلاء وتركيز سمعة تونس في الخارج وحرب الجزائر إلخ... إن العمل عند هؤلاء عادة أو لعله «روتين» كما هو شأن شارلي شابلين في أحد أفلامه.

لكن البقية، أي عموم الناس، فإنّهم توفقوا إلى مسلك آخر بعدما اكتشفوا أن لا فائدة ترجى من تحمل المشاق بما أنّ المجازاة ليست من نصيب من يستحقونها بل إنّ الأقل استحقاقا والأكثر تلاعبا هم الذين ينالون المكافآت في أكثر الأحيان. إن الطباع تغيرت تماما حسب معطيات المرحلة. فالعمل أصبح محل إهمال تام في المكاتب والمعامل حيث ينقضي الوقت في قراءة الجرائد في الصباح وفي التعليق عليها بعد الظهر.

والاعتقاد السائد أن الرأي العام لا يعلم شيئا من ذلك وأنه حتى إذا ما علم - والجميع يعلم أنه يعلم - فإنه لا يقدر على شيء لأنه مكمم. بقي الرئيس، لكن من يستطيع تبليغه الأمر؟ فحتى المخلصون من الذين يتصلون به لا يستطيعون مفاتحته في عيوب النظام، لأنه يغضب لعلم مثل هذه الأمور. وبذلك سادت اللامسؤولية ومعها اللاعقاب.

ولنتوقف قليلا عند موضوع الصحافة وحرية التعبير. كل الجرائد تتقاضى منحا، ولذلك فهي مكبلة. وهي على أية حال قليلة، إذ لا تمثل ربع ما كان موجودا سنة 1937. ومع ذلك هي فارغة، تنشر نفس النصوص التي تزودها بها الوكالة الرسمية للأنباء. فعندما نقرأ جريدة عربية وأخرى باللغة الفرنسية، نكتشف مدرسة ممتازة للترجمة بالنسبة لكل من يريد إتقان اللغتين. لكن لا أحد يقرؤها رغم الاشتراكات التي تكاد تكون إجبارية ورغم مجهودات الحزب والحكومة. ولذلك تفضل الجرائد الأجنبية التي يمكن التعليق على أخبارها كما ذكرت منذ حين.

وفي الميدان الثقافي، تسود الجدانوفيّة، أي توجيه الإنتاج في الآداب والفنون. وهذا الإنتاج في حد ذاته ضعيف، وهو ضعيف جدا بالنسبة لما يمكن أن تخلقه نخبة تنتمي لبلد ذي حضارة عريقة وثقافة مزدوجة كتونس. إنّ التعبير مدح فقط، وبالتالي يقع الارتداد إلى المنشورات الأجنبية التي تمثل أكثر من ثلث الاستهلاك وهكذا تخسر البلاد مقادير هامة من العملة حسبما أثبتت ذلك دراسات جدية في هذا المجال، وفي حين تبقى صناعة الكتاب محرومة من عشرة آلاف موطن شغل بصورة إجمالية، وهو رقم لا بأس به بالنسبة لبلد متخلف كتونس على أنّ المظهر الأكثر أهمية لهذه المسألة هو بطبيعة الحال الذي يتعلّق بالميدان السياسي وتطوّر نفسية الحكومة، المسؤولة الوحيدة على تسيير الشؤون.

ذلك أن هذا النقص في الإعلام عن المعطيات الحقيقية للبلاد يعود بالوبال على الحكومة بالدرجة الأولى، فتجد نفسها تتخذ مواقف لا تعتمد على المعطيات الحقيقية التي من شأنها أن تحتمها.

بدون آية رغبة في التهويل، واعتمادا على الملاحظة فقط، بات من الثابت أن النظام اليوم في عزلة في الداخل وفي الخارج.

ويجدر أن نترك موضوع العزلة في الخارج جانبا هنا ولا نتعرض إليه. لكن في الداخل، لا وجود لأية علاقة متينة ومتواصلة بين الشعب وحكومته. هناك لا محالة بعض الأفراد وبعض المجموعات يحومون حول الرئيس الذي يمسك كل السلط. لكن جلهم تحركهم مطامحهم. فالتدبير الأكمل يتمثل في التقرب من الرئيس في عهدنا الحاضر، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تقام الأحلاف وتتكون المجموعات على أنقاض مجموعات أخرى. فكل شخص بمقدوره الاقتراب من الرئيس يستنجد به. والمعروفون من الناس باتصاله به هم محل مجاملة وتوسل مغر، وحتى محل ملاحقة مضجرة من طرف مختلف المجموعات كذلك لهم أصدقاء كثيرون وكل صديق منهم يداعبه الأمل في أن تقال عنه كلمة خير بمناسبة حديث مع الرئيس. يمكن أن تكون النية سيئة، وتتمثل في المس من خصم. وهكذا استقرت النميمة والوشاية بدون أن يقع إثبات الافتراء بطريقة المواجهة. وبطبيعة الحال، فإنّ الكفة تميل لفائدة من يتفنن أكثر في مثل هذه المناورات.

وتتواصل المسرحية باطّراد. لقد بدأ هذا السلوك يبرز منذ أن تأكد الانتهازيون على اختلاف فئاتهم من أنّ الاستقلال أصبح حقيقة ملموسة، ثابتة لا رجوع فيها ولا تراجع عندها رأيناهم كالحلزون بعد نزول المطر، يبرزون قرونهم باحتشام، ثم يزحفون بهدوء ليواصلوا سيرهم.

وكان الرئيس في البداية يلازم الحذر لأنه وقع تنبيهه ولأنه اعتبر من تجاربه، لكنه فيما بعد، ترك نفسه من حيث لا يشعر، يقع تحت تأثير لهجة الصدق لهؤلاء المتسولين المتنكرين في شكل ناصحين متطوعين فأمكن لهم بحكم المثابرة على الدناءة، أن يطبعوا بطابعهم أخطر القرارات التي اتخذها الرئيس.

وهكذا خرجت سياسة الحكومة تدريجيا عن المنطق الذي يفرض أن تتخذ به القرارات في هذا المستوى بعد النقاش ومكافحة الآراء في مجتمع مسؤول وله الصلاحيات لذلك.

وهكذا أيضا تملك الرئيس الشعور بل اليقين بأنه هو الحاكم وأن حكمه صالح، دون أن يلمح القوى الخفية والمتضاربة في كثير من الأحيان، التي يستوحي منها عمله بصورة غير مباشرة.

هذا الشعور، ألا تؤكده كل يوم مظاهر الارتياح والتأييد التي يشاهدها دائما وفي كل مكان؟ ها هي الصحافة والإذاعة والتصفيق والإنجازات والتدشينات... إذن كل شيء يسير على أحسن ما يرام والمستقبل وردي. لكنه لا يفقه أن كل الناس أصبحوا على بينة. فبينما يراقب الشعب ويعلم الحقيقة المرة للواقع الذي يدور أمام عينيه في هذه الدار البلورية، لا يرى الآخرون، أي الذين يسعون إلى قضاء مآربهم الخاصة فقط، إلا جهازا عظيما للمغالطة. وهؤلاء ما يهمهم، تجميل سمعتهم ليصل خبرها إلى الرئيس.

وهنا تأتي المظاهرات التلقائية والقصائد الشعرية والندوات الصحفية حول كل شيء ولا شيء، وبناء ما تم بناؤه بعد، وتدشين ما دشن مرتين أو ثلاث، والجولات التفقدية وما يتبعها من ضجيج، فالإجراءات التأديبية المتفرقة لإرجاع الضالين إلى الجادة، والتصريحات في المطار وهلم جرا.

لكن هذه المظاهر كلها لا تخلو من نقطة زيف، إذ نكاد نجد في كل التصريحات نفس الكلام تقريبا: عملا بأوامر السيد الرئيس الذي كلفني بتبليغكم... إن هذه الجمل تعبر عن كون المتكلم لأنه غير مقتنع بما يقول وبما يفعل، يتجنّب تحمل آية مسؤولية حرصا منه على ضمان المستقبل. فإذا جاء اليوم الذي يحاسب فيه على أعماله، يستطيع أن يقول أنّه كان مجرد منفذ، وقد يدخل ذلك على الأقل في اعتبار ظروف التخفيف....

سيدي الرئيس،

أردت بهذه الرسالة تبليغ صوت مناضل تعرفونه جيدا ولا تجهلون أفكاره التي ليست جديدة عليكم.

إن المجال ضيق ولا يسمح لي في وثيقة كهذه، مع الأسف، بتدعيم ما جاء في هذه الرسالة القصيرة بالأرقام والتواريخ والتوضيحات الأخرى في شأن هذا التطور للأوضاع الذي أثرته والذي أخذت منه موقفا مخلصا بمناسبة قطع كل مرحلة من مراحلها، لتقويم الاتجاه.

وأعتقد صادقا أنني تابعت الأحداث في مظاهرها بوضوح كامل في الرأي. لقد انبثقت من الشعب وارتقيت إلى كل المستويات النقابية والسياسية بوسائلي الخاصة وبقيت على اتصال دائم بالشعب رغم مكانتي الاجتماعية العالية والانتقادات والافتراءات التي أثارتها وضعيتي حولي، ووجدت نفسي قادرا على الإجابة عن كل الأسئلة التي كانت تطرح علي في المستوى العمومي، إلا سؤال واحد فقط، وهو:

هل حقا يحتاج السيد بورقيبة إلى كل هذا؟ كثيرا ما ألقيت هذا السؤال على نفسي ولم أجد له جوابا رغم كل الافتراضات التي رسمتها.

فلو افترضنا أن بورقيبة يرى من الضروري أن يبقى في الحكم أطول وقت ممكن لبناء مستقبل البلاد على قواعد متينة، لإيمانه برسالته التاريخية وللدور الذي يرى من واجبه أن يقوم به. فهل يمنعه ذلك من توخي سياسة ديمقراطية؟

هل هذه هي الطريقة الأسلم التي من شأنها أن تبقيه برئاسة الجمهورية؟ وهل من الضروري، لضمان ذلك، أن يلتجئ إلى طرق بالية تتمثل في تحوير

التشكيلة الحكومية أو تغيير أعضاده من حين لآخر، بالاعتماد على تنظيم المناورات مع بعض المجموعات وعلى إهانة أعضاده بعزلهم أو إقصائهم ثم إرجاعهم لما ينتهي أمرهم؟ أو بالتدخل في الشؤون الداخلية للمنظمات القومية التي لها ضلع في مسك الحكم لجعلها بلا روح؟

إن هذه الطرق التي يذكرنا أسلوبها بالقرن التاسع عشر لا يمكن أن تتصف اليوم بالنجاعة إلا في بعض البلدان الكبيرة التي تفي نفسها بنفسها والتي لا يمثل فيها مثل هذا التكتيك إلا قطرة من محيط. إنّها بلا قيمة في بلد صغير مثل تونس حيث لا يخفى شيء عن معرفة الناس لأن كل الناس يعرفون بعضهم بعضا.

إنها بالعكس تغذي الانتهازية والفساد بكل أنواعه، وانحلال الأخلاق السياسية في مستوى الشعب بأسره، وبالتالي تحط من قيمة النظام. وإلى جانب ذلك يلتقي الشعور بالضيق في المستوى الشعبي مع الحقد الذي لا يمحي لدى الإطارات المهانة حتى وإن وقع إعادة تأهيلهم وتشريفهم.

إن تدهور وضعيتنا التي كانت على أحسن ما يكون في البداية ينذر حاليا بالخطر، في هذا الظرف الذي يعيش فيه العالم بأسره غليانا كاملا، وخاصة في إفريقيا.

وقد حملنا بعد مسؤولية ثقيلة جدا في تطور القارة الإفريقية حيث دشنا النظام الرئاسي المعتمد على الحزب الواحد. فنحن في عصر الترانزيستور والعدوى تسري بسرعة. فإذا لم نصلح أحوالنا في الإبان، فإننا نخشى أن يجرفنا نحن بذاتنا التيار الذي سطرنا نحن أنفسنا طريقه لإفريقيا، خاصة وأن حدودنا سهلة العبور.

إن التعويل على سلبية الشعب التونسي لا يعدو أن يكون وهما لمن تصوّره.

ذلك أن الشعب التونسي معدنه من ألين ما يكون لكن من أصلب ما يكون. ويجب ألا ننسى أنه التجأ أكثر من مرة عبر تاريخه عندما سدت أمامه الأفق، إلى حرب العصابات التي يرجع الفضل في اختراعها إليه.

ما العمل إذن؟

مما لا شك فيه أنكم تعرفون أحسن مني ما يجب عمله نظرا لكونكم أكبر مني سنا وتحتلون مركزا يؤهلكم أكثر منّي لمعرفة ذلك. على أني سأشرح لكم رأيي علّكم تأخذونه بالاعتبار.

إن بورقيبة رجل ارتقى إلى رئاسة الدولة برصيد عظيم من الثقة الشعبية، وكان في الإمكان الإبقاء على هذا الرصيد أبدا لو قابلتموه من جانبكم بثقة مماثلة في الشعب وفي إطاراته.

لكن هذا لم يحصل. بل كان منكم أن تحدثتم عن نقص في درجة النضج في الأرياف وعن النزعة الجهوية، وهو ما يتضارب مع مواقفنا في العهد الاستعماري.

وحتى إذا افترضنا أن هذا الحكم صحيح، فماذا صنعنا لإزالة هذه النقائص ولتعليم الشعب ممارسة الديمقراطية بصورة تدريجية؟ إن ما حصل هو العكس، والديمقراطية ما انفكت تضيق بدورها.

وكان رجل الشارع في ذلك الوقت يتساءل: «هل السيد الحبيب يطلع كما يجب على الحالة؟ لا شك أنهم يغالطونه يقول هذا خاصة عندما يسمع خطبكم المتفائلة وما فيها من جزئيات وأرقام وتوضيحات خاطئة لأنها معدة من طرف موظفين لا أخلاق لهم. أما الآن ومنذ ثلاث سنوات، أصبح رجل الشارع لا يؤوّل هذا التأويل، بل اللهجة تبدلت وأصبح يقول: أصبحنا نعلم الآن إلى أين يسير، إن قصده هو الضغط المتواصل دوما.

إنه باستطاعتكم تكذيب هذه التكهنات والمبادرة بالتفتح بتمكين الاتجاهات الفكرية من التعبير عن نفسها وتمكين الكفاءات من البروز بكامل الحرية بذلك تستطيعون على مراحل مضبوطة بناء ديمقراطية حقيقية في البلاد تضمن لها الاستقرار فيزيد مركزكم وسمعتكم تدعما وتكونون بالمناسبة نفسها، مهدتم لخلافتكم لتكون سهلة وتتم بلا ألم. وإلا فستكون الفوضى بعدكم، وعندها يكون عملكم الحاضر، مهما كان نبل دوافعه، محل حكم قاس لدى أجيال المستقبل، ويكون ماضيكم المجيد محل تنكر، وذلك لأن النهاية في حكم التاريخ تتناول دائما مشاهير الرجال من خلال نتائج عملهم بدون اعتبار لنواياهم أو لأعمالهم الأولى.

إن هذه الأفكار لا تؤدي إلى مأزق، وليس أمامنا اليوم خيارا آخر وإمكانية إرساء تونس ديمقراطية ومستقرة دوما إمكانية قابلة للتحقيق، وما تقدم ليس من ضروب الحلم والخيال وأود أن أوضح أنّ دعوتكم للديمقراطية لا تعني فتح كل المنافذ بصورة فجئية وفي نفس الوقت.

ومن الأجدى الشروع في هذا العمل انطلاقا من الحزب والمنظمات القومية حتى تصبح كما يجب أن تكون، ركائز النظام من الصلب لا من الطوب. وتتجسم العملية في إحيائها من جديد فالسماح لها بتجديد بنائها بكل حرية انطلاقا من القاعدة، حسب مقاييس أخرى - بالنسبة لكل منظمة يكون النقاش حرا وتؤخذ القرارات بكامل حرية، مع إمكانية التعبير عن الآراء أو شرح البرامج حتى عموميا بواسطة الجرائد - حرية اختيار المسؤولين في مختلف الدرجات بطريقة الانتخاب - فض مشاكلنا الداخلية بواسطة مجالسها المنتخبة بحرية لهذا الغرض، مع إمكانية اللجوء إلى القضاء في حالة استئناف.

ولكي تكون هذه الإجراءات ناجعة، يجب أن تكون مقرونة بالحياد المطلق لكل الموظفين المجسمين للسلطة (الشرطة، الحرس الوطني، الولاة والمعتمدون، إلخ...) وللقضاة بالانخراط في الجمعيات السياسية وفي النقابات المهنية بالإضافة إلى القضاء.

وحتى أعضاء الحزب الذين ينتمون إلى الأصناف المذكورة أعلاه يجب أن يغادروه. أما الوزراء فإنه يجب أن يوضعوا في حالة عطلة بالنسبة إلى الحزب.

هكذا، وبهذه الطريق فقط، يزول الخوف والريبة، مع كل ما يحملانه من نفاق وحسابات خسيسة، ويحل محلهما التنافس الصريح السليم والنزيه، حتى وإن كانت دوافعه يحركها الإيمان الصادق. وإذا حدث تشكيك في حسن استعمال الحريات من طرف هذه المنظمات، فإنه يمكن تحكيم القوانين الجاري بها العمل في هذه المادة مع إدخال تنقيحات عليها تستمد من الأجهزة التشريعية الواسعة والكثيرة التنوع في البلدان الديمقراطية العريقة.

وأنا فيما يخصني لا أشعر بأي تخوف من هذه الناحية لأنني متيقن من أن بلادنا تزخر بالإطارات الكفاءة، المخلصة والمستقيمة.

ويجب أن تشتمل هذه المرحلة الأولى، بطبيعة الحال على إلغاء كل القوانين الاستثنائية التي تمنح الحكام سلطات واسعة على حرية الأفراد. ويجدر بالخصوص تناول القانون الأساسي المتعلق بمجلس الدولة وتركيز هذا المجلس في أقرب الآجال. فليس رجال القانون أو المسيرون السياسيون المحنكون يعوزوننا لتسيير هذه المؤسسة بالطريقة التي تتماشى أكثر مع المصلحة العليا للبلاد.

ويمكن في المرحلة الثانية بعد حوالي سنتين، أن نفكر في تنظيم انتخابات جديدة لنفرز تمثيلا وطنيا أصلح. وفي انتظار ذلك يمكن أن تمثل الانتخابات

البلدية المقررة لماي 1966 تجربة، على شرط أن تحاط بكل الضمانات الديمقراطية الضرورية. وإذا لم تتوفر الشروط في ذلك التاريخ فإنه يمكن تأجيلها لمدة من الزمن وأخذ ما يكفي من الوقت لتوفير تلك الشروط. ومهما كان من أمر، فإنّ المصلحة الوطنية التي نريدها تقتضي أن تزول الطريقة المتمثلة في إعداد الانتخابات في أعلى مستوى، وتوجيهها ومراقبتها وتفسيرها.

ويمكن لهذا الغرض القطع مع مواصلة خداع الناخبين، يمكن تحديد القائمات إلى ثلاث أو حتى إلى اثنتين. وهذا الإجراء في حالة اتخاذه يكون مخالفا للدستور الحالي. لكن ثمة ما يمنع من تغيير الدستور في اتجاه تشريع يسمح لوجود ثلاثة أحزاب أو حتى حزبين، ونكون بذلك أتينا بابتكار تونسي لا شك أنه سيؤتي أكله في الوقت الذي يتسبب الحزب الواحد - الذي كثيرا ما يكون دستوريا - في أخطر المصائب في بلدان أخرى.

المرحلة الثالثة: العفو العام

أخيرا، وفي مرحلة ثالثة، يمكنكم إعلان العفو العام لفائدة السياسيين المحكوم عليهم الموجودين داخل البلاد وخارجها، لتمكين أولئك اللاجئين المنتشرين في جهات عديدة من العالم من العودة إلى أرض الوطن وخدمة البلاد.

وكل هذا يكون عملكم المأثور وكل هذا يكون أجمل أثر لحياتكم. الأمر الذي يبوئكم مكانة ممتازة في التاريخ.

وبذلك تكونون قد حققتم معجزتين. وتكونون قد برهنتم للعالم ولنفسكم أنه يمكن إرساء الديمقراطية في بلد فتي، رغم الآراء المخالفة للخبراء المزيفين.

وأنا شخصيا متيقن من النجاح لأنني أؤمن راسخ الإيمان بالأفكار التي فكرت فيها مليا والتي من أجلها سأواصل الكفاح إلى آخر رمق من حياتي.

ولي الأمل في أن تمثل هذه الرسالة همزة وصل بيننا وتحيي من جديد الوحدة الحقيقية في الشعور والتفكير التي جمعتنا مدة طويلة وأعطت أحسن النتائج لفائدة تونسنا العزيزة.

أحمد التليلي

قائمة المراجع
(عربية ومترجمة)

◈ كتاب الله، القرآن الكريم.

◈ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.

◈ الإمام محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق د محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى.

◈ مبارك الميلي، الشرك ومظاهره، تعليق وتحقيق أبو عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر، 2001.

◈ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق د/ محمد أبو ليلة، ود/ نور شيف عبد الرحيم رفعت، واشنطن، جمعية البحث في القيم والفلسفة، 2001.

◈ مالك بن نبي، العفن، ترجمة نور الدين خندودي، الجزائر، دار الأمة، 2007.

◈ مذكرات شاهد القرن، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، دار الفكر، 1969-1970

◈ محمد خليفة، بين يدي الدستور، إسطنبول، دار منابع النور، 2021.

◈ مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، ترجمة مروان خير، دار الصادق.

◈ عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الرابعة (الموسوعة الموجزة) 2008.

◈ أبو الوليد الازرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، بيروت، دار الاندلس، الطبعة الثالثة، 1983.

◈ هشام بن محمد الكلبي، كتاب الأصنام، القاهرة، دار الكتب المصرية، 2012.

◈ جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1985

◈ بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربي، الطبعة الثانية 1987

◈ لوك فيري وكلود كبلايي، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود بن جماعة، بيروت، دار التنوير، 2015

◈ فريدريش نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، بيروت، منشورات الجمل، 2003.

◈ فريدريش نيتشه، نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح، بيروت، منشورات الجمل، 2011.

قائمة
المراجع أجنبية

◈ Ernst H. Kantorowicw, The King's Two Bodies, A Study in Medieval Political Theology, Princeton University Press, 1957.

◈ E. Cassirer, The Myth of the State, Yale University Press, 1946.

◈ E. Said, Culture and Imperialism, New York, Vintage Books, 1993

◈ F. Nietzsche, Thus Spake Zarathustra, translated by Thomas Common, New York, The Modern Library

◈ George Burdeau, L'Etat, Paris, Seuil, 1970

◈ Thomas Hobbes Leviathan, in Great Books of Western World, 21 Tom, Encyclopedia Britannica Tom 21

◈ T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, the complete 1922 Oxford text, London, 2004

◈ H. Arendt, On Revolution, London, Penguin Books, 1990.

◈ Norman Daniel, Islam and the West: The Making of an Image, Oxford, OneWorld Publications, 2009.

◈ R. W. Southern, Western Views of Islam in The Middle Ages, Harvard University Press, third reprinting, 1980.

◈ Michel Foucault, Il faut défendre la société, Paris, Gallimard, 1997

الفهرس

مُدخل..... 5

القسم الأول: نظرية في الشرك 9

الباب الأول: آلهة مع اللّه..... 11

الفصل الأول: آلهة أشخاص 13

المبحث الأول: آلهة سياسية..... 14

أولاً - من فرعون إلى الإمبراطور..... 14

أ. فرعون..... 14

ب. النمرود..... 17

ج. الإمبراطور..... 19

ثانيًا: من الإمبراطور الروماني إلى الإمبراطور الياباني..... 20

أ. الإمبراطور الروماني..... 21

ب. الإمبراطور الياباني..... 23

ثالثاً _ تطلع ملوك أوربا إلى الربوبية العليا (الألوهية)..... 25

المبحث الثاني: أحبار ورهبان..... 32

أ. تأليه المسيح..... 33

ب. ربوبية الأحبار والرهبان..... 37

الفصل الثاني: آلهة أشياء..... 43

المبحث الأول: الأصنام..... 44

أ. أصنام التقليد..... 44

ب. أصنام التخليد..... 47

المبحث الثاني: الأوثان..... 49

الفصل الثالث: آلهة أفكار 53

مقدمة..... 54

المبحث الأول: الكنيسة - جسد المسيح..... 55

أولاً _ ثوابت الكنيسة..... 55

أ. الله والمسيح شيء واحد 56
ب. المسيح والمسيحيين جسد واحد 57
ج. هيكل الروح القدس 58
ثانيًا) وظيفة الكنيسة 59
أ. حكومة عالم القداسة 59
ب. الصد عن سبيل الله 60
نيكولاس الكوزي (1401-1464) 65
جان جيرمان (1400-1461) 66
أنياس سيلفيوس (1405-1464) 66
المبحث الثاني: نظرية الملك له جسدان 70
أولاً _ جسد الملك الذي يموت 71
ثانيًا: جسد الملك الذي لا يموت 72

الباب الثاني: التوجه بالعبادة إلى غير الله والحكم بخلاف ما أنزل الله 77

الفصل الأول: التوجه بالعبادة إلى غيرالله 79

أولاً - السجود 79
ثانيًا - الركوع 81
ثالثًا: الاعتكاف 82
رابعًا - الحج 82
أ. القصد 83
ب. التلبية 84
ج. الطواف 85
خامسًا - التذكية وتقديم القرابين 86
سادسًا - النذر 87
سابعًا: عبادات منقرضة 88
أ. حرق البخور 88
ب. عبادة الكواكب 88
ج. تقديم القرابين البشرية 89
د. السائبة والبحيرة والوصيلة والحام 90
هـ. عبادة العقل 91

الفصل الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله 93
المبحث الأول: مفهوم الطاغوت وأنواعه 94
أولاً _ أنواع الطاغوت 94
ثانيًا: مفهوم الطاغوت 95
المبحث الثاني: حكم الطاغوت والحكم باسمه 97
أولاً _ حكم الطاغوت 97
ثانياً _ الحكم باسم الطاغوت 99

القسم الثاني: آلهة الحداثة 103

الباب الأول: تعدد آلهة الحداثة 105

تمهيد 107
الفصل الأول: الدولة 111
أولا: سر الاسم في نظرية الدولة 112
أ. تاريخية الاسم في الفكر الأوربي 112
ب. أثر الاسم في الفكر الإسلامي 114
ثانيًا: أسرار الصورة: (ليفايثان) 117
أ. سر الشكل 118
ب. أسرار العنوان الفرعي 118
ج. أسرار الرموز 120
ثالثًا: أسرار الوظيفة 121
أ. الدولة: مصدر المشروعية في الداخل 122
ب. مصدر المشروعية في العالم 126
الفصل الثاني: الثورة 133
المبحث الأول: الثورة الفرنسية ومعقباتها 134
المبحث الثاني: الثورة جنوب المتوسط 136
الفصل الثالث: الوطن 141
الفصل الرابع: الشعب 147
الفصل الخامس: الزعيم 155
المبحث الأول: الزعيم-الصنم في التجربة الجزائرية 157

المبحث الثاني: الزعيم-الصنم في التجربة المصرية 161

خاتمة الباب الأول 165

الباب الثاني: التاريخ كله تاريخ معاصر (أصنام، وفراعنة، وقرابين) 169

تمهيد 171

الفصل الأول: الأصنام (قديمها وحديثها) 175

المبحث الأول: التفلسف بالمطرقة 176

المبحث الثاني: ميثولوجيا الحداثة 180

أولاً _ ميثولوجيا الدولة 181

ثانيًا: ميثولوجيا الثورة 184

الفصل الثاني: الفراعنة (في العصر الحديث والحداثة) 187

المبحث الأول: فراعنة شمال المتوسط 188

المبحث الثاني: فراعنة جنوب المتوسط 191

الفصل الثالث: القرابين (عبد الرازق السنهوري وعبد القادر عودة) 195

أولاً _ اقصاء عبد الرازق السنهوري 196

ثانياً _ اعدام عبد القادر عودة 198

الملاحق 203

الملحق 1 205

الملحق 2 209

قائمة المراجع (عربية ومترجمة) 252

قائمة المراجع أجنبية 254

الفهرس 000